العقيدة والسلوك

من الإيمان إلى التطبيق والانفصام بينهما

دكتور

أحمد عبده عوض

أستاذ بجامعة طنطا

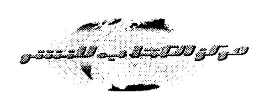
كاتب إسلامى وداعية

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

مركز الكتاب للنشر

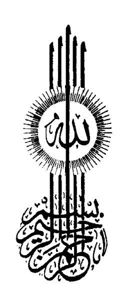
الطبعة الأولى
٢٠٠٢ م



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net



﴿ الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانهم بِظُلْمٍ
أُوْلَئكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(سورة الانعام- آية ٨٢)



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بعظمته وكماله وجلاله، والصلاة والسلام على خير خلقه، وخاتم رسله ﷺ وعلى آله وأصحابه الكرام، أما بعد.

فإن الإيمان بالله - أى بالذات الغيبية العلوية القاهرة الجديرة بالطاعة والعبادة- هو روح الإسلام وأصل عقائده كلها، كما بينه كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. فالقرآن حين يتحدث عن أركان الإيمان ومتعلقاته يجعل الإيمان بالله أولها وأصلها كما فى قوله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١٣٦]. والرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يقول فى حديث جبريل المشهور حين سأله عن الإيمان. قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»[(١)].

فالإيمان بالله هو الأصل، وكل أركان العقيدة الأخرى مضافة إليه وتابعة له، ذلك لأنه لا يتصور أن يؤمن أحد بالرسل إلا بعد الإيمان بالمرسل، ولا بالجزاء والحساب إلا بعد الإيمان بالمجازى والمحاسب وكذلك سائر أركان الإيمان التى تضمنتها الآيات السابقة.

والإيمان بالله، يتضمن الإيمان بوجوده بالضرورة، والإيمان بوحدانيته فى ربوبيته وألوهيته، والإيمان باسمائه الحسنى وصفاته العليا التى يتجلى فيها اتصافه بكل كمال يليق به، وتنزهه عن كل نقص، فكما أن الإيمان بالله تعالى هو جوهر العقائد الإسلامية فإن توحيد الله تعالى هو جوهر الإيمان بالله.

وقد أوجز رسول الله ﷺ ما يجب الإيمان به من العقائد الإسلامية فى

---

(١) صحيح مسلم- كتاب الإيمان.

الحديث الذى يرويه عبادة بن الصامت رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ «من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن «عيسى» عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى «مريم» وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ماكان عليه من العمل». فى هذا الحديث جمع ﷺ أصول العقائد التى بها النجاة فى الآخرة. فإن العقائد على كثرتها فى كتب التوحيد ترجعه إلى أربعة مقاصد، وهى:

١- معرفة الله تعالى وتوحيده (توحيد الربوبية- الألوهية- توحيد الأسماء والصفات).

٢- الإيمان بالرسل والملائكة والكتب والتكاليف.

٣- الإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب والجزاء والصراط والجنة والنار.

٤- الإيمان بالقدر خيره وشره.

وعندما نرصد مفهوم العقيدة وسماتها فى الإسلام، فإن هنالك نقاطا يجب أن لا تغيب عن أذهاننا كلما تحدثنا عن هذه العقيدة، وهى:

١- ربانية هذه العقيدة، وهى المنهاج الأخير للحياة البشرية إلى يوم الدين.

٢- أن هذه العقيدة التى يقام عليها صرح الشريعة هى فقط التى تكفل سعادة الإنسان فى الدارين.

٣- وهى -وحدها- التى تجمع بين الروح والجسد فى نظام الإنسان والأرض والسماء فى نظام الكون وبين العبادة والعمل فى نظام الدين.

٤- أن الأعمال كلها والتصرفات جميعها مبنية على العقيدة، وهى انعكاسات لها.

٥- كل عمل لا يرتبط بالعقيدة فلا وزن له ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ**﴾ [إبراهيم: ١٨]

هذه الأمور الخمسة هى المنارة الهادية لكل من أراد النجاة من الشقاء، ولمن أراد الطمأنينة والسلامة والسعادة.

ومن أجل أهمية العقيدة: فقد أفرد لها رب العزة مساحة واسعة من كتابه، وأعطاها فترة طويلة حتى تستقر فى الأعماق وتعيش مع النفوس، فالفترة المكية كلها تقريبا لا تكاد تخرج بنصوصها عن هذه القضية الكبرى، ولا تناقش إلا هذا الموضوع وذلك لأن بناء النفوس بالعقيدة عملية بطيئة شاقة، قد يحتاج هذا العمل مدة توازى نمو الجسم نفسه ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء:١٠٦]

وكذلك فإن استقرار العقيدة فى الأفئدة يتوقف عليه تنفيذ جميع التشريعات، ومن هنا تأخر نزول التشريع إلى المدينة حتى تستقر العقيدة فى نفوس الصحب الكرام الذين جعلهم الله ستارا لدينه، ونصر هذا الدين على أيديهم.

وكذلك فإن العقيدة تمثل الجذور لشجرة هذا الدين، وما لم تكن الجذور ضاربة فى أعماق الأرض فإنها لن تحمل فروع هذه الشجرة الضخمة الباسقة، فالعمل الصالح لابد له من إيمان متمكن فى جوانب النفس وأغوارها وأعماق الفؤاد.

وكذلك فالعقيدة تمثل الجذور لشجرة هذا الدين، ومالم تكن الجذور ضاربة فى أعماق الأرض فإنها لن تحمل فروع هذه الشجرة الضخمة الباسقة، فالعمل الصالح لابد له من إيمان متمكن فى جوانب النفس وأغوارها وأعماق الفؤاد.

وكذلك فالعقيدة تمثل الأساس للبناء، والعمارة الضخمة لابد لها من أساس مكين وقاعدة صلبة؛ حتى يستقر فوقها البناء.

ومن أجل أهمية العقيدة وحساسية موضوعها وجوهريتها: فقد كانت معظم نصوص العقيدة فى القرآن بكلمة «قل» التلقينية، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾.

وهذه العقيدة لها تجلياتها النورانية العظيمة، وانعكاساتها فى سلوك المسلم، وحياة المجتمع؛ مما يمكن إبرازه فيما يلى:

أولاً: أنها يهدى بها الله من اتبع رضوانه سبل السلام، أى: أن من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالإيمان بهذا النور يهديه -هداية دلالة تصحبها العناية والإعانة- الطرق التى يسلم بها فى الدنيا والآخرة من كل ما

يرديه ويشقيه، فيقوم فى الدنيا بحقوق الله تعالى، وحقوق نفسه الروحية والجسدية، وحقوق الناس، فيكون متمتعا بالطيبات، مجتنبا للخبائث، تقيا مخلصا، صالحا مصلحا، ويكون فى الآخرة سعيدا منعما، جامعا بين النعيم الحسى الجسدى، والنعيم الروحى العقلى.

ثانياً: أن من يتبع هذه العقيدة يجد فيها جميع الطرق الموصلة إلى ما تسلم به النفس من شقاء الدنيا والآخرة؛ لأنه دين السلام، والإخلاص لله ولعباده، دين المساواة والعدل، والإحسان والفضل.

ثالثاً: الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق المؤدى إلى القصد والغاية من الدين فى أقرب وقت، لأنه طريق لا عوج فيه ولا انحراف، فيسلم سالكه ولا يضل فى سيره، وهو أن يكون الاعتصام بالقرآن الكريم على الوجه الصحيح، الذى تكون عقائده وآدابه وأحكامه مؤثرة فى تزكية الأنفس وإصلاح القلوب، وإحسان الأعمال، وثمرة ذلك سعادة الدنيا والآخرة، بحسب سنن الله فى خلق الإنسان.

وأبو شريح الخزاعى، يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله؟. قالوا: بلى..

قال: إن هذا القرآن طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدا»[1].

وعن أبى الأحوص، عن عبد الله -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، وهو الشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه»[2].

رابعاً: استقامة الخلق والقصد، يكون لهم هوى غير أمر الله، وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله، ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم خيرة إذا قضى الله ورسوله أمراً،

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الصغير.
(٢) رواه الدرامى فى سننه.

وبذلك يوحدون نهجهم، ويوحدون هدفهم، ويوحدون طريقتهم، فلا تفرق بهم السبل، عن الطريق الواحد الواصل المستقيم.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: «وجبت محبتى للمتحابين فى، وللمتجالسين فى، وللمتزاورين فى، وللمتباذلين فى»[1].

خامساً: الأخوة الإيمانية: لقد كان من مستلزمات إلغاء الفوارق العرقية، والعنصرية، والإقليمية، والطبقية، التى نادى بها الإسلام، أن أعلن الأخوة الإيمانية بين جميع المؤمنين.

قال تعالى: ﴿... **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**...﴾ [الحجرات: ١٠]، وبذلك غدا المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها، من كل عرق ولون ولغة: أسرة إسلامية واحدة، تربط ما بين أعضائها العقيدة الواحدة، والتشريع الواحد.

ولقد نبه القرآن الكريم الرسول ﷺ وأمته من بعده، إلى خطورة الفُرقة، وخطر المفرقين، الذين فرقوا دينهم مللا ومذاهب، فتمزقوا شيعا وأحزابا، يضرب بعضهم رقاب بعض، فضلوا عن سواء السبيل، مما أفسدوا به دين الله -تعالى- ودنيا الناس. ويعد انفصالا عن الدين وكفرا به، الأمر الذى يبرأ منه الرسول الكريم محمد ﷺ وتبرأ عنه أمة التوحيد والوحدة، حتى تلقى الله بوجه مشرق، وصفحة نقية، على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٩].

كما أن العقيدة تغرس معانى الكرامة والعزة فى قلب المؤمن باعتباره إنسانا يشعر بمعان أعمق، وعزة أشمخ، ويسمو به إيمانه إلى سماء عالية لا يسعى إليها على قدم ولا يطار على جناح؟

---

(١) رواه مالك، فى الموطأ.

وهو بوصفه عضواً فى أمة الإيمان- يشعر بكرامة أكبر وعزة أخرى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠] ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

يشعر المؤمن بالعزة التى سجلها الله فى كتابه للمؤمنين مقرونة بالعزة لنفسه ولرسوله، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ويشعر بأنه كتب له الكرامة والحرية التى بها يعلو ولا يعلى، ويسود ولايساد: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

ويشعر أنه فى ولاية الله البر الكريم، ولاية المعونة والنصرة، والرعاية والهداية ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١].

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

ويشعر المؤمن أنه فى معية الله الذى يكلؤه دوما بعينه التى لا تنام، ويحرسه فى كنفه الذى لا يرام، ويمده بنصره الذى لا يقهر: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:١٩]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣].

ويشعر المؤمن أنه فى حماية الله القوى القدير، يذود عنه، ويرد عن صدره سهام الكائدين والمعتدين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

والقرآن يجعل المؤمنين مقياسا لصلاح الأعمال أو فسادها، فحكمهم عند الله معتبر، ورؤيتهم للأعمال مقرونة برؤية الله ورسوله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وإذا كانت هذه الآية توحى بأن رضا المؤمنين من رضا الله، فإن مقتهم أيضا من مقت الله سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٣٥].

وإن هذه المعانى الكبيرة، والمشاعر الرفيعة، إذا سرت فى كيان فرد، جعلت منه إنساناً عزيزاً كريما، كبير النفس، كبير الآمال، إنسانا لا يحنى رأسه لمخلوق، ولا يطأطأ رقبته لجبروت، أو طغيان أو مال أو جاه شعاره هذه الكلمة: «سيد فى الكون، عبد لله وحده».

لا عجب بعد هذا، إذا رأينا عبداً أسود مثل بلال بن رباح، حين يشرب قلبه إيمان، يتيه على «السادة» المتكبرين فخراً، ويرفع رأسه عاليا، فقد صار بالإيمان أرفع عند الله ذكرا، وأسمى مقاما، ينظر إلى أمية بن خلف وأبى جهل بن هشام وغيرهما من زعماء قريش وصناديد مكة، نظرة البصير للأعمى، نظرة السائر فى النور إلى المتخبط فى الدجى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

ولا غرو بعد ذلك إذا رأينا أعرابياً أمياً من البداة الجفاة، مثل ربعى بن عامر حين باشرت قلبه عقيدة الإسلام، وأضاءت فكره آيات القرآن، يقف أمام رستم قائد قواد الفرس، وهو فى هيله وهيلمانه، وأبهته وسلطانه، غير مكترث له: ولاعابىء به، وبما حوله من خدم وحشم، وما يتوهج بجواره من فضة وذهب، حتى إذا سأله رستم: من أنتم؟ أجابه هذا الأعرابى فى عزة مؤمنة، وإيمان عزيز، إجابة خلدها التاريخ، قال: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى هدى الإسلام.

ولا عجب أن تقرأ لشاعر مؤمن يناجى ربه فى عبودية عزيزة بالله، متذللة إليه، غنية بالله، فقيرة إليه، قائلا:

ومما زادنى شرفاً وعزاً	وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك «يا عبادى»	وأن أرسلت أحمد لى نبيا!

قال ابن القيم - رحمه الله- فى كتابه مدارج السالكين:

«فى القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله.

وفيه وحشة لايزيلها إلا الأنس بالله.

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والقرار إليه.

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً «أ.هـ».

وبهذا الإيمان البسيط العميق الذى جاء به الوحى، وأيده العقل، واقتضته الفطرة، وشهد له كل سطر، بل كل كلمة فى كتاب الوجود المفتوح- سلم المؤمن من الشك والاضطراب، واستراح من البلبلة والحيرة، الذهنية والنفسية.

بهذا الإيمان الواضح، حل المؤمن ألغاز الوجود الكبرى، حين عرف مبدأه ومصيره، وغايته ومهمته، بل عرف مبدأ الوجود كله ومنتهاه وغايته وهدفه: فانحلت عقد الشك من نفسه؛ وزالت علامات الاستفهام الكبيرة من حياته.

لقد عرف أن له ربا؛ هو كل شيء؛ هو الذى خلقه فسواه؛ وكرمه وفضله؛ وجعله فى الأرض خليفة؛ وكفل له رزقه، وسخر له ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فاطمأن إلى ربه، ولاذ بجواره، واعتصم بحبله، فآوى بهذا الإيمان إلى ركن شديد، ولاذ بقرار مكين، واستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

وعرف المؤمن أنه لم يخلق فى هذه الحياة عبثا، ولم يترك سدى، فبعث الله إليه رسله بالبينات، هداة ومعلمين، مبشرين ومنذرين؛ ليهتدى الناس إلى الحق، ويستبينوا معالم الطريق، ويعرفوا مايرضى الله فيتبعوه، وما يسخطه فيتقوه، وليقيموا بين الناس موازين القسط، ويحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، وليكونوا أمثلة رفيعة يتخذها الناس أسوة حسنة لصوالح الأعمال، ومكارم الأخلاق.

عرف المؤمن أنه ليس غريبا على الكون الكبير من حوله، ولا معزولا عنه، إنه بإيمانه لم يعد وحده. إن الكون كله معه، فنظرة هذا الكون هى الإيمان. هى التسبيح والسجود للرب الأعلى، الذى خلق فسوى، والذى قدر فهدى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٤٤].

إن هذه المكاسب الهائلة التى غنمها المؤمن، وجنى ثمارها، وقطوفها الدانية، لا يقدرها حق قدرها إلا من حرمها، أو تأمل بعين بصيرته حال من حرمها.

فالجاحدون بالله، أو المرتابون فيه، وفى لقائه يوم الحساب يحيون حياة لاطعم لها ولا معنى، حياة كلها قلق وحيرة، كلها علامات استفهام، كلها أسئلة لا تجد لها عندهم جوابا.

إنهم لا يوقنون بشىء يطمئنون إليه. ويستريحون له فى قضية وجودهم أنفسهم، ووجود الكون كله من حولهم. من أين جاءوا؟ ومن جاء بهم؟ ولماذا جاء بهم؟ وإلى أين يذهبون بعد هذه الرحلة القصيرة، التى لم يفهموا لها سرا، ولم يعرفوا لها غاية؟ وما هذا الكون؟ وما مبدؤه؟ وما غايته؟ وما علاقتهم به؟

إن عقولهم المحدودة لا تستطيع أن تجيبهم إجابة تشفى الصدور، وتمحو بنورها ظلمات الشك والحيرة والاضطراب. ربما يهتدون فى يوم إلى جواب عن هذه الأسئلة الحائرة المحيرة، ثم يعودون فى اليوم الثانى فينقضون ما أبرموا، ويحلون ما عقدوا، ويتبرأون مما قالوا ولايثبتون على قرار، ولا يستقرون على فكرة، ولا يدومون على وجهة أو طريق:

كريشة فى مهب الريح طائرة ... لا تستقر على حالٍ من القلق

ومن آثار العقيدة الصحية أن يعيش المؤمن روح العبودية لله وحده، والإيمان به وحده ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١١].

العبودية لله تعنى: التحرر من التبعية لكل من سواه وما سواه، فلا خضوع لمخلوق الأرض أو السماء. حتى الشيطان الوسواس الخناس ليس له سبيل على عباد الله ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

والعبودية لله تعني: الانقياد لحكمه سبحانه، ومع رضا الناس، وتسليم القلب، دون أدنى حرج أو ارتياب، لثقته بأن تدبير الله له خير من تدبيره لنفسه وأنه تعالى أرحم به من أمه وأبيه، وأنه سبحانه أعلم بما يصلحه ويزكيه.

والمؤمن الصادق هو الذى عرف لهذه العبودية حقها، فوجهه الذى فطر السماوات والأرض حنيفاً، وحطم الأصنام كلها من قلبه، ورفض الطواغيت كلها من حياته، ولم يرض غير الله ربا، ولم يتخذ غير الله وليا؛ ولم يبتغ غير الله حكما؛ اتضحت لعين بصيرته الوجهة واستقام أمامها الطريق؛ لا لبس ولاغموض؛ ولا عوج ولا أمت ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ١٦١:١٦٤].

وبهذا الاتجاه الواضح انحلت العقد فى نفس المؤمن وفى حياته، فقد عرف الطريقة فسلكها على بصيرة، غير هياب ولا متردد، ولا قلق ولا مرتاب. طريق الرجوع إلى أمر الله، والاستسلام الكامل لحكم الله، واليقين بأن خيرى الدنيا والآخرة فى اتباعه والرضى به ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٥١]

إن شعور المؤمن بأن يد الله فى يده، وأن عنايته تسير بجانبه، وأنه ملحوظ بعينه التى لا تنام، وأنه معه حيث كان، يطرد عنه شبح الوحدة المخيف، ويزيح عن نفسه كابوسها المزعج.

كيف يشعر بالوحدة من يقرأ فى كتاب ربه ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ١١٥] ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد: ٤]؟ إنه لا يشعر إلا بما شعر به موسى حين قال لبنى

إسرائيل ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وما شعر به سيدنا محمد فى الغار حين قال لصاحبه: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة ٤٠].

إن شعور المؤمن بمعية الله وصحبته دائما يجعله فى أنس دائم بربه، ونعيم موصول بقربة، يحس أبدا بالنور يغمر قلبه، ولو أنه فى ظلمة الليل البهيم، ويشعر بالأنس يملأ عليه حياته وإن كان فى وحشة وغربة واغتراب.

بين مفهوم الإيمان وأثره، وبين رابط العقيدة وفاعليتها، وبين تأثير العقيدة فى سلوكنا وحياتنا تأتى هذه الرؤية الإيمانية (العقيدة والسلوك، والانفصام بينهما).

وقد حرصنا من خلال مادة هذا الكتاب على إبراز فاعلية العقيدة والإيمان، وعلى ضرورة تحقيق الربط بين العقيدة والسلوك؛ وبين الإيمان والتطبيق، وأبرزنا خطورة الانفصام بينهما، وذلك من خلال أربعة فصول على النحو التالى:

تناول **الفصل الأول (مدخل إلى العقيدة والإيمان)** ثمانية مباحث، بدأت ببيان مفهوم العقيدة، ثم بيان حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة، ومزايا العقيدة الإسلامية وخصائصها، ومقتضيات العقيدة الصحيحة، والمفهوم الشامل للإيمان، وبيان حقيقة الإيمان، وإبراز علاقة الإيمان بالعمل، والخلوص إلى ثمرات الإيمان الصحيح.

وتحول **الفصل الثانى** إلى الجانب التطبيقى من خلال **(أثر الإيمان فى حياة المسلم وسلوكه)** وذلك من خلال اثنى عشر مبحثاً (المسلم وسلوكه)، بدأت ببيان علاقة الإيمان بشخصية المسلم وأثره الإيمان فى جانب العبادة وذكر الله وتلاوة القرآن وبيان آثر الإيمان فى تحقيق سعادة المسلم والإيمان وأثره فى حب المسلم لربه والناس، وتبع ذلك إبراز أثر الإيمان فى تحقيق الرضا لدى المسلم، وأثر الإيمان فى الصوم عن المعاصى، والإيمان والشوق إلى الكعبة المشرفة، وأثر الإيمان فى أداء حق الله فى المال، ثم استتبع ذلك إبراز أثر الإيمان فى الجانب الأخلاقى من خلال (الصدق- أداء الأمانة، العفو- الصبر)، ثم الإيمان ودوره فى تفكر المسلم فى ملكوت الله، وفى تحقيق الأمن النفسى، وختاماً بدور الإيمان فى إيجاد الأمل لدى المسلم.

وكان لزاما أن تتكامل المعالجة فى جانبها الاجتماعى بعد ما عولجت فرديا فى الفصل الثانى، فأتى **الفصل الثالث** تحت عنوان (**أثر الإيمان فى حياة المجتمع، وأنظمته، وشئونه**) فى مباحث ثلاثة تناولت:

أثر الإيمان فى حياة المجتمع، والآثار الاجتماعية للعقيدة الصحيحة، والآثار الاقتصادية للعقيدة الصحيحة.

وأما **الفصل الرابع** فكان جامعاً للفصول السابقة به ربط واستقراء لظاهرة (**الانفصام بين العقيدة والسلوك**) وذلك من خلال ثلاثة مباحث تناولت:

- آثار ترك العقيدة فى حياة الأفراد والمجتمعات.
- آثار ترك العقيدة فى حياة البناء الاجتماعى.
- آثار ترك العقيدة فى حياة الجانب الاقتصادى والأمن والإطعام.

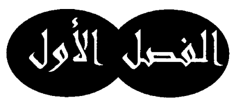
وجاءت خاتمة الكتاب برؤية جديدة تحت عنوان (المشكلة والحل) تقدم حلولا للتغلب على هذا الانفصام بين العقيدة والسلوك والإيمان والتطبيق.

والله تعالى نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، ويثقل به موازيننا، ويرفع به درجاتنا فى أعلى عليين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

أحمد عبده عوض

ذو الحجة ١٤١٢هـ



مدخل إلى العقيدة والإيمان

المبحث الأول : مفهوم العقيدة.

المبحث الثاني : حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة.

المبحث الثالث : مزايا العقيدة الإسلامية وخصائصها.

المبحث الرابع : مقتضيات العقيدة الصحيحة.

المبحث الخامس : المفهوم الشامل للإيمان.

المبحث السادس : حقيقة الإيمان.

المبحث السابع : علاقة الإيمان بالعمل.

المبحث الثامن : ثمرات الإيمان الصحيح.



المبحث الأول
مفهوم العقيدة

١- ما العقيدة؟

العقيدة هى: مجموعة من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل، والسمع، والفطرة، ويعقد عليها الإنسان قلبه، يثنى عليها صدره جازما بصحتها، قاطعا بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصبح أو يكون أبدا.

وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه، وعلمه به، وقدرته عليه، ولقائه به، بعد موته ونهاية حياته، ومجازاته إياه على كسبه الاختيارى وعليه غير الاضطرارى، وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه من طريق كتبه ورسله طاعة تزكو بها نفسه، وتتهذب بها مشاعره، وتكمل بها أخلاقه، وتنظم بها علاقته بين الخلق والحياة.

وكاعتقاده بغنى ربه تعالى عنه، وافتقاره هو إليه، وفى كل شأنه حتى فى أنفاسه التى يرددها، فبالله تعالى حياته، وعليه وحده توكله واعتماده، إذ هو محط رجائه إذا طمع، ومأمن خوفه إذا خاف، بحبه يحب، وببغضه يبغض.

وهو مولاه الذى لا مولى له غيره، ومعبوده الذى لا معبود له سواه، لا يرى ربوبية غيره، ولا يعتقد ألوهية سواه.

٢- العقيدة الصحيحة:

تعتبر عقيدة التوحيد الصافية الغالية من أهم مقومات الوحدة بين المسلمين، فهى عقيدة ثائرة، معجزة، متدفقة بالقوة والحياة، مقلبة للأوضاع، مدمرة للآلهة الباطلة، لم تنل ولن تنال الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة.

ولقد كان الإنسان قبل الإسلام يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع، ولا تعطى ولا تمنع ﴿**وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ [الحج: ٧٣].

كان العرب قبائل متناثرة لا تجتمع على شيء على الرغم من وجود كل مقومات التجمع: من وحدة الأرض، ووحدة اللغة، ووحدة الثقافة، ووحدة التاريخ، ووحدة التصورات، ووحدة التطلعات.

من هنالك انتشلهم الإسلام، لا ليكونوا تجمعاً قومياً، ولا ليكونوا تجمعا وطنيا تحت قيادة زعيم منهم، ليكونوا منهم دولة موحدة ذات كيان وحدود، ولكن لينشيء منهم أمة العقيدة التى استحقت من الله وصفها بهذا الوصف العظيم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والذى يلحظ النقلة الهائلة التى انتقلها العرب من شتاتهم المتناثر ليكونوا خير أمة أخرجت للناس، لابد أن يأخذه العجب من هذا التحول الهائل فى فترة من عمر الزمن كأنها لحظات.

إن العقيدة الإسلامية هى أغلى ما يمكن أن تقوم عليه وحدة المسلمين، فهى الوشيجة الحقيقية التى تقوم عليها الأمة الحقيقية.. الأمة الخيرة.. ثم تنضوى تحتها كل العلاقات الأخرى، علاقات الأرض واللغة والجنس وقرابة الدم، فتكون هذه روافد إضافية إذا وجدت ولكنها لا تكون هى التى تكون الأمة -ولو اجتمعت كلها- فى غياب العقيدة، بينما تكون العقيدة وحدها -ولو غابت الروابط الأخرى كلها- هى الرباط الذى تتكون حوله أمة تتآخى بأخوة العقيدة وتترابط برباط الإيمان، فتكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]. والمؤمنون بهذه العقيدة كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، يقول الرسول الكريم ﷺ «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[1].

---

(١) متفق عليه، انظر صحيح البخارى، ج ١٢، ص ٤٦.

وروى النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل المؤمنين فى تواصلهم وتراحمهم وما جعل الله فيهم من البركة، كمثل الجسد إذا وجع تداعى سائر جسده بالسهر والحمى»[1].

تلك هى الوشيجة التى نبه القرآن فى أكثر من موضع على أنها هى العقيدة، وهى المعول عليها، والتى تفصم الروابط الأخرى وتبقى هى لا تنفصم. فقد جاء فى قصة نوح - عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام -قوله- جل شأنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[هود: ٤٥-٤٧].

ولقد دعا نوح ابنه - وكان فى معزل - ليركب فى السفينة الناجية، فأبى!! فأدركه الطوفان».

فلما قضى الأمر واستوت السفينة على الأرض وقد نجا من نجا، وهلك من هلك، ملأت الحسرة قلب نوح على ولده الهالك، وراح يسأل ربه كيف غرق وهو من أهله، وقد وعده الله أن ينجو أهله، ووعد الله حق لا ريب فيه؟!.

هنا ينبه الله -سبحانه وتعالى- أن الوشيجة الحقيقية ليست وشيجة الدم.. إنما هى وشيجة العقيدة.. ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ وقد انفصمت وشيجة العقيدة حيث أبى الابن أن يؤمن، فانفصمت لها كل وشيجة أخرى، ولم يعد ابن نوح من أهله، مع أنه ابنه كما يؤكد القرآن الكريم باللفظ الصريح ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾.

إذ العبرة بأهلية الدين لا بأهلية القرابة. (والغير) فى قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ عائد على ابن نوح عليه السلام أى: أنه ذو عمل غير صالح، أو أنه لما انغمس

(١) رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (٢/ ٦٢، ٧٤).

فى المعاصى كان كأنه عمل غير صالح، ومن باب وصف الأشخاص بالمصادر مبالغة كما يقال: زيد عدل[1].

وفى قصة إبراهيم- عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام - جاء قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وجاء خطاب الله تعالى للمؤمنين كافة إلى يوم القيامة ناهياً لهم من أن يركنوا إلى قرابة الدم ويتركوا محبة الله ورسوله والجهاد فى سبيله، وينذر الذين يخلون بالموازين الربانية بالعذاب الأليم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

٣- أهمية علم العقائد:

إن هذا العلم هو أهم العلوم على الإطلاق، بالنسبة للفرد المسلم، لأنه علم العقائد الإسلامية. والعقائد فى الإسلام هى الأصول التى تبنى عليها فروعه، والأسس التى يقوم عليها بنيانه، والحصون التى لابد منها لحماية عقيدة المسلم من أخطار الشك وأعاصير التضليل والتزييف.

وكثيراً ما سمعنا ورأينا أنواعاً من الانحرافات فى الفكر والقول والسلوك لم يكن لها من سبب إلا البعد عن فهم أصول هذا الدين، وركائزه التى قام عليها، والتى لابد من الإيمان بها، ليفهم بها الدين، وليجاب بها عن جميع التساؤلات التى لم يكن لها سبب سوى الجهل بقضايا الإيمان ومسائله.

---

(١) تفسير البيضاوى، ج٢، ص ٣١٠.

وقضايا الإيمان هذه هى التى جاء بها الرسل، على مدى التاريخ الإنسانى كمبدأ لابد منه حتى تبنى عليه جميع قضايا الدين بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن المعلوم أن جميع الأعمال الصالحة التى يعملها أى إنسان ابتغاء وجه الله تعالى موقوف قبولها عند الله على صحة العقيدة التى يتكلم عنها هذا العلم؛ لأن الانحراف عن العقيدة انحراف عن الإيمان، والانحراف عن الإيمان هو الكفر، والله تعالى لا يقبل من كافر عملا[1].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ويكفى لإدراك الأهمية الكبرى لهذا العلم أن قضاياه كلها هى القضايا الفاصلة فى الحكم على الإنسان بالإيمان أو الكفر والفسوق، وبالنجاة أو الهلاك، وبالسعادة أو الشقاء.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٦-٨].

لذلك قال جميع علماء الإسلام: إن هذا العلم مفروض تعليمه وتعلمه على الرجل والمرأة وواجب على كل مسئول من والد ووالده ومعلم ووصى ومرب

---

(١) حسن أيوب: تبسيط العقائد الإسلامية، القاهرة، دار التراث العربى، ١٤٠٦هـ، ص ٢٠.

وأمثالهم أن يهتموا بتنشئة الأطفال على فهم مبادئه، وعلى أن يعطى كل حسب قدرته العقلية والنفسية، فيتدرج فى تعليمه كما يتدرج فى تعليم أى علم ذى أهمية وشأن.

موضوعات هذا العلم:

الموضوعات التى يبحث هذا العلم فيها هى:

١- **ذات الله تعالى**: لمعرفة ما يجب فى حق الله وما يستحيل وما يجوز.

٢- **ذوات الرسل عليهم الصلاة والسلام**: لمعرفة ما يجب فى حقهم وما يستحيل وما يجوز.

٣- **الأمور الغيبية**: وهى التى لا يمكن الوصول إليها لمعرفتها والإيمان بها إلا عن طريق كتاب الله تعالى، أو حديث رسوله ﷺ وذلك مثل : كتب الله تعالى، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والجنة والنار. . .إلخ.

وتحديد موضوعات العقيدة جاء من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. ، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤﴾ [البقرة: ٣-٥].

وفى حديث طويل سأل جبريل النبى ﷺ عدة أسئلة تعليمية وكان منها قوله: فأخبرنى عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1]، وبذلك تدرك أن أركان الإيمان هى: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

---

(١) رواه الخمسة إلا البخارى.

الواجب والمستحيل والجائز:

هناك عدة كلمات مهمة فى هذا الباب منها: الواجب- المستحيل- الجائز- والمقصود بها الواجب العقلى، والمستحيل العقلى، والجائز العقلى، وإليك تحديد معانيها ليتضح لك طريق البحث وإثبات قضايا هذا العلم.

فالواجب العقلى: هو الأمر الثابت الذى لا يتصور العقل انتفاءه، وهو قسمان:

١- ضرورى بديهى يدركه كل إنسان لديه بعد النظر والتفكير، مثل إثبات قدم الإله، وبقائه، ووحدانيته وجميع صفاته الكمالية.

٢- نظرى، يعنى يصل الإنسان إليه بعد النظر والتفكير، مثل إثبات قدم الإله، وبقائه ووحدانيته وجميع صفاته الكمالية.

والمستحيل العقلى: هو الأمر الذى لا يتصور العقل وجوده،. وهو قسمان كالواجب:

١- ضرورى بديهى، وهو ما يدركه العقل بدون نظر وبحث مثل كون الأب أصغر من ابنه، وكون الواحد أكثر عدداً من الاثنين.

٢- نظرى، وهو ما يصل العقل إليه بعد نظر واستدلال، مثل: استحالة أن يكون الله متعدداً، وأن يكون مخلوقا، وأن يموت. .إلخ.

والجائز ويسمى الممكن: هو فى نظر العقل ما يقبل الثبوت والانتفاء والوجود والعدم لذاته، وذلك مثل حياة الإنسان وموته وصحته ومرضه، وغناه وفقره. . .إلخ.

ويلاحظ أننا نسبنا الوجود والاستحالة والجواز إلى العقل، فالعقل الإنسانى إذاً هو الذى يبحث، وهو الذى يحكم، وعلى أساس حكمه تبنى النتائج، فلا مجال هنا فى إثبات العقيدة للتقليد، ولا للوراثة، ولا للأهواء والشهوات. إنما المجال مجال العقل السليم الحر غير المغلول وغير المكبوت، وسوف نجد فى

مسيرتنا مع هذا العلم أننا نستدل بآيات من كتاب الله تعالى، فلا يقال ولا يحق لأحد أن يقول: كيف تستدلون بكتاب الله تعالى على قضايا قررتم أن العقل هو الحكم فيها؟

لأننا نقول: إننا نستدل بكتاب الله تعالى فيما يعرضه علينا من آيات تحرك عقولنا وتفتح لها مجالات البحث والمناقشة والمحاورة، ثم تترك الحكم على النتائج لعقولنا، فكتاب الله لنا هو النور الذى يشع فندرك به السبيل ونعرف جوانب الطريق ومعالمه، وهو الهدى للضالين، والفيصل فى قضايا العالمين، وما تخبط المتخبطون فى أمور الدين إلا بسبب اعتمادهم على العقل وحده وبعدهم عن كتاب الله وهدى رسوله ﷺ تقليداً للفلسفة وأشياعهم من متكلمى المسلمين.

ويكفيك دليلا على أن كتاب الله يسلك هذا السبيل بالنسبة للنائين عن قول الله لنبيه ﷺ:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[الغاشية: ٢١،٢٢].

من الذى يجب عليه معرفة الله ومعرفة شرعه ومعرفة العقيدة السليمة؟ تجب هذه المعرفة على كل مكلف:

والمكلف هو البالغ العاقل، سليم الحواس، الذى بلغته الدعوة، فالمعرفة: لاتجب على الصبى، ولكن يجب على وليه تعليمه العقيدة ومبادىء الدين، حسب قوة فهمه، لينشأ مسلماً واعياً سليم العقيدة، ولتحفظه العقيدة من الزيغ إذا بلغ.

ولا تجب المعرفة على مجنون، ولا على فاقد السمع والبصر معا: لأنه لا طريق لمعرفته، فإن وجدت طريقة للمعرفة وجبت عليه، كما لا تجب المعرفة على من مات قبل بعثة الرسول ﷺ. . يعنى مات فى فترة ليس فيها رسول مبعوث أو يوجد رسول ولكنه مرسل إلى قوم دون آخرين، فالمرسل إليهم هم المكلفون المسئولون، إذ بلغتهم دعوة رسولهم ومن لم تبلغنهم دعوته. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

حدود المعرفة السليمة:

المعرفة السليمة التى يصير الإنسان بها مؤمناً إيماناً صحيحاً هى الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل.

فالمعرفة غير الجازمة معرفة مرفوضة، وصاحبها لا يعتبر مؤمناً؛ لأن العقيدة مبنية على الجزم: فلا يعتبر مؤمنا من كان واهماً أو شاكاً أو ظاناً. ولا يعتبر مؤمناً من جزم بعقيدة مخالفة للواقع، كاعتقاد قدم العالم، أو أن الله متعدد، أو أن القيامة واليوم الآخر لن يوجدا مستقبلاً.

ويعتبر مؤمناً عاصياً من عرف الله تعالى واعتقد وجوده وصفاته ولكنه لا يعرف دليلا على وجود الله، مع استطاعته النظر ومعرفة الدليل، ولو إجمالاً كأن نقول له: ما الدليل على وجود الله؟ فيقول: الدليل على ذلك وجود هذا العالم مثلاً.

فالدليل الإجمالى فرض عين على جميع المكلفين. أما الدليل التفصيلى فإنه فرض على بعضهم فقط، لتوجد طائفة متخصصة تستطيع الدفاع عن الدين وعن العقيدة، فهو فرض كفائى، إذ قام به البعض سقط عن باقى الأمة.

وبعض العلماء يرى أن إيمان المقلد. . «وهو المؤمن بغير دليل إجمالى ولا تفصيلى» إيمان مقبول وصحيح إذا حصل منه الجزم بالعقيدة، بحيث لا يتردد فيها ولا يتزحزح عنها ولو تردد وتزحزح الإنسان الذى اعتمد عليه المقلد فى عقيدته وتقليده. ودليلهم على ذلك أن النبى ﷺ كان يقبل إيمان من يؤمن بدون سؤاله عن الدليل. وذلك ثابت فى عدة أحاديث صحيحة.

المبحث الثانى
حاجة الإنسانية إلى العقيدة الصحيحة

إن الإنسان آية الله فى خلقه، طبعه ربه على هذا النحو العجيب وفطره على هذه الصبغة الفذة، مقترنة بعديد من الغرائز والميول، وحينما تشده الأولى إلى زكاة النفس، واستواء الفطرة، وقصد السبيل، فإن الثانية تشده إلى النقيض تماما بتمام، وبين هذا وذاك يتطلع الإنسان ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقه، وقصد سلوكه، ويجعله على طول الخط سوى المنهج، قوى السبيل، زكى الباعث، نبيل المقصد، متعلقا بمعالى الأمور، نائيا عن سفاسفها، يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه، فلا يجده إلا فى رحاب الإيمان بالله، وأحضان الطاعة له، وظلال القرب منه.

والإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر فى هذا الكون الهائل، فلابد له من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه فى هذا الكون، الذى يستقر فيه[١]، فلابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهى ضرورة فطرية، شعورية، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة ومتابعة بعثها، لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها[٢].

ومن هنا: كانت حاجة الإنسان إلى العقيدة حاجة فطرية مركوزة فى فطرته، ومغروسة فى شعوره، ومخلوطة بدمه وعصبه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقى ويحار، ويفقد الاستقرار[٣].

---

(١) أحمد السايح: العقيدة فى الإسلام، مجلة «جوهر الإسلام»، العدد الثانى والثالث، من السنة الثانية ١٣٩٦هـ، تونس، ص ١٦.

(٢) أحمد السايح: حاجة الإنسانية إلى ظهور الإسلام، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١١هـ، ص٦٥.

(٣) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

هذه الحاجة الفطرية فى الإنسان إلى الدين، هى التى يتحقق بها إدراك الإنسان لحقيقة مقامه فى هذه الحياة، ورسالته وعمله ودوره[(١)].

وقد أودع الله -سبحانه وتعالى- فى الإنسان ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى فى الوجود[(٢)] وندبه الله -سبحانه وتعالى- للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق التى يراها الحس والعقل والوجدان، فى الآفاق وفى النفس، وفى كل شىء[(٣)] ففى الأرض آيات للمؤمنين، وفى السماء مثلها وأعظم. فالفطرة الإنسانية السليمة هى التى تتوجه إلى الكون بروح متفتحة تكشف ما فيه من قصد وتصميم وإبداع، وتنتهى إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه، ومن خلال هذا التصور تتحدد علاقة الإنسان بربه -عز وجل-[(٤)].

فالإنسان لا غنى له عن الدين، لأنه يحسه فى نفسه، شعوراً ووجدانا ويشير إلى هذا الشعور ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»[(٥)].

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

---

(١) أحمد محمد جمال: الدين فطرة وميثاق، كتاب ندوة المحاضرات لموسم حج سنة ١٣٨٩هـ، ط: رابطة العالم الإسلامى، بمكة المكرمة، ص ٣٠٠.

(٢) قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

(٣) قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

(٤) عبدالكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية، ط: الثالثة مؤسسة الأنوار بالرياض، سنة ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م، ص١٦.

(٥) رواه البخارى، جـ: ٣، ص: ٢١٩.

ففى هذه الآية: بين الله -تعالى- أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلاً بعد نسل، على هيئة الذر، وذلك قبل خلقهم فى الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلاً لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجابوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ بذلك، فالله -سبحانه وتعالى- أشهدهم على ربوبيته، حتى لا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين، أو غير عالمين[1].

فالإيمان بالله فطرة فطر الناس عليها، وإنما يضلون عنها بعض الوقت أو كل الوقت، ثم يعودون إليها ولو عند فراق الحياة، أو عند نزول الكوارث والأحداث، فقد كان فرعون يدعــى الألوهية، ويقــول لقومــه ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وسام بنى إسرائيل سوء العذاب، وكفر بموسى، وإله موسى، ولكنه عندما أدركه الغرق، قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. .

والمشركون بالله، والكافرون به، فى كل الأجيال، كانوا يعبدون الأصنام ويستقسمون بالأزلام. فإذا مسهم الضر فى البر أو البحر، لجأوا إلى الله يدعونه ويسألونه النجاة ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس:١٢].

ومن هذا يتبين: أنه يوجد فى طبيعة تكوين الإنسان استعداد فطرى لمعرفة الله وتوحيده، فالاعتراف بربوبيته متأصل فى فطرة الإنسان، وموجود فى أعماق روحه، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده، فالاعتراف بربوبية الله وحده، فطرة فى الكيان البشرى، فطرة أودعها الله الخالق فى هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره فى أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى[2].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ: ٣، ص: ٥٠٠-٥٦٠.
(٢) سيد قطب: فى ظلال القرآن، جـ: ٣، ص: ١٣٩١.

والوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لا يسعه إلا أن يطيع ربه فى ولاء لا يشوبه استنكاف، ولا يطاوله كائن، بل إنه جميعا من أعلاه إلى أسفله يهتف فى البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر، وهاف العابد تجاه قدسية المعبود بما سجله الحق فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والإنسان وإن كان يساوى الكون فى العبادة بفطرته، فإنه ينبغى عليه أن يفوقه منزلة، وأن يعلوه فيها درجات، تتناسب وتركيبه، وتكوينه المتميز بالعقل والإرادة، والاختيار، والميول، والنزعات، والرغائب، بيد أن الإنسان من طبعه أن ينسى أحيانا، وأن يغفل أحيانا، وأن يجحد أحيانا، وأن يكفر، لأن امتزاج الروح بالجسد، وانشغال الإنسان بمطالب جسده، وبمطالبه المختلفة، التى تستلزمها حياته فى الدنيا، وعمارة الأرض، قد جعلت من معرفة الإنسان بربوبية الله، واستعداده الفطرى للتوحيد، عرضة لأن تطمره الغفلة، ويغمره النسيان، ويطويه اللاشعور فى أعماقه، ويصبح الإنسان فى حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطرى، ويبعد عنه النسيان، ويبعثه من أعماق اللاشعور، فيظهر جليا واضحا فى الإدراك، والشعور، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون[1] وتلك فطرة فطر الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لا فكاك لهم منها، ولا شذوذ لهم عنها.

فعاطفة التدين أو الاعتقاد بدين من الأديان أمر غريزى، ومشترك بين الناس، عامة فى كل عصر ومكان، فإنه لم تخل جماعة من الناس فى أى زمان من عقيدة دينية على نحو ما - «وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد فى الماضى السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات وعلوم وفنون، ولكن لم توجد قط جماعة

(١) محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، بتصرف يسير، ط: دار الشروق، بالقاهرة، سنة١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، ص ٤٧.

إنسانية من غير دين»[١]. إذ لابد فى حياة الناس من نظم تلم شتاتها، وترفه حياتها، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم، ويعيش الناس فى ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل، فى أمن وسلام، وقد كرم الله الإنسان بالعقل لكنه أودع فيه نفسا أمارة بالسوء، وهو يعيش فى صراع بين عقله الهادى إلى الصلاح، ونفسه الأمارة بالسوء، فكان من تمام نعمته عليه أن وضع له النظم التى توصله إلى التغلب على النفس، وسد منافذ الشيطان إليها، فحمله أمانة التكليف، وأخذ عليه العهد بأن يعبده ولا يشرك به شيئا، وأمده بهداية الرسل -عليهم الصلاة والسلام-[٢].

إذن «لكى تتحقق الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشاداً للملأ الأعلى: ﴿**قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠]. لابد لقوة الخير فى الإنسان من مدد يعينها ويغريها على سد منافذ الشر والطغيان»[٣].

ومن هذا يتبين: أن الدين للإنسان من الشئون الضرورية التى لا حياة له إلا بها[٤]. والله -سبحانه وتعالى- قد خلق الناس، ولم يتركهم وشأنهم بل اختار لهم نظماً وأحكاماً تسعدهم فى الدنيا والآخرة، وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان والمكان والمجتمع وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته، لعدم قدرته على القهر الذى يرغم الناس على كمال الطاعة، ولهذا جعل الله -سبحانه وتعالى- فى كل أمة رسولاً منها، وأيده بالمعجزات، وأمده بتعاليم السماء، لينشر الخير ويعالج الشر ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى**

---

(١) محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة، سنة ١٣٨٠هـ-١٩٦١م، ص ٧.

(٢) شوكت محمد عليان: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ط: دار الرشد بالرياض، سنة ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ص ١٢٦.

(٣) محمود شلتوت: من توجيهات الإسلام، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٣٨٩هـ-١٩٥٩م، ص ٩.

(٤) المصدر السابق، ص ١٤.

اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]. وقد شرع الله -تعالى- لخلقه ما يناسب حالهم، ويتلاءم مع ظروف حياتهم، وقوة إدراك عقولهم، وقوة احتمالهم(١).

وإذا كان الدين والتدين أمراً غريزيا وفطريا فى الإنسان، فى كل زمان -كما عرضنا- فإن الدين الإسلامى هو: الدين الحق الذى رضى الله -تعالى- للناس جميعا والآية الكريمة التى عدت الدين عند الله الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. تعنى: مجموعة المبادىء الإسلامية وتعاليم الإسلام.. فالإسلام مر بمراحل كبيرة عبر أنبياء الله ورسله إلى أن انتهى إلى المرحلة المتكاملة فى رسالة محمد ﷺ التى جاءت إلى الإنسانية كلها. إذن رسالة الإسلام هى الإسلام الشامل للإنسان فى وحدة إيمانها بالله، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. ولهذا كان الإسلام يشتمل على امتداد زمانى فى الفكر الدينى، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها، ويشتمل على شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعا، ويشتمل على شمول يضم الأديان كلها. ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها»(٢).

فالديانات وإن تعددت فى الفروع والتكاليف والأعمال، فقد اتحدت فى المصدر الذى صدرت عنه، وهو الله -تعالى- واتحدت -أيضا- فى الأصل الذى دعت إليه، وهو التوحيد، فالقدر المشترك بين الرسالات جميعا هو: تصحيح العقيدة أولا، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة فى تلك البيئات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

---

(١) شوكت محمد عليان: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ص ١٢٧.

(٢) أحمد السايح: الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ص ٣٠، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

[الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ولقد جاء الإسلام فى جانبه الإيمانى، يؤكد هذه الأسس، التى أكدها كل نبى، ولكنه فى الجانب الذى يستتبع الشريعة، جانب الالتزام والعمل كان الإسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات.

وهذا الطابع الشمولى الملتقى فى أسس العقيدة، والمتكامل فى التشريع هو الذى جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر، ولعل هذا هو السر الذى جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذى جاء به رسول الإنسانية محمد ﷺ (١).

ووحدة الإيمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة، لا تقبل الجدل، أو التشكك، ولا يغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمنى بين الأنبياء، الذين أرسلهم الله إلى عباده(٢).

فالإيمان بالله -سبحانه وتعالى- ليس غريزة فطرية، بل هو ضرورة، فالدين عنصر ضرورى، والإنسانية بحاجة إليه، للكمال النفسى والروحى، فالإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان والعقيدة، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة، محقق لمصالح الفرد والجماعة، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق، فليس دينا فقط، ولكنه دين ونظام وحياة، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان، عن الصلة بين الإنسان والإنسان، وهو ينظمها جميعا(٣).

فالعقيدة الإسلامية ضرورة للإنسان، وذلك لرفع مستواه والمحافظة عليه من الانحراف المادى والإلحادى.

---

(١) أحمد السايح: الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ص ٢٨-٢٩.
(٢) يوسف القرضاوى: العبادة فى الإسلام، ط: المكتب الثقافى، بالقاهرة، ص ١٨.
(٣) أنور الجندى: منهج الإسلام فى بناء العقيدة والشخصية، ط: دار الاعتصام بالقاهرة، ص ٢٩.

ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدنى بطبعه، ومعنى ذلك أن الإنسان بفطرته يميل إلى التعارف والتعايش مع غيره، ولذلك جعل الحق -سبحانه وتعالى- التعارف بين الناس من أهم أسباب خلقه لهم، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. هذا التعارف ليس مقصودا لذاته، وإنما جعل أولاً غذاء لطبيعة الإنسان، وثانياً: وسيلة للتعارف على كل ما فيه إسعاد البشرية، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها فى جانبها المادى والفكرى، وبين ذلك المفكر محمد عبدالله دراز، فيقول: «إنه لا قيام للحياة فى الجماعة، إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع ووازع يكفل مهابته فى النفوس، ويمنع انتهاك حرمته[١].

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر -دون أن نجانب الصواب-: أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافىء قوة التدين، أو تدانيها فى كفالة احترام شرع الله وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة والسر فى ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع فى يده ولا فى عنقه ولايجرى فى دمه، ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنسانى روحانى اسمه الفكر والعقيدة، وقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها»[٢].

وليست قوانين الجماعات، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل فإن الذى

---

(١) محمد عبدالله دراز: الدين، ص ٩٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٨.

يؤدى واجبه رهبة من السقوط أو السجن، أو العقوبة المالية لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

والقانون إما إلهى أو وضعى: لأن كل حضارة شطران: شطر روحى، وشطر مادى، فالشطر المادى الذى يعتمد على الحس والعقل وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالشطر الروحانى أو النظرى، والشطر النظرى: العقيدة والأخلاق، والتشريع، ونظام المجتمع[١]. ولذلك جاءت العقيدة الإسلامية كاملة هادية للعقل فى الجانب النظرى، فشملت التشريع، والأخلاق، ونظام المجتمع، ومن خصائص الوحى فيما يتعلق بالتشريع: أنه هاد للعقل، وكما أن الدين هاد للعقل، كان لابد فى استخدام العلم من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية، وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد، ذلكم الرقيب هو: العقيدة والإيمان.

ولا يخفى على أهل العلم: أن من الخطأ المبين أن يظن بعض الناس أن فى نشر العلم والثقافات وحدها ضماناً للسلام، والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى[٢]. ذلك أن العلم سلاح ذو حدين، يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير[٣] فكما يستعمل للخير، يستعمل كذلك للشر، فلابد للعلم من تربية عالية، وتوجيه سديد، وإيمان راسخ يوجه المجتمع، وذلك أن وظيفة العلم محصورة فى الجانب الحسى المحض فهو يقف عند حدود لا يتجاوزها، بينما وظيفة الدين بالحياة ذات مجال رحب. فالإسلام بما حواه من هداية إلهية وتشريعات سماوية يكفل للمجتمع الإنسانى كل عوامل السعادة، والأمن، والاستقرار، ولا يكون ذلك عن تشريع وضعى، ولا يضعه فرد، أو جماعة معينة، ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره ونضج عقله، لا يمكن أن يحيط بكل ما يوفر للإنسانية أمنها واستقرارها.

---

(١) د. عبدالحليم محمود: الإسلام وتنظيم المجتمع، ط: دار الكتاب العرب، مصر، ص ٥.
(٢) د. محمد عبدالله دراز: الدين، ص ٩٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٩٩.

والحق، أن الدين الإسلامى فيه صلاح للناس جميعاً حتى الذين لم يرزقوا حظاً وافراً من التفكير العقلى السليم، ولذلك كان الوحى الإلهى رحمة عامة لجميع الناس، ولهذا ترى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية، ونراه كفيلاً بصدور صاحبه فى أقواله وأعماله عن عقيدته، وضميره ونفسه، وعن مراقبته لله فى السر والعلن، لا خوفاً من الناس، أو عقاب القانون الوضعى، هذا العقاب الذى يفلت منه الكثير من الناس[١].

والله الذى خلق الإنسان، وركب فيه طبائعه ونوازعه، هو الخبير بكل علله، وأدوائه، والعليم بوسائل شفائه، هو وحده الذى يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والنظم ما يحقق لها أسباب السعادة، وجميع وسائل الأمن والاستقرار، وذلك بالدين الذى يدعوه إليه، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به، ويحمله على الأخذ بتعاليمه ويدفعهم إلى القيام بما سنه لهم من تشريع وتنظيم ويدفعهم إلى التحلى بالفضائل، ويحول بينهم وبين ارتكاب الرذائل، وليس هناك وراء الدين شىء يهيمن على النفوس، غير نظام خالق النفوس[٢].

فالإسلام نظام ربانى، يقوم على مبادىء أساسية، رضيها الله لعباده دستوراً يقودهم فى دنياهم إلى حياة كريمة، ويعدهم فى أخراهم لميراث جنة عرضها السماوات والأرض.

فالإسلام هو الرابطة التى جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم الآخر ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب. وظهور روح الامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح فى الأرض، على أساس قوى متين، من رباط العبد بخالقه[٣].

---

(١) د. محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ص ٨.

(٢) د. محمد حسين الذهبى: الدين والتدين، دراسة بمجلة البحوث الإسلامية، جـ:١، الصادرة سنة١٣٩٥هـ، ط: دار الإفتاء والبحوث بالرياض، ص ٥٤.

(٣) محمود شلتوت: من توجيهات الإسلام، ص ١٨.

فهو إذن مطلب إنسانى، رفيع يغذى جانب الروح، ولا ينسى حاجة العقل، وبعبارة أخرى: هو مطمع العقل، وغاية الروح، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية تجعل منه غذاءً ضرورياً لقوى النفس، وعصارة مقومة لحيويتها توجد له وظائف اجتماعية، لا يكون موضوعها الفرد، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل[1].

وهكذا يتبين للباحثين والدارسين: أن العقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية، فى ملكاتها ومظاهرها، ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين من طبيعة الإنسان نفسه، فقد خلقه الله -تعالى- ومنحه طبيعة الكائن المتكيف، وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى الدين نزعة فطرية وأصيلة ركبت فيه، وفطر عليها، ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتى داخل النفس، يدفع الإنسان إلى مراقبة الله، الذى يعلم السر وما تخفى الصدور فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملا لجميع القوى المختلفة: الجسمية، والروحية، والنفسية، والخلقية، والاجتماعية.

وبعد هذا العرض، يمكن للإنسان أن يستوضح وظائف الدين وحاجة البشرية إليه.

فالدين يزكى النفس، ويطهرها، ويقيم فى حواسها الوازع القوى الذى يحول دائما بين الإنسان، وبين نوازع السوء والضلال فيه، وذلك أنه يشعر دائماً بمراقبة الله له فى كل شىء، ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله، والبعد عن الشر، وهذا مبلغ ما ينبغى أن تسعى الإنسانية إليه.

فالإنسانية بحاجة إلى الدين، لأنه جزء من فطرة الإنسان وطبيعته ولا يمكن لإنسان عاقل أن يستغنى عن جزء من فطرته وكيانه، فهو الوسيلة الوحيدة التى نأمن مخاطرها، ونضمن نتائجها، لتحقيق الحياة الإنسانية، فالدين يقيم نظاما يدعو إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم دستورا حكيما يحفظ للإنسان إنسانيته، كما يحفظ له نفسه وماله.

---

(١) د. محمد عبدالرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع، ط: الرابعة، الأنجلو المصرية، بالقاهرة، ص ٩٢.

وكما أن حاجة الإنسانية إلى الدين لحفظ النفس، والمال، والعرض، كذلك فإن الإنسانية فى حاجة إلى الدين لتربية الإنسان الذى كرمه الله -تعالى- فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسانية عقيدة وسلوكاً نزعة فطرية، وأصيلة ركبت فيه، وفطر عليها. ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين بأنه الحياة وبأنه النور الذى يضيء للسالك الطريق، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد، ولسعادة المجتمع لابد له من العقيدة الصحيحة، التى تنير الطريق، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة، والجماعة للفرد.

ولقد كان لهذه العقائد والأصول والمبادىء الإنسانية، التى قام الإسلام عليها، ولما قام عليها هذا الدين من المساواة والعدالة والإحسان، كان لذلك أثر بالغ فى سرعة انتشاره، وحسن تقبل الناس له فى أقطار العالم المختلفة، كما كان ذلك من العوامل الحاسمة، والأساليب القوية، فيما أدركه الإسلام من عز، ومجد وسلطان، سعد به العالم الذى عاش تحت لوائه(١).

فمن طبيعة المنهج الذى يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية لهذا المنهج نستمد يقيننا الذى لا يتزعزع فى أن المستقبل لهذا الدين المتعطشة إليه البشرية جمعاء(٢).

---

(١) د. محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ص ٢٥.

(٢) سيد قطب: المستقبل لهذا الدين، ط: السادسة، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية، مطبعة الفيصل، سنة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص ١١٤.

فالعقيدة هى أساس قيام المجتمع، وأساس صلاحه أو فساده، بل هى أساس بقائه واستمراره، فهذا الدين فى حقيقته النقية المصفاة، له أثره المبارك فى تهذيب النفس، وإسعاد الإنسان، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير.

وإن الباحث: إذا تأمل أحوال الإنسانية فى هذا العصر، فسوف يجد أنها فى أمس الحاجة إلى الإسلام.

فالحضارة الغربية وصلت إلى أعلى مستوى من الرقى العمرانى، والتقدم العلمى الهائل، ولكن قصة البشرية -برغم التقدم الحضارى- فيها مساوىء كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضاعت عقولهم، فقد أطلقت الحضارة الغربية حرية الإنسان، وحررت غرائزه المكبوتة، وتحولت الحريات إلى انحراف فى الغريزة، وإلى شذوذ فى الطبيعة، وإلى عدوان على حريات الآخرين، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط أو متصرف.

ومن تعاسة الحضارة المادية، أنها عكست كرائم النعم، والملكات التى أنعم الله بها على الإنسان عكساً أسقط الإنسان فى وديان الهلاك والدمار وسقط بالإنسانية دون عالم الحيوان، فراجت خسائس العادات، وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح، والشذوذ فى السلوك، وظواهر الخنفسة والهييز، والارتخاص، والابتذال، والخلاعة[1].

لقد تقدمت العلوم بلا ريب، ولكن هذه الحضارة التى علمت الناس كيف يسبحون فى الماء بالغواصات الجبارة، وكيف يطيرون فى الفضاء، وفى الهواء، وفوق السحاب، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها وشعوبها كيف يسيرون على الأرض فى طريق الخير بغير عوج والتواء.

إن الغرب اليوم فى حيرة بالغة، وقلق واضطراب شاملين، وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم، وأصبح الضمير هناك لا يطمئن إلى عقيدة أو مبدأ

(١) د. أحمد عبدالرحيم السائح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ط: مكتبة دار اللواء بالرياض، سنة ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، ص ١٩١-١٩٢.

أو نظام فلم يعد يجد اليقين الذى يفىء إلى ظله، فى جو من الهدوء والراحة والاستقرار[١].

والبشرية اليوم فى مفترق الطريق، فهناك اضطرابات فى الأفكار وحيرة فى الاتجاهات، وزعزعة فى النظم، وخواء من العقيدة، أصبح يجرفها دولة بعد دولة، وشعبا بعد شعب، إلى هاوية المادية وعلى كل فقد وقع المحظور، وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة، ووجهة نظر، ونفسية، وعقلية، وأخلاق، واجتماع، وعلم، وأدب، وسياسة، وحكم، وكان ذلك تدريجيا، وكان أولاً ببطء وعلى مهل، ولكن بقوة وعزيمة فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون فى الكون نظراً مؤسساً على أنه لاخالق ولا مدبر، ولا آمر، وليس هناك قوة وراء الطبيعة، والمادة تتصرف فى هذا العالم، وتحكم عليه، وتدبر شئونه، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعى، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكى بحت، وسموا هذا نظرياً علما مجرداً[٢].

لقد أفلست الحضارة الغربية، برغم التقدم العلمى الهائل الذى وصلت إليه، وبدأ الإنسان الأوربى يهرب من حضارته، لأنه لم يحس فى ظلها بالسعادة، ولم يحس فى مجتمعه بالأمن والأمان والاطمئنان، فقد انتشرت عصابات القتل، والخطف، والتخريب، والإرهاب، وتفاقم خطر الجريمة، وازداد عدد المجرمين، وامتلأت البلاد بجماعات العربدة والفجور وأقيمت نوادى العراة وأبيح فى غير استحياء الشذوذ الجنسى، إلى غير ذلك.

وهكذا تعجز النظم البشرية، والقوانين الوضعية، عن تقديم أى عون للإنسان، أو الأخذ به إلى الطريق السليم، مما يؤكد ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية، لأن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه -عند التطبيق- قوة فعالة ومؤثرة، بل إن فاعلية الإسلام شملت حياة الأفراد، وحياة الجماعات لجميع الجوانب.

---

(١) د. محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ص ٢٦.
(٢) أبو الحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، ص ١٧٨، ط: دار الكتاب العربى، بيروت، سنة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

المبحث الثالث
مزايا العقيدة الإسلامية وخصائصها

١- عقيدة واضحة:

للعقيدة الإسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد:

فهى عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، تتلخص فى أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم ربا واحداً خلقه ونظمه، وقدر كل شىء فيه تقديراً، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد **﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾** [البقرة: ١١٦].

وهذه عقيدة واضحة مقبولة، فالعقل دائماً يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، ويريد أن يرجع الأشياء دوما إلى سبب واحد.

فليس فى عقيدة التوحيد ما فى العقائد الأخرى مثل الوثنية ونحوها من الغموض الذى يعتمد دائما على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين (واعتقد وأنت أعمى).

٢- عقيدة الفطرة:

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها، بل هى منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم، وهذا هو صريح القرآن: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾** [الروم: ٣٠]. وصريح الحديث النبوى: «كل مولود يولد على الفطرة (أى على الإسلام) وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه»[١]، فدل على أن الإسلام هو فطرة الله، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين.

---

(١) متفق عليه.

٣- عقيدة ثابتة:

وهى عقيدة ثابتة محددة لا تقبل الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل.

وبعد بعث الناس من قبورهم يكون الحساب الدقيق، والميزان العادل: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]. ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وهناك يقسم العباد إلى شقى وسعيد، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

[هود: ١٠٦-١٠٨]

والجنة دار هيأها الله لمثوبة الصالحين من عباده، وأعد فيها من النعيم الروحى والمادى ما عبر الله عنه فى الحديث القدسى «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

إن الحياة فى هذه الدار هى الحياة الحقة، وإن نعيمها هو النعيم الذى يقصر الخيال البشرى عن وصفه، إنه ليس نعيما روحيا خالصا، ولا نعيما ماديا صرفا، وإنما هو مزيج من الأمرين، ذلك أن الإنسان نفسه ليس روحا مجردة، ولا مادة بحتة، إنما هو مركب منهما، والإنسان فى الآخرة امتداد لإنسان الدنيا، وإن اختلف الكيف والتفصيل، فلا عجب أن يكون فى الجنة فاكهة ولحم وطيور وحور عين ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

والنار دار أعدها الله لعقوبة الفجار من الخلق. وهى تجمع العقوبتين المادية والروحية معا.. فهناك العذاب الحسى ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وهناك العذاب النفسى الذى يتمثل فى الهوان والخزى كقوله تعالى: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فليس الحاكم

من الحكام، أو مجمع من المجامع العلمية، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية، أن يضيف إليها أو يحوّر فيها، وكل إضافة أو تحوير مردودة على صاحبها، والنبى ﷺ يقول: «من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد»[1] أى مردود عليه.

والقرآن يقول مستنكراً: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التى دست فى بعض كتب المسلمين أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقررها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه.

٤- عقيدة مبرهنة:

وهى عقيدة «مبرهنة» لا تكفى من تقرير قضاياها بالإلزام المجرد. والتكليف الصارم، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى «اعتقد وأنت أعمى» أو «آمن ثم أعلم» أو «اغمض عينيك ثم اتبعنى» أو «الجهالة أم التقوى» بل يقول كتابها بصراحة: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١، والنمل: ٦٤]، ولا يقول أحد علمائها ما قاله القديس الفيلسوف المسيحى (أوغسطين): «أؤمن بهذا لأنه محال»! بل يقول علماؤها: إن إيمان المقلد لا يقبل.

وكذلك لا تكتفى بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليها أساسا للاعتقاد، بل تتبع قضاياها بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع، والتعليل الواضح، الذى يملك أزمة العقول، ويأخذ الطريق إلى القلوب، ويقول علماؤها: إن العقل أساس النقل، والنقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح.

فنرى القرآن فى قضية الألوهية يقيم الأدلة من الكون، ومن النفس، ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكماله.

وفى قضية البعث يدلل على إمكانه بخلق الإنسان أول مرة، وخلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، ويدلل على حكمته بالعدالة

---

(١) متفق عليه.

الإلهية فى إثابة المحسن، وعقوبة المسىء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

٥- عقيدة وسط:

وهى عقيدة وسط لا نجد فيها إفراطاً ولا تفريطاً:

هى وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم، وبين الذين يثبتون أن للعالم أكثر من إله، بل يحلون روح الإله فى الملوك والحكام بل فى بعض الحيوانات والنباتات مثل الأبقار والأشجار، فقد رفضت الإنكار الملحد، كما رفضت التعديد الجاهل، والإشراك الغافل، وثبتت للعالم إلهاً واحداً، لا إله إلا هو ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وهى عقيدة وسط فى صفات الإله:

فليس فيها الغلو فى التجريد الذى يجعل صفات الإله مجرد أسلوب لاتعطى معنى، ولا توحى بخوف أو رجاء، -كما فعلت الفلسفة اليونانية- فكل ماوصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا.. من غير ما تقول ما صفات هذا الإله الإيجابية؟ وما أثرها فى هذا العالم؟

ويقال هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذى وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية.. جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس، ووصفته بالنوم والتعب والراحة، والتحيز والمحاباة والقسوة.. و .. وجعلته يلتقى ببعض الأنبياء فيصارعه فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بقلب جديد!!

ولكن عقيدة الإسلام تقرر تنزيه الله -إجمالا- عن مشابهة مخلوقاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

[الإخلاص: ٤]. ومع هذا تصفه -تفصيلا- بصفات إيجابية فعالة ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٢-١٦].

وهى وسط بين التسليم الأبله الذى يأخذ عقائد الآباء بالوراثة، كما يرث عنهم العقارات والأملاك، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، وبين الذين يريدون أن يعرفوا كنه كل شىء حتى الألوهية وهم بعد لم يعرفوا كنه أنفسهم التى بين جنوبهم، ولا ما هية حياتهم وموتهم، ولاكنه شىء من القوى الكونية المحيطة بهم، فكيف يطمع العقل بعد ذلك فى معرفة كنه الألوهية؟ وهل يعرف النسبى كنه المطلق؟ ويعرف المحدود حقيقة غير المحدود؟!

وهى مع هذا تفتح الباب للنظر فى الكون والتفكير فيه، يقول الرسول: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا»[1]، ويقول القرآن: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾[الروم: ٨]. ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الذاريات: ٢٠، ٢١].

وهى وسط فى علاقتها بالعقائد الأخرى. فلا تقبل الذوبان فى غيرها، بل تدعو فى قوة إلى الثبات عليها والاستمساك بها: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النحل: ٧٩]. ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

---

(١) الحديث روى بألفاظ متعددة، من طرق مختلفة، بأسانيد كلها ضعيفة، ولكن تعددها واجتماعها يكسبها قوة، والمعنى صحيح كما قال البخارى فى المقاصد الحسنة.

[الزخرف: ٤٣]. ولكنها لا تتعصب ضد غيرها من العقائد السماوية: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]. بل يتسع صدرها لما يخالفها: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

تهيب بأصحابها أن يدعو إليها: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. ولكنها لا ترضى بإكراه أحد على اعتناقها: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لا تقبل التهاون فى موادة من يحاربونها ويضعون العراقيل فى سبيلها وإن كانوا من ذوى القرابة والقريبة: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ولكنها لا تقبض يد البر والمعونة عمن يخالفها ولا يعتدى على أهلها: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وهى وسط بين الذين يتساهلون فى إثبات العقائد فيقبلون الظنون والشكوك والأوهام، وهذا معين لا ينضب لقبول الخرافات والأساطير، وبين الذين لايقبلون فى العقيدة أى خطرة تمر بالذهن ثم تخفى، أو هاجس يهجس فى النفس ثم يزول، لقد رفضت عقيدة الإسلام الظن فى أصول العقيدة -فضلا عن الشك أو الوهم- قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]. ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]. ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

ومع هذا تسامحت فى الخواطر التى لا يسلم منها العقل البشرى، بل اعتبرتها أحيانا دليل يقظة العقل، ومظنة للطمأنينة وعلم اليقين. قال بعض الصحابة: يارسول الله، إنا نجد فى أنفسنا ما لو أن نصير حمما - فحما محترقا-

أهون من أن نتكلم به – يعنون خطرات ترد عليهم فى قضايا الألوهية– فقال النبى ﷺ فى صراحة وقوة: أوقد وجدتموه؟ ذاك صريح الإيمان[١].

ويرى الحاكم أن ابن عباس وابن عمر التقيا، فقال ابن عباس: أى آية فى كتاب الله أرجى؟ فقال ابن عمر: قول الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: ٢٦٠] فرضى منه بقوله: بلى، فهذا ما يعترض فى الصدر مما يوسوس به الشيطان.

إنها وسوسة الشيطان سرعان ما يطردها إلهام الملك فى قلب المؤمن، إنها طيف يلوح ثم يختفى، وهاجس يهجس ثم يزول بإسلام الوجـه لله، والاعتصام بهداه، وتـلاوة آياتـه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران: ١٠١]. ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وهى وسط فى أمر النبوة، فلم ترفع الأنبياء إلى مقام الألوهية، فيتجه الناس إليهم بالعبادة أو الاستعانة مع الله، كما اعتقد أهل الملل فى أنبيائهم، ولم تنزل بهم إلى مستوى السفلة من الناس، فتنسب إليهم ارتكاب الموبقات، وفعل المنكرات من شرب المسكرات: واتباع للشهوات بل قتل للنفوس فى سبيلها– كما رأينا فى وصف أسفار العهد للأنبياء.

وإنما الأنبياء فى عقيدة الإسلام بشر أصفياء، علم الله طيب معادنهم، وحسن استعدادهم، فأنزل وحيه عليهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وجعلهم أسوة لأتباعهم وعصمهم من قبائح الذنوب ودنىء الأعمال، حتى لا يتوجه إليهم وعيد الله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وحتى يكونوا أهلا لعهد الله ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

---

(١) رواه البخارى وغيره.

٦- وحدة العقيدة فى الإسلام:

ومن الأصول الأساسية التى جاء بها الإسلام، وتعد من أهم الركائز لوحدة المسلمين، مهما اختلفت بهم الأقطار، ومهما تباينت جنسياتهم، وتمايز جنس من الأجناس، أو لون من الألوان، أو مصر من الأمصار.. كلا بل هى واحدة دائما عند كل المسلمين، تقوم على الإيمان بالله، وبرسوله ﷺ وبكل ما فى القرآن وأن الإسلام هو الإسلام، والقرآن هو القرآن وأساس العقيدة: هو الإيمان بوجود الله تعالى، بل إن ذلك هو أساس الدين كله؛ لأن الإيمان بالله يدفع الإنسان إلى التصديق بكل ما أخبر به، وتنفيذ كل ما أرشد إليه من أمر ونهى»[١].

وقد عبر القرآن الكريم عن العقيدة: بالإيمان، والعقيدة فى الوضع الإسلامى هى الأصل[٢] وعناصر هذه العقيدة: مبثوثة فى آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومن أجمعها على سبيل التمثيل: قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن كثير: اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة[٣].

والآية -كما ترى-: مشتملة على خمس عشرة خصلة، وترجع إلى ثلاثة أقسام:

فالخمسة الأولى منها: تتعلق بالكمالات الإنسانية، التى هى من قبيل صحة الاعتقاد، وآخرها، قوله: (والنبيين) وافتتحها بالإيمان بالله واليوم الآخر، لأنهما إشارة إلى المبدأ والمعاد... والستة التى بعدها: تتعلق بالكمالات النفسية، التى

---

(١) أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١٦.

(٢) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، ص ٦، بتصرف.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص ٢٠٧.

هى من قبيل حسن معاشرة العباد، وأولها (وآتى المال)، وآخرها: (وفى الرقاب) والأربعة الأخيرة تتعلق بالكمالات الإنسانية، التى هى من قبيل تهذيب النفس، وأولها: (وأقام الصلاة)، وآخرها (وحين البأس). ومن عمل بهذه الآية: فقد استكمل الإيمان، ونال أقصى مراتب الإيقان»[١].

ومن أجمع ما ورد من حديث رسول الله ﷺ فى عقيدة المسلمين، ما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال: قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج»[٢].

وعن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا»[٣]. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة فى عقيدة المسلمين، وهى فى حقيقتها مبينة لما جاء به القرآن الكريم، وموضحة له.

وعقيدة المسلمين واحدة لدى كل المسلمين، فى شرق الأرض وغربها، وشمالها، وجنوبها، تجمع عليها قلوبهم، وتحفظها عقولهم، وتستيقنها نفسهم.

ووحدة العقيدة جددت بين المسلمين ما مضى من قرابة الدم القائمة بينهم، وإذا كانت أبوة آدم عليه السلام أبوة مادية، تجمع بين الأمة الإسلامة، وتوحد بينها فى الأصل، فإن العقيدة الإسلامية هى أبوة روحية ترجع إليه فروع المؤمنين، والحق أن المؤمن حينما يستشعر جلال هذا الأصل الروحى، الذى يجمعه وإخوانه المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، إلى جانب المادى الذى يرجعه معهم إلى أبوة واحدة، فإنه حينئذ يشعر أنه إنما يحيا بإخوانه، ويحيا لهم كأنه غصن من أغصان شجرة عظيمة، يحيا بحياتها، ويموت بموتها.

---

(١) الألوسى: روح المعانى، جـ١، ص ٣٥٩.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الإيمان، باب: دعاؤكم إيمانكم، ج١، ص ٤٩.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، فهو مؤمن، جـ١، ص ٦٢.

وإن رابطة العقيدة فى الإسلام أعلى وأقوى من رابطة الدم والنسب، والمساكنة فى الوطن، والمشاركة فى القومية.

وهذا الأساس: هو المنطلق الوحيد للخروج من قوقعة الأنانيات الفردية، والقبلية، والقومية، إلى صعيد اللقاء الإنسانى، على أساس المبادىء، المتينة الراسخة، مبادىء الحق والعدل والخير، وفى هذا الإطار التربوى النفسى ذاته، عالج الإسلام النفس الإنسانية إعداداً لها لتحقيق التعارف والتعاون.

وانطلاقا من مفاهيم العقيدة التى جاء بها الإسلام أعد الإسلام النفوس للتعارف والتعاون الإنسانى، ذلك أنه جعل العصبيات بأنواعها فسوقا، وخروجا عن العقيدة، وانحرافا عن حياتها.

والعقيدة تعنى الارتباط بين القلب البشرى وفكرة أو رأى أو منهج معين، وإن هذا الارتباط يتميز بالوثاقة والقوة والإحكام، كما يتسم بالثبات، والاستمرار والاستقرار[١].

والعقيدة هى الأمرالذى تثق به النفس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقينا عند صاحبه ولا يمازجه شك، ولا يخالطه ريب، فالعقيدة مجموعة من قضايا الحق المسلم بها بالسمع والعقل والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثنى عليها صدره، جازما بصحتها، قاطعاً بوجودها وثبوتها[٢].

ويذكر العقاد أننا نعنى بالعقيدة الدينية طريقة حياة، لا طريقة فكر، ولاطريقة دراسة، إنما نعنى بها حاجة النفس، كما يحس بها من أحاط بتلك الدراسات، ومن فرغ من العلم والمراجعة، ليترقب مكان العقيدة، من قرارة ضميره، إنما نعنى بها ما يملأ النفس، لا ما يملأ الرؤوس، أو يملأ الصفحات[٣].

---

(١) السيد رزق الطويل: العقيدة فى الإسلام منهج حياة، ص ١٥، ١٦.

(٢) آمنة محمد نصير: مباحث فى علوم العقيدة، مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٤هـ، ص ١٠.

(٣) عباس محمود العقاد: العقائد والمذاهب، مجلد رقم ١١، ط٢، دار الكتاب اللبنانى، ص ٤٠٢.

إن العقيدة التى يصح أن توصف بالعقيدة الدينية هى التى لا يستغنى عنها من وجدها، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم منها بمعتصم، واستقر فيها على قرار[١].

وإذا كان القرآن الكريم لم يذكر كلمة «عقيدة» وذكر مادتها اللغوية، فإن القرآن الكريم ذكر حقائق أساسية كبرى هى فى مجموعها موضوع ما يسمى العقيدة أو العقائد.

وفى مجال العقيدة أو العقائد جاء القرآن الكريم بكلمة «الإيمان» وللقرآن الكريم طريقته الخاصة فى عرض الحقائق وهى طريقة تصلح فى آن واحد للخاصة من الناس والعامة منهم[٢].

ثم إنه إذا كانت كلمة العقيدة تعنى الربط والتوثيق، فإن كلمة الإيمان «تعنى الربط والتوثيق مضافا إليها ما يطمئن إليه القلب، ويقتنع به اقتناعا ذاتياً ونفسيا».

وهذه الحقائق الأساسية عرضها القرآن الكريم على الناس، وأيدها بالأدلة والشواهد ودعا إلى تصديقها والإيمان بها، وكرر ذكرها بأساليب شتى، وطرق متعددة، وهى التى تؤلف جو القرآن العام، والأساس الذى تتفرع منه قواعد الخلقية، وأحكامه التشريعية، لا تنفصل عنه أبداً، وهى القاعدة الفكرية التى أراد الله أن يقيم عليها بناء الإنسان وتكوينه[٣]. ولقد دعا القرآن بإلحاح إلى الإيمان بهذه الحقائق الكبرى، دعا إلى الإيمان بالله خالق الكون، وبالحياة الآخرة، التى تتجلى فيها مسئولية الإنسان، ويتحدد مصيره الأبدى، وبالنبوة والوحى طريقا إلى معرفة الحقائق التى يريد الله أن يلقيها إلى الإنسان، سواء أكان موضوعها عالم الغيب أم حقائق ما وراء المادة، أم كان توجيه الإنسان وتنظيم شئونه فى هذه الحياة[٤].

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٣١.
(٢) محمد المبارك: العقيدة فى القرآن الكريم، ١٠ دار الفكر، بيروت، ص ٩.
(٣) المرجع السابق: بتصرف، ص ٩.
(٤) المرجع السابق: بتصرف: ص ١٠.

ومما لا يخفى على الإنسان: أن هناك نوعاً آخر من الحقائق اشتمل عليها القرآن الكريم، ووردت فيه على أنها طريق إلى الحقائق الأساسية -من الإيمان بالله والحياة الآخرة وبالنبوة والوحى- ووسيلة للوصول إليها، ولكنها تتكرر فى سور القرآن فى صور وأشكال شتى مرافقة للحقائق الأساسية؛ لتأييدها ودعمها، ويشتمل هذا النوع على مشاهد الكون فى القرآن الكريم بآفاقه الواسعة، وأنواع مخلوقاته المختلفة، وحوادثه المتبدلة، وسننه المطهرة، ويشتمل بوجه خاص على حياة الإنسان فى خلقه وتكوينه وميوله وغرائزه فى أجياله المتعاقبة، ومن عرف الحقائق الأساسية استطاع أن يخرج بفكرة شاملة عن:

- **نظرة الإسلام إلى الوجود:** وجود الخالق، ووجود العالم المخلوق: الكون والإنسان.
- نظرة الإسلام إلى الصلة بين الله والكون، وبين الله والإنسان، وبين الكون والإنسان.

ويتكون من مجموع ذلك عقيدة كاملة، ونظرة شاملة، وهذه العقيدة لاتتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير فى العادة مصاعب عقلية خاصة.

٧- شمول العقيدة الإسلامية:

وذلك أن العقيدة الإسلامية، عقيدة شاملة،و من أى جانب ينظر الإنسان إليها، لقد جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية، بأسمى عقيدة فى الإله الواحد الأحد، صححت فكرة الفلسفة النظرية، كما صححت فكرة العقائد الدينية، فكان تصحيحه لها أعظم المعجزات التى أثبتت فى حكم العقل المنصف، والبديهة الصادقة، أنه وحى من عند الله[1].

ومن ثم -كما يقول العقاد: كانت هذه العقيدة الإلهية فى الإسلام مصححة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات، أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية.

---

(١) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، جـ ٥، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ص ٤٠.

وهى عقيدة كاملة، صححت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين لأنه كان على خطأ فى فهم التجريد والتنزيه، ساقه إلى الخطأ إلى القول بكمال مطلق، كالعدم المطلق فى التجرد من العمل، والتجرد من الإرادة، والتجرد من الروح(١).

ودين يصحح العقائد الإلهية فيما سبقه من ديانات الأمم وحضارتها ومذاهب فلاسفتها(٢).

وما كان الشمول فى العقيدة الإسلامية ليذهب فيها مذهبا أبعد وأوسع من خطاب الإنسان روحا وجسدا وعقلا وضميرا، بغير بخس ولا إفراد فى ملكة من هذه الملكات(٣).

والعقيدة الإسلامية توصف بالشمول، لأنها تفسر كل القضايا الكبرى فى هذا الوجود. القضايا التى شغلت الفكر الإنسانى، ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم، الذى يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات النحل المتضاربة، قديما وحديثا، فإذا كانت بعض العقائد تعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروى فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح ووضح شامل(٤).

ولهذا جاءت تشريعات الإسلام لجميع الناس، ولكافة مراحل تطور الإنسان من الميلاد إلى الوفاة، وبذلك تشمل كيان الفرد كله، والمجتمع بأسره والناظر فى

---

(١) د. أحمد عبدالرحيم السايح: هذا هو الإسلام، الدوحة، دار الثقافة، ص ١٦٣.

(٢) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، جـ ٥، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ص٦٠-٦١.

(٣) المصدر السابق: الجزء نفسه، ص ٣٢.

(٤) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٦.

تشريعات الدعوة الإسلامية، يرى أنها كانت مع الإنسان، جنينا فى بطن أمه، وبعد مولده، وفى شبابه، ورجولته، تسايره هكذا فى أطواره المختلفة، حتى يأتيه أجله[1].

وتتمثل خاصية الشمول التى يتسم بها الإسلام فى رد هذا الوجود كله بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقه فيه، وكل تحور، وكل تطور. والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه، إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية، الأزلية، الأبدية المطلقة[2].

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول، لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة، ولابد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار[3].

وشمول العقيدة الإسلامية، هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة أخرى من تحويل الأمم العريضة التى تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية، والبرهمية فى مصر وسوريا، وفارس، والهند، والصين.

إن شمول العقيدة الإسلامية، هو العامل القوى الذى يجمع إليها النفوس ويحفظ لها قوى الإيمان[4]. ومن آثار شمول العقيدة فى الإسلام نرصد انعكاس ذلك فى شمول العبادة فى الإسلام.

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامى فى عباداته كما تمثلت فى عقيدته، فالعبادة فى الإسلام تستوعب الكيان البشرى كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه وحدها، بل يعبد الله بهذه كلها، بلسانه ذاكراً، داعياً، تالياً، وببدنه مصلياً، صائماً، مجاهداً، وبقلبه خائفاً، راجياً، محباً، متوكلاً، وبعقله متفكراً،

---

(١) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٣٠٠.

(٢) د. سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى، ط: دار الشروق، سنة ١٤٠٠-١٩٨٠م، ص ٩٢.

(٣) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٨.

(٤) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ٢٦.

متأملاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها فى طاعته -سبحانه وتعالى[1] قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]. وأن هذا النص القرآنى الكريم -كما يقول الشهيد سيد قطب-: ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة، ومن جوانب هذه الحقيقة: أن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، ونحن نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن الكريم، من قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. فالخلافه فى الأرض عمل هذا الكائن الإنسانى، وهى تقتضى ألوانا من النشاط الحيوى، من أجل عمارة الأرض، والتعرف على قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها، وتحقيق الإرادة الإلهية فى استخدامها وتنميتها، وترقية الحياة فيها. كما تقتضى الخلافة: القيام على شريعة الله فى الأرض، لتحقيق المنهج الإلهى الذى يتناسق مع السنن الكونية، ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة -التى هى غاية الوجود الإنسانى، أو التى هى وظيفة الإنسان الأولى- أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة فى مدلول العبادة قطعا[2].

وإذا كانت العبادة غاية الوجود الإنسانى كما هى: غاية كل وجود، فإن مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذى يرد إلى الذهن، والذى يضيق نطاقها حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة، التى يؤديها المؤمن.

ولفظ العبادة بمعناه العام: تعنى السير فى الحياة ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى -وفق شريعته الغراء[3].

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) سيد قطب: فى ظلال القرآن، جـ٦، ص ٣٣٨٦ -٣٣٨٧ بتصرف.

(٣) د. عبدالكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية، ص ١٤٨.

والعبودية -كما بينها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- تشمل كل ما يحب الله ويرضى، من الأقوال والأفعال[١].

ولفظ العبادة: يطلق على كل عمل تتحقق فيه الشروط الآتية:

١- أن يكون العمل نافعاً ومفيداً، وصالحاً فى الحياة.

٢- أن يراد بهذا العمل وجه الله - سبحانه وتعالى- لارتباط الأعمال بالنيات وإنما الأعمال بالنيات «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[٢].

٣- أن يؤدى العمل بلا مخالفة شرعية «فكل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»[٣].

فإذا تحققت هذه الشروط فى أى عمل، نستطيع وبكل اطمئنان: أن نلقبه بالعبادة، وأنه مما يحب الله ويرضى، وأنه فى سبيل الله[٤].

والغرض من العبادات: تنبيه المتدين إلى حقيقتين، لا ينساهما الإنسان فى حياته العامة أو الخاصة:

الحقيقة الأولى: التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام - هى: وجوده الروحى، الذى ينبغى أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية، وغير شهواته الحيوانية.

الحقيقة الثانية: التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضميره - هى: الوجود الخالد الباقى، إلى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية.

وعبادة المسلم فى جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقتين[٥].

---

(١) ابن تيمية: رسالة العبودية، ص ٤.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الوحى.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى كتاب البيوع باب النجش.

(٤) د. محمد رأفت سعيد: التوازن فى التصور الإسلامى، ص ٢٧-٢٨.

(٥) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١١١-١١٢ باختصار.

لقد عد الإسلام قضية التوحيد قضيته الأولى، وقضيته الكبرى. توحيد الألوهية، وأفردها بخصائصها، والاعتراف بها لله وحده، وشمول العبودية لكل شيء، ولكل حى، وتجريدها من خصائص الألوهية جميعا[١].

قال كعب بن عجرة رضي الله عنه: مر على النبى ﷺ رجل ذكر أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم فقالوا: يا رسول الله: لو كان هذا فى سبيل الله؟ فقال: «إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو فى سبيل الشيطان»[٢].

وعن أبى ذر رضي الله عنه أن أناسا، قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضل أموالهم، قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به، أن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة»، قالوا: يا رسول الله: أيأتى أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجراً؟ قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر»[٣].

ومن شمول العقيدة فى الإسلام نرصد شمول التشريع الإسلامى كذلك والتشريع الإسلامى تشريع كامل بكل معنى الكلمة، فما من حدث ولا عمل يصدر عن الإنسان، ولا علاقة تقوم بينه وبين غيره إلا وللشريعة حكم فيها[٤].

إن الإسلام لا يشرع للفرد دون الأسرة، ولا للأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلا عن غيره من المجتمعات. إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد فى عبادته وصلته بربه، وهذا ما يفصله قسم العبادات فى الفقه الإسلامى.

---

(١) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، ط: دار الشروق، ص ١١٦.
(٢) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب، جـ٢، ص ٥٢٤.
(٣) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى.
(٤) د. عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة، ص ٥١.

ويشمل التشريع الفرد فى سلوكه الخاص والعام، وهذا يشمل ما يسمى الحلال والحرام، أو الحظر والإباحة[١].

وارتبط التشريع الإسلامى بالإيمان بالله، والاعتقاد بوحدانيته، ومنهجه الذى ينظم شئون الحياة فى جميع جوانبها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، إذ أن رسالة الإسلام عامة شاملة، تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق، كما تنظم حياة الإنسان فى الدنيا تنظيما يربطها بالعقيدة، ويخضعها لأحكام التشريع الإسلامى[٢].

والإسلام حين يبنى تشريعه ومنهجه للحياة على هذا الأساس، إنما يهدف إلى غاية يعمل على تحقيقها فى كل جوانب الحياة، هذه الغاية هى: صلاح المجتمع الإسلامى، وتحقيق الخير والفلاح له فى كل شئون حياته، ودفع الضرر والفساد الذى يصيب الفرد أو المجتمع، إذا أعرض عن هدى الله وخالف أمره[٣].

كما أن الشريعة الإسلامية لم تأت لوقت دون وقت، أو لعصر دون عصر، أو لزمن دون زمن، وإنما هى شريعة كل وقت، وكل عصر، وكل زمن، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن يراجع أحكام الشريعة، يجد أنها كاملة لا نقص فيها، ولا قصور، شاملة لأمور الأفراد والجماعات والدول، فقد صيغت نصوص الشريعة، بحيث لا يؤثر على نصوصها مرور الزمن، ولا يبلى جدتها، ولا يقتضى تغيير قواعدها العامة، ونظرياتها الأساسية[٤].

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٤-١١٥.

(٢) د. عبدالعظيم فودة: الحكم بما أنزل الله، ص ٢١، ط: دار الصحوة بالقاهرة سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

(٣) المصدر السابق: ص ٢١.

(٤) د. محمد صالح عثمان: وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، ص ١٦٨، ط: جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، سنة ١٤٠١هـ.

ولهذا وجدنا التشريع الإسلامى يشمل التشريع للمجتمع فى علاقاته المدنية والتجارية وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض من البيوع، والإجارات، والقروض، والمداينات، والرهن، والكفالة، والضمان، وغيرها[١].

والباحث فى التشريع الإسلامى وما جاء به يكتشف فى وضوح: أن التشريع الإسلامى شامل لجميع شعب الحياة من أعمال الأفراد، وعباداتهم، وسيرهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وآدابهم فى الأكل، والشرب، والجلوس، والقيام، واللباس، والكلام، والشئون الأسرية، والصلات الجماعية، والقضايا المالية، والاقتصادية، والإدارية، وحقوق الوطن، وواجباته، والعدالة، ومرافق الحكومة، وحالات السلم، والحرب، والعلاقات بالأمم الأجنبية، وما إليها[٢]، مما عنيت به كتب السير، أو الجهاد فى الفقه الإسلامى.. ومن هنا لا توجد ناحية من نواحى الحياة، إلا دخل فيها التشريع الإسلامى، آمراً أو ناهياً أو مخبراً[٣].

ويمكن للباحث أن يتعرف على أمثلة للشمول فى التشريع الإسلامى كثيرة، مثل:

- أحكام الأسرة من نكاح وطلاق، وإرث ونفقة، وتسمى فى الاصطلاح: بأحكام الأسرة أو الأحوال الشخصية.
- أحكام تتعلق بعلاقات الأفراد، ومعاملاتهم، كالبيع، والإجارة، والرهن، والكفالة.
- أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى، وأصول الحكم، والشهادة، واليمين، والبينات.
- أحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى إقليم الدولة الإسلامية، والحقوق التى يتمتعون بها، والتكاليف التى يلتزمون بها.

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥.
(٢) د. محمد صالح عثمان: وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، ص ١٦٩.
(٣) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥.

- أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده، وشكل الحكومة، وعلاقات الأفراد بها، وحقوقهم إزاءها.
- أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية، ومصارفها، وتنظيم العلاقات المالية بين الأفراد والدولة، وبين الأغنياء والفقراء.
- أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة، من جهة الأفعال المنهى عنها، والجرائم، وإنزال العقوبات بالمجرمين، وكيفية تنفيذها(١).

يبدو شمول التشريع الإسلامى فى أمر آخر، أو بعد آخر، وهو: النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة وما يتأثر بها، والنظر لها نظرة محيطة مستوعبة مبنية على معرفة النفس الإنسانية، وحقيقة دوافعها، وتطلعاتها، وإشراقها، ومعرفة الحياة البشرية، وتنوع احتياجاتها، وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية، والخلقية بحيث يكون التشريع فى خدمتها وحمياتها(٢).

فالنظم الإسلامية ما ضاقت عن حاجة، ولا وقفت عقبة فى سبيل مصلحة، أو عدالة، بل وسعت مصالح الناس، على اختلاف أجناسهم، وألسنتهم، وألوانهم.

ومن شمول العقيدة فى الإسلام نرصد كذلك انعكاس ذلك فى شمول الأخلاق فى الإسلام فمن أهم خصائص وسمات الاتجاه الخلقى فى الإسلام: الشمول، وذلك لشمول الإسلام لجميع جوانب الإنسان فى الإيمان والعبادة، وفى المعاملة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: اتسمت الأخلاق بالشمول، والقوة وعظمة العلاقة بين الإنسان وخالقه القائمة على العبودية لله وحده، لا شريك له، والدينونة لله وحده، بلا منازع، وشمول هذه العبودية لكل شىء(٣).

---

(١) د. عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة، ص ٣٠.
(٢) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥-١١٦.
(٣) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، ص ٨١.

فالاتجاه الخلقى للإسلام لم يدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية، إلا رسم له المنهج الأقوم والأمثل لقواعد السلوك.. ففى جانب الإيمان يقول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً»(١)، فقوله ﷺ صريح فى أن الأخلاق من الإيمان، ولذا عد الإسلام الإيمان براً، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فالبر صفة للسلوك الخلقى، ومن هنا كانت الأخلاق فى الإسلام لا تدع جانبا من جوانب الحياة الإنسانية.. روحية أو جسمية دينية أودنيوية.. عقلية أو عاطفية.. فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع(٢).

وما من خصلة حث عليها القرآن الكريم، إلا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفسانى، أو مقدار ما يطلبه الإنسان من نفسه، ولا يضطره أحد إلى طلبه(٣)، ومن هنا: كان الشمول بين جوانب النفس سمة للاتجاه الخلقى فى الإسلام، وأن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد فى كافة نواحيه.

- جسما له ضروراته، وحاجاته، يمثل هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقول الرسول ﷺ: «إن لبدنك عليك حق»(٤).

- وعقلا له مواهبه وآفاقه. قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

---

(١) رواه أحمد فى مسنده، جـ:٢، ص ٥٠، ٤٧٢، ٥٢٧.

(٢) د. القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٠.

(٣) العقاد: الفلسفة القرآنية، جـ: ٧، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ص ٣٦.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع، ولم يرد عليه قضاء، جـ: ٤، ص ٢٠٩.

فالإسلام يتجلى شموله فى أنه: يتناول الإنسان والكون والحياة، ثم تناول الإنسان من جميع جوانبه، الخارجية المادية، والداخلية الروحية، لتستقيم حياته وسلوكه وأخلاقه، وقد ربط بينهما بتوازن دقيق، قال تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٧٧]. وبذلك فإن الإسلام لا يفصل بين روح الإنسان وجسده، وبين فرديته وجماعيته، وبين دنياه وآخرته، فلا تنشطر سريرته وحياته أشطاراً مختلفة، كما هو الحال فى المذاهب البشرية الأخرى(١).

والإسلام يلائم بين المادة والروح، ويوفق بين الدنيا والآخرة، ويربط بين العبادة والحياة، بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة توظف الإنسان على أن يؤدى حق ربه، وحق نفسه وحق غيره بكل دقة وأمانة وتنسيق، وبهذا يتسنى للإنسان أن يمارس الحياة الاجتماعية العملية بكل طاقاته، وأشواقه، على أسس مبادىء الإسلام، القائمة على الشمول، والتى توافق الفكرة وتتلاءم مع واقعية الحياة(٢).

ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالأسرة، كالعلاقة بين الزوجين، وفضيلة هذه العلاقة: أنها علاقة سكن، تستريح فيها النفوس إلى النفوس، وتتصل بها المودة والرحمة والمشاركة القلبية والوجدانية قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ١٩].

(١) د. محمد نبيل غنايم وعمر سليمان الأشقر وآخرون: دراسات فى الثقافة الإسلامية، ط: الثانية، مكتبة الفلاح بالكويت، سنة ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ص ٢٣.

(٢) عبد الله ناصح علوان: هذه الدعوة، ما طبيعتها؟ ط: الثانية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة، سنة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، ص ٤٣.

ومن أخلاق الإسلام فى الأسرة: العلاقة بين الأبوين والأولاد، والعلاقة بين الأقارب والأرحام.

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلق بالمجتمع فى آدابه، وفى اقتصاده، ومعاملاته وفى سياسته، وحكمه[١].

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلق بالحيوان والطير، لأن من فضائل الإنسان المهذب: أن يكون رؤوفا بالضعفاء، عطوفا على البؤساء، رفيقا بالمحتاج إلى الرفق من الخلق، رحيما بمن مسه الضر، وعضه الدهر، جاهدا فى كشف ضره، وتفريج كربه، والإحسان إليه، والعطف عليه، متخلقاً بهذه الأخلاق الإسلامية الفاضلة، يجد فيها إمتاع نفسه وانشراح صدره، وارتياح قلبه، بريئا من القسوة، وتحجر القلب، وجمود العاطفة، لا بالنسبة لأخيه الإنسان فحسب، بل وكذلك بالنسبة للحيوان الأعجم، الذى لا يملك لنفسه نفعا، ولا عنها دفعا، بل يكون به أرفق، وله أرحم. ويسلك صفات الرحماء من الناس ذوى النفوس الزاكية، والقلوب النقية الصافية التى ترحم العاجز الضعيف وتبره، ولو لم يكن من بنى الإنسان، وتبغض الجور والعسف وتمقته، ولو فى أمر الحيوان[٢].

قال رسول الله ﷺ : «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[٣].

---

(١) د. يوسف عبدالهادى الشال: الإسلام وبناء المجتمع الفاضل، ط: الأزهر سنة ١٣٩٢هـ- ١٩٧١م، ص ١٦٩-٢٨١.

(٢) حسنين محمد مخلوف: الرفق بالحيوان، ط: مطبعة المدنى بالقاهرة، سنة ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، ص٥.

(٣) رواه أحمد فى مسنده، جـ: ٢، ص ١٦٠.

المبحث الرابع
مقتضيات العقيدة الصحيحة

خلال ثلاثة عشر عاما فى مكة، وعشر سنوات فى المدينة كان رسول الله ﷺ يوثق فى قلوب المسلمين «لا إله إلا الله».

كان ﷺ يعيش مقتضيات لا إله إلا الله أمام أصحابه، ويوجههم إليها، ويعلمهم كيف يعيشونها، كأن يعلمهم كيف يعيشون كل لحظة من حياتهم مع الله.

فإذا أصبحوا قالوا: «اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور» وإذا أمسوا قالوا: «اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير»[1].

أو قالوا: «أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير. رب أسألك خير ما فى هذا اليوم وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر ما فى هذا اليوم وشر ما بعده، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب النار وعذاب القبر»[2].

وكان ﷺ يردد، ويعلم أصحابه أن يرددوا: «اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء لك بذنبى، فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[3].

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه البخارى.

«اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة. اللهم أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى. اللهم استر عوراتى، وآمن روعاتى، واحفظنى من بين يدى، ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بك أن أغتال من تحتى»(١).

«اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد ألا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه، وأن اقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم»(٢).

«أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمدﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وماكان من المشركين»(٣).

«اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر»(٤).

«ياحى يا قيوم، برحمتك استغيث، أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين»(٥).

«اللهم عافنى فى بدنى. اللهم عافنى فى سمعى. اللهم عافنى فى بصرى. لا إله إلا أنت. اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر، وأعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت»(٦).

وكان يقول لأصحابه إذا آووا إلى فراشهم أن يقولوا: اللهم إنى أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك

(١) أخرجه ابن ماجه.
(٢) رواه أحمد وأبو داوود والترمذى والنسائى وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد.
(٣) الإمام أحمد.
(٤) أبو داوود.
(٥) النسائى.
(٦) أبو داوود.

رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، ونبيك الذى أرسلت[١].

ويقولوا: «باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[٢].

وإذا استيقظوا أن يقولوا: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور»[٣].

وإذا لبسوا ثوبا جديدا أن يقولوا: «اللهم لك الحمد أنت ألبستنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»[٤].

وإذا خرجوا إلى المسجد فى الصباح أن يقولوا: «اللهم اجعل فى قلبى نورا، وفى لسانى نوراً، واجعل فى سمعى نوراً، واجعل فى بصرى نوراً، واجعل من خلفى نوراً ومن أمامى نوراً، واجعل من فوقى نوراً ومن تحتى نوراً، اللهم أعطنى نوراً»[٥].

وإذا أصاب أحدهم همّ أن يقول: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم. لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم»[٦].

أو يقول: «اللهم إنى عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتبك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب

---

(١) الشيخان.
(٢) متفق عليه.
(٣) مسلم.
(٤) الترمذى.
(٥) مسلم.
(٦) الشيخان.

عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى»[١].

كان ﷺ يعلمهم - بالقدوة فى شخصه الكريم، كيف يحيا الإنسان فى معية الله، وكيف يكون فى كل لحظة ذاكرا لله.. صابراً إن أصابه ضر، شاكرا إن أصابه خير، متطلعاً دائماً إلى عون الله. لاجئا إليه، مستعينا به، مستغفرا إياه، مسلماً بقضائه وقدره، مستعيذاً من غضبه، راجيا رضاه، فكانوا كما وصفهم الله: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وتجردوا لله، حتى خلت نفوسهم من حظ نفوسهم كما وصفتهم كتب السيرة، وكان هذا كله -فى فترة التربية فى مكة خاصة- هو مدلول لا إله إلا الله فى نفوسهم، كما تعلموها من رسول الله ﷺ، كما أنزلت فى كتاب الله.

وهكذا -بكل الأدوات والوسائل- توثقت لا إله إلا الله فى قلوبهم وتعمقت، فتعلقت قلوبهم بالله برباط متين، يحبونه ويخشونه، ويتطلعون إليه ويرجونه، ويتهيأون لطاعته فيما يأمر.. فقامت فى قلوبهم القاعدة التى تحمل البناء.. تحمل التكاليف، وتتحرك للوفاء.

ولم يتوجه رسول الله ﷺ إلى حل أى من هذه المشاكل فى بدء عمله فى الدعوة. إنما توجه بأمر ربــه إلى الدعــوة بلا إله إلا الله، حتى إذا قامت لا إله إلا الله فى قلوب العصبة المؤمنة التى يعدها الله، لتكون نواة «الأمة الربانية» وتكون هى «القاعدة الصلبة» التى تحمل البناء، وعلم الله من هذه القلوب أنها تجردت له.. أخذت تتنزل التكاليف، وبدأت «مقتضيات لا إله إلا الله» تتسع حتى شملت الحياة كلها، بما لابد من حلها؛ لكى تقوم الأمة الربانية على أسس قوية صامدة.. ولكن كان لابد -فى المنهج الربانى- أن تتحول تلك القضايا إلى «متطلبات إيمانية» مرتبطة بلا إله إلا الله، لا مجرد اهتمامات بشرية تخضع لأهواء

(١) البخارى.

البشر ومعايير البشر، وأن يكون الجهد الذى يبذل فى حلها قد بذل ابتغاء مرضاة الله، لا لمجرد المنفعة الدنيوية التى قد تنتج عنها، وحين حدث ذلك بالفعل كان الأداء على نسق غير مسبوق فى البشرية، وكانت النتائج شيئا يشبه المعجزات![1].

عندما يذهب الإيمان: فإن الفطرة بذاتها التى خلقها الله عابدة لله على استقامة، وتكون عرضة للمرض والانحراف بتأثير البيئة الفاسدة التى تفسد صفاءها واستقامتها.

وحين تختل الفطرة، وتنحرف عن استقامتها، يصيبها كثير من الأمراض.. أمراض فى الرؤية، وأمراض فى السلوك. أمراض فى الفرد وأمراض فى المجتمع.. أمراض فى الكيان النفسى، والكيان الاجتماعى، والكيان السياسى، والكيان الاقتصادى، والكيان الأخلاقى.. وفى كل جانب من جوانب النفس، وكل جانب من جوانب الحياة. يهبط الإنسان مع الشرك دركات من الهبوط. ومن ثم فقد معنى وجوده!

إن الإنسان حين يفقد الإيمان بالله واليوم الآخر، لا يستطيع أن يرى الصورة فى تمامها الذى أنشأه الله «بالحق» وخلق من أجله السماوات والأرض «بالحق» فيراها عندئذ شوهاء مبتورة غير ذات معنى ولا حكمة ولا قيمة.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٧-٢٨].

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

وحين يفقد الإنسان معنى وجوده ينطلق هائما لا يدرك لحياته معنى ولاحكمة، يستحيل عليه أن يؤمن «بالقيم» التى ترفعه عن عالم الحيوان، فينتكس إلى أسفل، فيصبح أضل من الحيوان:

---

(١) محمد قطب: لا إله إلا الله عقيدة وشريعة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٣، ص ٤٢.

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وفى عالم الحيوان يكون الهم الأكبر -إلى جانب قضاء الشهوات- هو صراع البقاء؛ فتلتقى أنواع الحيوان المختلفة لتتصارع وتكون الغلبة للأقوى، فيأكل القوى الضعيف، أو يزيحه من الطريق.

أما فى عالم «الإنسان» فقد جعل الله للحياة هدفا آخر، ومعياراً آخر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والصراع الذى كتبه الله فى عالم الإنسان ليس صراع الغلبة من أجل الغلبة، ولكن من أجل إصلاح الأرض:

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فإلى أى درك يهبط الإنسان حين يفقد معنى وجوده، ويتعامل بعضه مع بعض على مستوى الحيوان؟ وهو فاعل ذلك لا محالة إذا هبط عن الإيمان بما لاتدركه الحواس، ففقد الإيمان بالله واليوم الآخر.

إن الإيمان بالله وحده بلا شريك هو حق الله على العباد كما قال رسول الله ﷺ: «قال: أتدرون ما حق الله على العباد؟ حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»[١].

والحق أن الجهل بالسنن الربانية فإنه يجعل الناس فى غفلة عن حقيقة مذكورة فى كتاب الله فى أكثر من سورة، وهى أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل التمكين فى الحياة الدنيا خاصا بفريق من الناس دون فريق، بل قال سبحانه: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ٢٠].

(١) أخرجه مسلم.

فالدنيا كما قال رسول الله ﷺ لا تساوى عند الله جناح بعوضة، لذلك يعطى الكافر منها بقدر ما يجتهد فى الحصول عليها: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ**﴾ [هود: ١٥].

والدنيا -من ناحية أخرى- هى محل الابتلاء الذى خلق الله الإنسان من أجل أن يخوضه: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [الإنسان: ٢].

﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الكهف: ٧].

فلو أعطاها الله لفريق من البشر دون فريق، لم يعد للابتلاء معنى.. إنما يكون له معنى حين تتاح للبشر جميعا، ثم يختبر الناس: أيهم تفتنه الحياة الدنيا فتشغله عن ربه، وعن اليوم الآخر، وأيهم يأخذ قسطه من متاع الأرض وهو عابد لربه، ملتزم بأوامره، ومن ثم فإن التمكين فى ذاته يمكن أن يتم للمؤمنين وللكافرين سواء -إذا اتخذوا الأسباب- دون أن يتعلق ذلك بالإيمان، أو الكفر.. ومع ذلك فهناك فروق يغفلها الناس حين تصيبهم سطحية التفكير، وغلبة الشهوات، والغفلة عن الآخرة.

يقول تعالى عن الكفار والمعاندين: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٤].

ويقول فى موضع آخر: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ٩٦].

فأبواب التمكين المادى مفتوحة كلها -أو يمكن أن تفتح كلها- لكفار المعاندين. ولكن باب البركة لا يفتح عليهم، لأن الله اختص به المؤمنين، فلا يناله الكفار ولو فتح عليهم الرخاء المادى، الذى يظنه أصحاب الشهوات غاية الغايات فى الحياة الدنيا.. ومن أراد مثالا فلينظر إلى الغرب اليوم -بكل ما فيه من تقدم علمى ومادى وتكنولوجى وحربى- ولينظر إلى ما يعانيه الناس فيه من القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية، والخمر والمخدرات والجريمة، واللهث الدائم وراء تحقيق الشهوات.. دون بركة فى الوقت ولا المال ولا الأسرة ولا الذرية، ولا

المعانى التى تليق بالإنسان، ولا الطمأنينة كذلك، فإنها وقف على المؤمنين الذين يذكرون الله: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذا وذاك فضلا عن كون هذا التمكين - الذى يتاح للكفار فى الأرض للاستدراج- موقوت مهما طال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الانعام: ٤٤-٤٥]. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[محمد: ١٢]

وهذا كله فى أمور الحياة الدنيا.

أما الآخرة فلها شأن آخر.. ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر، وهى خالصة للذين آمنوا:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فأما الذين لا يؤمنون بها، ويقولون: دعونا من ذكرها، وحدثونا عن الحياة الدنيا.. فما أصبرهم على النار!. كلا، لا تستوى حياة الإنسان بالكفر والإيمان فى الحياة الدنيا، ولا الآخرة.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص : ٢٨].

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وما أضيق أفق الإنسان، وما أضل تصوراته حين يحصر اهتمامه وإيمانه بالحياة الدنيا وحدها، منقطعة عن الآخرة، وما أوسع أفقه.

وما أصوب تصوراته حين يؤمن بالآخرة، ويضع الحياة الدنيا فى وضعها الصحيح وحجمها الحقيقى.

المبحث الخامس
المفهوم الشامل للإيمان

نعنى بالعقيدة الإيمان بأركانه الستة، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم بإسناده عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ:

«. . . قال يارسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كله»(1).

وفى حديث عمر الذى أخرجه مسلم مرفوعا إلى رسول الله ﷺ «قال فأخبرنى عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»(2).

والعقيدة لغة فعيلة من عقد بمعنى معقودة (بمعنى اسم المفعول) عقد الحبل والبيع والعهد: يعقده: شده والعقد: العهد(3). فكأن العقيدة هى العهد المشدود والعروة الوثقى وذلك لاستقرارها فى القلب ورسوخها فى الأعماق(4).

أما الشهادتان: « لا إله الله محمد رسول الله «فهما القاعدة الأساسية الأولى التى يقوم عليها صرح هذا الدين، وهو الطريق الوحيد الذى يوصل سالكه دار السلام ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]

وهذه القاعدة -توحيد الله فى الألوهية- هى الركن الأساسى بل الأساس المكين الذى قام عليه كل دين نزل من عند الله.

---

(١) صحيح مسلم: جـ١، ص ٣١، ط صبيح.

(٢) انظر شرح الأربعين النووية، ط قطر، ص ١٩.

(٣) القاموس المحيط باب الدال فصل العين، جـ١، ص ٣١٥.

(٤) عبدالله عزام: العقيدة وأثرها فى بناء الجيل، عمان، مكتبة الأقصى، ١٩٨٤، ص ٢٣.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وهذه القاعدة «لا إله إلا الله» تعنى فى أبسط صورها أن هذا الكون منبثق عن إرادة هذا الإله الواحد. بأمره يسير، وبقدره تدبر أموره. وكل خلق من مخلوقاته أمره بيده، لا يخرج عن إرادته، ولا يند عن مشيئته ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③﴾ [الأعلى: ١-٣]. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦]. هذه نقطة لا ينبغى أن تغيب عن بالنا. إن كل شىء فى الكون صنع بيد الله العزيز الحكيم ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

وأما النقطة الثانية فهى: أن كل مخلوق فى هذا الكون جندى من جنود الله، يؤمر ويطيع ويدعى فيلبى.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. فالسماوات والأرض وما فيهن جنود مطيعة لرب العالمين.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]. أى مطيعون خاشعون.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ولذا فالجبال والماء والأرض والسماء كلها مخلوقات لله، وجند من جنوده ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

فلقد وجه رب العالمين الأمر إلى النار فأطاعت ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ونادى الجبال فأصغت: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

وأما الثالثة: فقد يسخر الله بعض جنوده لطاعة عبدٍ من عبيده ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣]. ويقول لموسى عليه السلام: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]. ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وأما المسألة الرابعة: فكل كائن من مخلوقات الله له منهاج ربانى يسير عليه لا يستطيع الخروج عنه قيد أنملة ولا شعرة، فالشمس لا يمكنها أن تخرج عن المدار الذى أمرها الله أن تدور فيه ولو خرجت زاوية واحدة عن محورها لتحطمت وحطمت الكثير، وكذلك القمر، والأرض، وهذا هو ناموس الله فى هذا الكون لكل خلق عدا الثقلين الأنس والجن.

وقد تتجلى مظاهر هذه العبودية أحيانا لعبد من عبيد الله بإرادة الحاكم الآمر. ومن ذلك ما يحدثنا الإمام أبو الحسين مسلم بإسناده عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعرف حجرا بمكة يُسلِّم علىَّ قبل أن أبعث، وإنى لأعرفه الآن»[1].

هذا وقد يكشف الله طرفا من هذه العبودية لغير الأنبياء فقد تتجلى بأسفار ووضوح لعباده الصالحين، ومن ذلك ما يروى أنه: لما بعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه العلاء بن الحضرمى فى حرب المرتدين إلى البحرين فسلكوا مفازة، وعطشوا عطشاً شديداً، حتى خافوا الهلاك، فنزل وصلى ركعتين، ثم قال: يا حليم، يا عليم، يا على، يا عظيم أسقنا! فجاءت سحابة كأنها جناح طائر، فقعقعت عليهم وأمطرت، حتى ملأوا الآنية وسقوا الركاب، ثم انطلقنا حتى آتينا

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذرى، تحقيق: الألبانى ٢/ ١٦٣.

دارين، والبحر بيننا وبينهم وفى رواية آتينا على خليج من البحر ما خيض فيه قبل ذلك اليوم، ولا خيض بعد، فلم نجد سفناً، وكان المرتدون قد أحرقوا السفن فصلى ركعتين ثم قال: يا حليم ، يا عليم، يا على، يا عظيم، أجزنا ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال: جوزوا باسم الله، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فمشينا على الماء، فوالله ما ابتل لنا قدم، ولا خف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف، وفى هذا يقول هفيف بن المنذر:

ألـم تـر أن الله ذلـل بحــــره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل

دعانا الذى شق البحار فجاءنا بأعظم ممن فلق البحار الأوائل[1]

ثانيا: وأما الإيمان بالملائكة فهو جزء من عقيدتنا ويخبرنا القرآن أن الملائكة موكلون بحفظ البشر وحمايتهم، وهم مكلفون بإحصاء أعمالهم وتسجيله. **﴿إن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾** [الطارق: ٤].

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨].

﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١٠، ١١].

فالملائكة حفظة للبشر، يحصون عليهم أعمالهم، ويقدمون كتب أعمالهم إلى رب العالمين، ومنهم موكل بقبض أرواح البشر وهم كذلك يستغفرون للذين آمنوا، ويحضرون مجالس الرحمة والذكر والتلاوة كما فى الأحاديث الصحيحة، وهناك ملكان حافظان يلازمان الإنسان حيث حل وأينما سـار لا يفارقانـه أبـداً إلا فى بعض المواطن كالخلاء مثلا.

ثالثا: وأما الإيمان بالكتب السماوية فهو جزء من العقيدة والإيمان بصحف إبراهيم والتوراة المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام والإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام

---

(١) انظر: أسباب سعادة المسلمين وشقائهم فى ضوء الكتاب والسنة للكاندهولى، ص ٦٠.

والزبور على سيدنا داود عليه السلام والقرآن على سيدنا محمد ﷺ وعليهم الصلاة والسلام أجمعين.

رابعاً: وأما الإيمان بالرسل: فالعقيدة الإسلامية تعتبر أن الإيمان بكل رسول مرسل هو جزء منها بحيث يعتبر من يجحد رسالة أى رسول خارجا من إطار هذا الدين ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فمن كفر بأى رسول فقد كفر بأصل الرسالات وكفر بالقرآن لأنه صرح بأسماء الرسل فى النصوص القطعية الدلالة والثبوت.

خامساً: وأما الإيمان باليوم الآخر، فهو كذلك من القواعد المكينة فى هذا الدين ويكون الأساس فى كل دين نزل من عند رب العالمين **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾** [البقرة: ٦٢].

فالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح هذه القاعدة بأركانها الثلاثة هى عماد كل دين.

وهذا الدين الذى بعث به محمد ﷺ يعتبر أن الحياة جسر إلى الآخرة وأن الإنسان يمر بأطوار ومراحل فمن رحم الأم إلى هذه الأرض إلى القبر فالبعث، فالحشر، فالميزان، فالصراط ثم إلى جحيم مستعر أو إلى نعيم مستقر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

والحق أن الإيمان بالآخرة هو صمام الأمان فى هذه الأرض وهو الضابط الوثيق الذى يحرس الأخلاق والحارس الأمين الذى يضمن تنفيذ الشريعة فى هذه الدنيا. فهو الذى يمنع لحظة العين أن تمتد إلى محرم ويمنع النفس أن تهجس بهواجس الشر ويردع الفم أن يهمس ولو بكلمة واحدة لا يرضاها ربه لأنها كلها مسجلة معروضة محصية عليه أنفاسه وكلماته وحركاته.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

سادساً: وأما القدر فهو المحرك الأصيل للنفس البشرية وهو الدافع الحقيقى للعمل فى ميدان الحياة، وأول ما يطالعنا من نصوص القدر الرزق والأجل. فقد ذكرت فى أكثر من موضع فى الكتاب العزيز مع إقرار أنها ثابتة محددة، ولايغادر المرء هذه الأرض قبل أن ينال كل رزقه ويستنفد جميع أجله. فلن يموت إلا بقدر، ولن يستطيع أحد أن ينقص من رزقه قرشا واحداً مهما علا جاهه، وعظم سلطانه.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لن ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[١].

والأجل المحدود والرزق المحدود مع العلم القطعى أن الله عز وجل بيده ملكوت كل شىء، وإليه يرجع الأمر كله، وله من فى السماوات ومن فى الأرض، وأنه إليه ترجع الأمور.

هذه الأمور كلها كانت تدفع بأحدهم فى أتون المعركة تاركا وراءه أهله دون معين ولا كفيل إلا الله، وحسبك كلمة أبى بكر يوم تبوك إذ جاء إلى الرسول ﷺ بجميع ماله فقال ﷺ: ماذا تركت لأهلك فقال: «تركت لهم الله ورسوله».

ولذا فإننا نرى أن آيات العقيدة جاءت منبثة فى معرض آيات القتال والجهاد. خاصة الآيات التى تقرر أن الحياة والموت بيد الله ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥].

(١) حديث حسن صحيح رواه الترمذى عن عبدالله بن عباس مرفوعا.

إن استقرار هذه العقيدة فى أعماق النفس يجعلها عزيزة فلا تذل، تقف أمام كل قوى الأرض لا ترهب سلطانا، ولا تستخذى أمام صولة الملك، وإغراء المال، هذه العقيدة ترفع صاحبها من أوحال الأرض ومستنقع الطين. فيقف فى المرتقى السامى ينظر إلى الأرض من علٍ مع التواضع، وبالعزة مع المحبة والتضامن دون استطالة ولا بغى على الناس يود لو يرفعهم إلى هذا المستوى الذى رفعه الله إليه.

بهذه العقيدة أضحى الرعيل الأول من الصحب الكرام يعيشون بحسهم وأرواحهم فى الآخرة مع أجسادهم تدب على هذه الأرض هم يتحركون فوق هذه المعمورة مع أن أنظارهم مشدودة بقوة إلى الجنة، إلى الحساب.

روى الطبرانى بإسناده عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال: «انظر ما تقول، فإن لكل شىء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسى عن الدنيا، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى. وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا. وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: «يا حارث عرفت فالزم»[1] ثلاثاً، ولقد ذكر هذا الصحابى الذى استحق شهادة رسول الله ﷺله بالمعرفة، ما يصور مشاعره، ويُنبىء بما وراء هذه المشاعر من عمل وحركة. فالذى كأنه ينظر إلى عرش ربه بارزاً، وينظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتضاغون فيها، لا ينتهى إلى مجرد النظر، إنما هو يعيش ويعمل ويتحرك فى ظل هذه المشاعر القوية المسيطرة التى تصبغ كل حركة وتؤثر فيها. وذلك إلى جانب ما أسهر ليله وأدام نهاره، وكأنما هو ناظر إلى عرش ربه بارزاً.

هذا مثل من كثير يبين كيف ترجمت العقيدة فى نفوس الصحابة، وتجسدت فى أناس من لحم ودم، يدبون على الأرض فيتحرك بحركتهم القرآن.

---

(١) فى ظلال القرآن، جـ٩، ص ٢٤١.

والآن، دعنا نستمع إلى الإمام أحمد[1] وقد دخل عليه رجل فقال: عظنى يا إمام. فقال له: إن كان الله قد تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا؟ وإن كانت النار حقا فالمعصية لماذا؟ وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا؟ وإن كان الحساب حقا فالجمع لماذا؟ وإن كان كل شىء بقضاء الله وقدره فالخوف لماذا؟ وإن كان سؤال منكر ونكير حقا فالأنس لماذا؟ فخرج الرجل من عند الإمام، وعاهد نفسه أن يرضى بقضاء الله وقدره.

(١) محمد أمين المصرى: إملاءات فى العقيدة، دمشق، د.ت، ص ١٧.

المبحث السادس
حقيقة الإيمان

ما مفهوم الإيمان الذى نعنيه فى هذا الكتاب، ونحاول تجلية أثره فى النفس والحياة؟

الإجابة عن هذا السؤال لا تتضح إلا إذا عرفنا مفهوم الإيمان، ومتعلق الإيمان، أما مفهوم الإيمان ومعناه فإنه ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن، فما أكثر المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٨، ٩].

وليس هو مجرد قيام الإنسان بأعمال وشعائر اعتيد أن يقوم بها المؤمنون، فما أكثر الدجالين الذين يتظاهرون بالصالحات، وأعمال الخير، وشعائر التعبد، وقلوبهم خراب من الخير والصلاح والإخلاص لله: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

وليس هو مجرد معرفة ذهنية بحقائق الإيمان، فكم من قوم عرفوا حقائق الإيمان، ولم يؤمنوا ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. وحال الكبر أو الحسد أو حب الدنيا بينهم وبين الإيمان بما علموه من بعد ما تبين لهم الحق: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

إن الإيمان فى حقيقته ليس مجرد عمل لسانى ولا عمل بدنى، ولا عمل ذهنى، إن الإيمان فى حقيقته عمل نفسى يبلغ أغوار النفس، ويحيط بجوانبها كلها من إدراك وإرادة ووجدان.

فلابد من إدراك ذهنى تنكشف به حقائق الوجود على ما هى عليه فى الواقع، وهذا الانكشاف لا يتم إلا عن طريق الوحى الإلهى المعصوم.

ولابد أن يبلغ هذا الإدراك العقلى حد الجزم الموقن، واليقين الجازم، الذى لايزلزله شك ولا شبهة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]

ولابد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة إذعان قلبى، وانقياد إرادى، يتمثل فى الخضوع لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولابد أن يتبع تلك المعرفة، وهذا الإذعان حرارة وجدانية قلبية؛ تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة، والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية، والجهاد فى سبيلها بالمال والنفس، ولهذا نجد القرآن الكريم يصف المؤمنين فيقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]

والقرآن الكريم يعرض دائماً الإيمان فى أخلاق حية، وأعمال ناصعة، يتميز بها المؤمنون، من الكفرة والمنافقين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون: ١-٥].

وقال تعالى فى وصف المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]

يقول أحد العلماء فى تفسير هذه الآية:

هذه العناصر والمقومات التى ذكرتها الآيات هى التى تكوّن «الإيمان الحق» إن

شئت قلت «العقيدة الحقة» وإذا فُقد بعض هذه العناصر فإن ما بقى منها لايستحق أن يسمى «إيماناً» أو عقيدة.

يمكن أن تسمى «فكرة» أو «نظرية» أو «رأياً» أو أى عنوان من هذه العناوين، أما الإيمان الحق فهو الذى تشرق شمسه على جوانب النفس كلها، فتنفذ إليها أشعتها حاملة الضوء، والحرارة والحياة. أجل، عندما تَنْفُذ تنفيذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه، وإلى القلب فتهزه، وتحركه إلى الإرادة فتدفعها وتوجهها، وإذا اقتنع العقل، وتحرك القلب، واتجهت الإرادة، استجابت الجوارح، واندفعت للعمل، استجابت الرعية للراعى المطاع.

ولنا أن نتأمل ما قاله الأستاذ أحمد أمين -رحمه الله- مفرقاً بين الرأى والعقيدة[1]، قال: «فرق كبير بين أن ترى الرأى وأن تعتقده، وإذا رأيت الرأى فقد أدخلته فى دائرة معلومات، وإذا اعتقدته جرى فى دمك، وسرى فى مخ عظامك، وتغلغل فى أعماق قلبك.

ذو الرأى فيلسوف، يقول: «إنى أرى صواباً قد يكون فى الواقع باطلاً، وهذا ما قامت عليه اليوم، وقد تقوم على عكسه غداً، وقد أكون مخطئاً فيه وقد أكون مصيباً».

أما ذو العقيدة فجازم بات، لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هى الحق، لامحالة هى الحق اليوم، وهى الحق غداً، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل وسمت عن معترك الشكوك والظنون.

ذو الرأى فاتر أو بارد، ان تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة ورزينة، وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس، فقد احترز من قبل بأن رأيه صواب يحتمل الخطأ ورأى غيره خطأ يحتمل الصواب، وذو العقيدة حار متحمس، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته.

(١) أحمد أمين: فى كتاب فيض الخاطر، جـ١.

ذو الرأى سهل أن يتحول ويتحور، هو عند الدليل، أو عند المصلحة تظهر فى شكل دليل، أما ذو العقيدة فخير مظهر له قال رسول الله ﷺ : «لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى شمالى على أن أدع هذا الذى جئت به ما تركته».

الرأى جثة هامدة، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها، والرأى كهف مظلم حتى تلقى عليه العقيدة من أشعتها، والرأى مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضيعة أن تتوالد على سطحه، والعقيدة نجم يتألق.

الرأى يخلق المصاعب، ويضع العقبات، ويصغى لأمانى الجسد ويثير الشبهات ويبعث على التردد. والعقيدة تقتحم الأخطار، وتزلزل الجبال، وتلفت وجه الدهر وتغير سير التاريخ، وتنسف الشك والتردد، وتبعث بحزم اليقين، ولاتسمح إلا لمراد الروح.

محتوى الإيمان الذى نعنيه:

ولا يكفى أن نعرف حد الإيمان ومفهومه حتى نعرف محتواه ومتعلقه، فلابد أن تعرف أى إيمان نعنى فى دراستنا هذه؟

إنه الإيمان الذى يتجسد فى خاتمة العقائد السماوية، عقيدة الإسلام، كما بينها القرآن الكريم، وهدى الرسول العظيم، متمثلة فى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

هذه العقيدة هى التى تحل لغز الوجود، وتفسر للإنسان سر الحياة والموت وتجيب عن أسئلته الخالدة: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ هذه العقيدة ليست من مستحدثات الإسلام، ولا مما ابتكره محمد عليه الصلاة والسلام، إنها العقيدة المصفاة، التى بعث بها أنبياء الله جميعاً، ونزلت بها كتب السماء قاطبة، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل، إنها الحقائق الخالدة التى لا تتطور ولا تتغير، عن الله وعن صلته بهذا العالم.. ما يبصر منه ومالا يبصر، وعن حقيقة هذه الحياة

ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها. إنها الحقائق التى علمها آدم لنبيه وأعلنها نوح فى قومه، ودعا إليها هود وصالح. عاداً وثموداً، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله، وأكدها موسى فى توراته، وداود فى زبوره وعيسى فى إنجيله.

كل ما فعله الإسلام، هو أنه نقى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة، وصفاها من الأجسام الغريبة، التى أدخلتها العصور عليها فكدرت صفاءها وأفسدت توحيدها بالشفاعات، واتخاذ الأرباب من دون الله، وأفسدت تنزيهها بالتشبيه والتجسيم، ونسبة ما فى البشر من قصور ونقص إلى الله تعالى علوا كبيراً وشوهت نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم، كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضا جديدا، يليق بالرسالة التى اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية؛ وأن تكون غاية لكل البشر؛ إلى قيام الساعة.

جاءت عقيدة الإسلام فنقت فكرة التوحيد وكمال الألوهية مما شاب بها على مر العصور، ونقت فكرة النبوة الرسالة مما عراها من سوء التصور. ونقت فكرة الجزاء الأخروى مما دخل عليها من أوهام الجاهلين؛ وتحريف المغالين وانتحال المبطلين؛ ودخل المشعوذين.

والعناصر الأساسية لهذه العقيدة هى الإيمان بالله؛ والإيمان بالنبوات؛ والإيمان بالآخرة. ويمكن أن نجمل فى الإيمان بالله واليوم الآخر؛ والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده؛ والإيمان بوحدانيته؛ والإيمان بكماله.

وجود الله تعالى:

لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون قوة عليا تحكمه وتديره وتشرف عليه سماها أحدهم «العلة الأولى» وسماها غيره «العقل الأول» وسماها ثالث «المحرك الأول» وسماها القرآن العربى المبين، وكتب السماء بهذا الاسم الجامع لصفات الجمال والجلال «الله».

هذه القوة العليا، وبعبارة أخرى: هذا الإله العظيم ليس فى استطاعة العقل البشرى إدراك كنهه ولا معرفة حقيقته، كيف وقد عجز عن معرفة كنه ذاته، وعن كنه النفس، وحقيقة الحياة، وكثير من حقائق الكون المادية؟ وما عرف إلا آثارها فكيف يطمع فى معرفة ذات الله العلى الكبير؟ ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٢، ١٠٣].

هذا الإله ليس إله فصيلة محدودة، ولا إله شعب خاص، ولا إله إقليم معين، وإنما هو «رب العالمين» «رب السماوات والأرض» «رب المشرق والمغرب» ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولنستمع إلى ما نصه القرآن علينا من حوار موسى وفرعون؛ يتبين لنا شمول ربوبيته سبحانه وتعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

وقد دلل القرآن على وجود الله بطرق عديدة:

١- فيلفت العقول والأذهان إلى ما فى الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعاً حكيماً. وهو قانون بديهى عند العقل الذى يؤمن بمبدأ «السببية» إيماناً طبيعياً لا يحتاج إلى اكتساب أو تدليل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، هذا الخلق لابد له من خالق، وهذا النظام لابد له من منظم: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ

﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]. ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴿٥٠﴾﴾ [طه:٤٩، ٥٠].

٢- ويستثير الفطرة الإنسانية السليمة التى بها يدرك المرء إدراكاً مباشراً أن له رباً وإلهاً عظيماً يكلؤه ويرعاه. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠].

وإذا اختفت هذه الفطرة فى ساعات الرخاء واللهو فإنها تعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء، وسرعان ما يذوب الطلاء، وينكشف المعدن الأصيل فى النفوس البشرية، فتعود إلى ربها داعية متضرعة: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وتبدو هذه الفطرة حين يفاجأ الإنسان بالسؤال عن مصدر هذا الكون ومدبره فلا يملك بفطرته إلا أن ينطق معلناً «الله»: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]. ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

ويستشهد القرآن بالتاريخ الإنسانى على أن الإيمان بالله وبرسله كان سفينة النجاة لأصحابه، وأن التكذيب به وبرسله كان نذير الهلاك والبوار، ففى نوح يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]. وفى هود يقول: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]. وفى صالح وقومه ثمود

يقول: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٢، ٥٣].

وفى رسل الله جميعاً يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

إنما الله إله واحد:

وهو تعالى إله واحد ليس له شريك، ولا لــه مثيل فى ذاتــه أو صفاتــه أو أفعاله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١-٤].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وكل ما فى الكون من إبداع ونظام يدل على أن مبدعه ومدبره واحد ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل مدبر، أو أكثر من يد تنظم، لاختل نظامه، واضطربت سننه، وصدق الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

هو تعالى واحد فى ربوبيته، فهو رب السماوات والأرض، ومن فيهن وما فيهن، خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولايستطيع أحد من خلقه أن يدعى أنه الخالق أو الرازق أو المدبر لذرة فى السماء أو الأرض «وما ينبغى لهم وما يستطيعون».

وهو تعالى واحد فى ألوهيته، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجاء إلا إليه. فلا خشية إلا منه، ولا ذل إلا إليه، ولا طمع إلا فى رحمته، ولا اعتماد إلا عليه، ولا انقياد إلا لحكمه. والبشر جميعاً -سواء كانوا

أنبياء وصديقين أم ملوكاً وسلاطين- عباد الله، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فمن ألَّه واحداً منهم، أو خشع له وحنى رأسه، فقد جاوز به قدره، ونزل بقدر نفسه.

ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة، وإلى أهل الكتاب خاصة:

﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل فى هذه الكلمة العظيمة التى عرفت لدى المسلمين بكلمة «التوحيد» وكلمة «الإخلاص» وكلمة «التقوى» وهى: «لا إله إلا الله».

كانت «لا إله إلا الله» إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية، ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله: سواء كانت شجراً، أم حجراً، أم بشراً.

وكانت «لا إله إلا الله» نداءً عالمياً لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل من خلق الله وما خلق الله.

وكان «لا إله إلا الله» عنوان منهج جديد، ليس من صنع حاكم ولافيلسوف، إنه منهج الله الذى لا تعنو الوجود إلا له ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ولا تخضع إلا لسلطانه.

وكانت «لا إله إلا الله» إيذاناً بمولد مجتمع جديد، يغاير مجتمعات الجاهلية مجتمع متميز بعقيدته متميز بنظامه، لا عنصرية فيه ولا إقليمية ولا طبقية، لأنه ينتمى إلى الله وحده، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه.

ولقد أدرك زعماء الجاهلية وجبابرتها ما تنطوى عليه دعوة «لا إله إلا الله» من تقويض عروشهم والقضاء على جبروتهم وطغيانهم وإعانة المستضعفين عليهم، فلم يألوا جهداً فى حربها، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجاً.

لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أناساً منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة فى الأرض أو أنصاف آلهة، لهم يخضع الناس ويخشعون، ولهم يركعون ويسجدون، ولهم ينقادون ويسلمون. لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين فلم يعد عندهم بشراً إلهاً ولا نصف إله، أو ثلث إله، أو ابن إله، أو محلاً حل فيه الإله!. ولم يعد بشر يسجد لبشر أو يقبل الأرض بين يدى بشر، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحقة وأصل الحرية الحقة، وأصل الكرامة الحقة، إذ لا أخوة بين عابد ومعبود، ولا حرية لإنسان أمام إله أو مدعى ألوهية، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذه حكماً من دون الله.

قال أبو موسى الأشعرى: انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه، وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين، وقد قال عمرو وعمارة -وهما مندوبا مشركى قريش بمكة إلى النجاشى- إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده القسيسين والرهبان:

اسجدوا للملك، فقال جعفر بن أبى طالب: لا نسجد إلا لله.

فرغم أنهم مضطهدون ومهاجرون، وغرباء لاجئون، وهم فى أرض هذا الملك وفى حوزته، أبوا أن يفرطوا فى توحيدهم لحظة واحدة فيسجدوا لغير الله، وأعلنها جعفر كلمة أصبحت شعاراً لكل مسلم «لانسجد إلا لله».

كمال الله تعالى : ولابد مع الإيمان بوجود الله ووحدانيته من الإيمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة، منزه عن كل نقص: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٢-٤]. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

دلل على ذلك: هذا الكون البديع وما فيه من إحكام عجيب، وهدت إلى ذلك الفطرة البشرية النيرة، وفصلت ذلك رسالات الله تعالى إلى أنبيائه.

فهو سبحانه العليم الذى لا يخفى عليه شىء: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهو العزيز الفعال لما يريد، الذى لا يغلبه شىء، ولا يقهر إرادته شىء ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وهو القدير الذى لا يعجزه شىء. يجيب المضطر إذا دعا، ويكشف السوء، ويحيى العظام وهى رميم، ويعيد الخلق كما بدأهم أول مرة وهو أهون عليه ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

وهو الحكيم الذى لا يخلق شيئا عبثا، ولا يترك شيئا سدى، ولا يفعل فعلاً، أو يشرع شرعاً إلا لحكم، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، وهذا ما شهد به الملائكة فى الملأ الأعلى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وما شهد به أنبياء الله وأولياؤه، وأولو الألباب من عباده: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهو الرحيم الذى سبقت رحمته غضبه، ووسعت رحمته كل شىء، وقد حكى القرآن دعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وقال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ، وقد بدأ سور القرآن «باسم الله الرحمن الرحيم» للدلالة على سعة رحمته وتقوية الرجاء فى قلوب عباده وإن تورطوا فى الذنوب والآثام:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الكون كله -عاليه ودانيه- صامته وناطقه، أحياؤه وجماداته -كله خاضع لأمر الله، منقاد لقانون الله، شاهد بوحدانيته وعظمته، ناطق بآيات علمه وحكمته،

دائم التسبيح بحمده، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٤٤].

إن تسبيح الكون لله وسجوده له، حقيقة كبيرة، عميت عنها أعين، وصمت عنها آذان، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم، ويسمعون بآذان قلوبهم، فإذا هم يرون الوجود كله محرابا، والعوالم كلها ساجدة خاشعة، ترتل آيات التسبيح والثناء على العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]. ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ١-٣].

الإيمان بالنبوة ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبيره للعالم، وتكريمه للإنسان، بل هذا الإيمان فرع عن ذلك ولابد، فما كان الله ليخلق الإنسان، ويسخر له ما فى الكون جميعا، ثم يتركه يتخبط على غير هدى، بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الحياة الدنيا، وأن يهيىء له زاده الروحى، كما هيأ له زاده المادى، وأن ينزل الوحى من السماء ليحيى به القلوب والعقول، كما أنزل من السماء ماء لتحيا به الأرض بعد موتها.

ما كان من الحكمة أن يترك الإنسان لنفسه تتنازع الفرد قواه وملكاته المختلفة، وتتنازع الجماعة أهواؤها ومصالحها المتضاربة، وإنما كانت الحكمة فى عكس هذا. كانت الحكمة فى إرسال رسله بالبينات، ليهدوا الناس إلى الله ويقيموا الموازين بالقسط بين العباد.

ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لإرسال الله رسولا عنه يبلغهم

بأمره ونهيه، فيقول نوح: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)﴾ [الأعراف: ٦١-٦٣]

ويقول القرآن رداً على المشركين الجاحدين برسالة محمد ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

والهداية بالوحى هى أعلى مراتب الهداية التى منحها الله للإنسان فهناك الهداية الفطرية الكونية، وهى التى عبر عنها أحد العلماء حين قيل له: متى عقلت؟ قال: منذ نزلت من بطن أمى، جعت فالتقمت الثدى وتألمت فبكيت!!

وهذه الهداية ليست خاصة بالإنسان، بل تشمل الحيوان والطير والحشرات وهى التى عبر عنها بالوحى فى شأن النحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]. بل هى منبثة فى أجزاء الكون كله: فى النبات الذى يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقدر معلوم، وفى الكواكب التى يسير كل منها فى مداره الذى لا يتعداه، وفق قانون لا يتخطاه ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. فهى هداية عامة للمخلوقات جميعها، ولهذا ذكر لنا القرآن جواب موسى لفرعون قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)﴾ [الاعلى: ١-٣].

والمرتبة الثانية: للهداية مرتبة الحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم والتذوق، والباطنة كالجوع والعطش والفرح والحزن وهذه المرتبة أرقى من الأولى، ففيها نوع من الانتباه، وقدر من الإدراك وإن كانت لا تسلم من الخطأ، كما نرى فى السراب الذى يحسبه الرائى ماء، وفى الظن الذى يظنه ساكنا وهو متحرك.

والمرتبة الثالثة: هداية العقل بملكاته وقواه المختلفة، وهو أرقى رتبة من الحواس وإن كان كثيرا ما يعتمد على الحس فى الحكم والاستنباط، وبذلك يتعرض له فى ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج، والعقل فى عملياته العليا من خصائص الإنسان الذى تفرد بها عن الحيوان.

والمرتبة الرابعة: هى هداية الوحى، وهى التى تصحح خطأ العقل، وتنفى وهم الحواس، وترسم الطريق إلى مالا سبيل للعقل أن يصل إليه وحده، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. **﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** [النساء: ١٦٥].

الإيمان بالآخرة:

هذا ملخص قصة الحياة والإنسان؟ أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شىء بعد هذا؟ أو كما عبر القرآن عن قوم: **﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾** [المؤمنون: ٣٧].

إذن فما سر هذا الشعور الخفى، والوجدان الكامن الذى يغمر فطرة الإنسان من قديم الزمن، بأنه لم يخلق لمجرد هذه الحياة، ولتلك المدة القصيرة؟ وما سر الشعور بأن الإنسان فى هذه الدنيا غريب أو عابر سبيل إنه ضيف يوشك أن يرتحل إلى دار إقامة؟

هذا الشعور الذى رأيناه عند قدماء المصريين فحنطوا -استجابة له- جثث الموتى، وبنوا الأهرام، ولذا ظهرت آثاره فى أمم شتى بأساليب مختلفة.

يقول الشيخ محمد عبده: «اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين ونبيين وفلاسفة- إلا قليلا لا يقام لهم وزن- على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن، وأنها لا تموت موت فناء -أى زوال مطلق- وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء، وإن اختلفت منازعتهم فى تصوير ذلك البقاء، وفيما تكون فيه، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه، فمن قائل بالتناسخ فى أحياء البشر أو الحيوان على الدوام، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال، ومنهم من قال: إنها إذا فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيها لذتها أو ما به شقوتها. ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ألطف من هذه الأجسام المرئية..».

«هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة والمنبعث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها، وحشيها ومستأنسها، باديها وحاضرها، قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعد صلة عقلية، أو نزعة وهمية، وإنما هو من الإلهامات التى اختص بها هذا النوع. فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا -وإن شذ أناس منه أنكروا ذلك أو شكوا فيه -كذلك قد ألهمت العقول، وشعرت النفوس، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود، بل الإنسان ينزع هذا الجسد، كما ينزع الثوب عن البدن، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر، وإن لم يدرك كنهه.

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء، يشعر كلُ نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طريق غير محصورة، شيقة إلى الذات غير محدودة، ولا واقعة عند غاية، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحدها أطراف المراتب والغايات».

ثم كيف يسيغ العقل أن ينفض سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب وسرق فيها من سرق، وقتل فيها من قتل، وبغى فيها من بغى، وتجبر من تجبر، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابا، بل تستر واختفى فأفلت ونجا.

أو تمكن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت؟

وفى الجانب الآخر: كم أحسن قوم، وضحوا جاهدين، ولم ينالوا جزاء ما قدموا، إما لأنهم كانوا جنودا مجهولين، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ما عملوا من خير. وكم من قوم دعوا إلى الحق واستمسكوا به ودافعوا عنه، فوقف الظالمون فى طريقهم، وأوذوا وعذبوا واضطهدوا وشردوا، وسقطوا صرعى فى سبيله، وأعداؤهم الطغاة فى أمن وعافية، بل فى ترف ونعيم.

ألا يسيغ العقل -الذى يؤمن بعد بالإله الواحد- بل يطلب أن توجد دار أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟ هذا ما تنطق به الحكم السارية فى كل ذرة فى السماوات والأرض: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان: ٣٨-٤٠]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزيز على من خلقهم أول مرة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

بهذا الخلق الأول يستدل عليه بمظاهر قدرة الله فى عالم النبات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥-٧]، ويستدل القرآن على إمكان البعث بخلق الأجرام العظيمة فى هذا الكون من السماوات والأرض، وهى -لمن تأمل- أكبر من خلق الناس وأعظم: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

المبحث السابع
علاقة الإيمان بالعمل

معرفة الله والخضوع له، والإعداد للقائه والرهب من عقابه، هى لباب الدين وروح شرائعه. نعم فى تعاليم الدين نظم خلقية واجتماعية كثيرة، تتناول الحياة الخاصة والعامة من القاع إلى القمة. لكن هذه التعاليم كلها بناء دعامته العقيدة أو هى أعمال غايتها وجه الله، فإذا انهارت الدعامة أو اختلفت الغاية فقدت هذه النظم الخلقية والاجتماعية طابعها المميز، وقيمتها النفيسة.

الدين قبل كل شىء: « شعور بوجود الله، واعتراف بحقه فى حكم عباده، ووضع المبادىء التى ينطلقون منها، والحدود التى ينتهون إليها».

ومقتضى هذا الشعور الباطن، والاعتراف الظاهر، أن نفعل ما يوصينا الله به، لا على أنه خير فقط، بل على أنه «انقياد لله -وقيام بحقه.. إلى جانب ما فيه من خير ذاتى»..

إن الوجودى قد يرى الصدق فضيلة فى المعاملات التجارية وغيرها. ولكنه لا يعبد الله، حين يصدق مع غيره، فهو لا يعرف الله، ولا يؤمل فيما عنده!!..

أما المؤمن، فالصدق عنده طاعة لله الذى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

فهو يصدق أولا إيماناً بالله، ثم هو يرتفع بإيمانه هذا إلى فضيلة الصدق..

إن الأعمال الصالحة كلها، نفسية كانت أو اجتماعية، عندما تكون جزءاً من تعاليم الدين، أو جزءاً من سلوك المؤمنين، تأخذ طريقها فى الحياة مقترنة بهذا اليقين السماوى، أو مصطبغة بهذه الصبغة الإلهية، فيكون الإيمان بالله هو الباعث على العمل، وتكون تقواه جل شأنه إحساساً دائماً مصاحباً.

ونحن بهذا الكلام نلفت الأنظار إلى خطورة ما شاع من مسالك بشرية مجردة تجعل الناس يتواضعون على أعراف وتقاليد قد تكون حسنة أو لا تكون، ثم يرون فى الوفاء لهذه الأعراف والتقاليد الحق والفضيلة. مع أن صلتها بالإيمان مقطوعة، بل ربما لم يفكر صاحبها فى الله لحظة.

وهذا الفريق من الناس قسم الدين إلى قسمين: فما كان من عقائد وعبادات طرحه جانبا وازور عنه. وما كان من معاملات ونظم احتفى به وروجه أكثر من الحديث عن قيمته!!

وقد علمت أن أى عمل أمر الله به، فإنما الجدوى من فعله ابتداءً طاعة الله والقيام بحقه[1]. أما إتيانه دون نظر إلى وجه الله فلا قيمة له، وإن صلحت به إلى حيث بعض شئون الدنيا.

إن الإيمان بالله ليس نافلة فقط فى المجتمع المؤمن. إن تسبيحه وتحميده جل جلاله، يجب أن يكون شغلا للناس، وشارة لحياتهم بالغدو والآصال.

وقد يضحك بعضهم من الحديث عن الآخرة، والجنة والنار، ويظن ذلك كلاماً فات أوانه، أو كلاماً يتهامس به بعض الوعاظ فى مواكب الموت.

والحق أن الدين يذوب ويتلاشى يوم يكون الحديث عن الآخرة مجوناً أو لغواً.

إن قوافل الأحياء يجب أن تعى بلباقة وجد، أن عقيدة الجزاء الأخير ليس هزلاً، وأن البعد بنشاط الحياة عن الإيمان بالله واليوم الآخر، بُعد عن الصراط المستقيم، وجرى وراء سراب خادع.

ونحن المسلمين، يجب أن نشوب نشاطنا كله بمعالم هذا الإيمان الحق، وألا تجرفنا تيارات الحضارة المادية التى تسود الشرق والغرب، تلك الحضارة التى

---

(١) محمد الغزالى: عقيدة المسلم، القاهرة، دار الدعوة، ١٩٩٠م، ص ١٣٩.

ذهلت عن الله، وتجاهلت وحيه، وآثرت أن تحيا وفق هواها، وأن تأخذ من دينه مالا يصادم هذه الأهواء.. ثم تطرح جانباً أهم شعب الإيمان. والأمر بحاجة إلى أولى الألباب يتداركونه بصدق ألفهم، ولطف العلاج.

وعلينا معشر المؤمنين أن نصلح شأننا قبل أن نطالب غيرنا بتغيير نفسه وفكره، إن الإيمان أعظم الفضائل فى هذا الوجود، وهو عنصر غال، ما دخل فى شىء إلا زانه، ولا نزع من شىء إلا شانه.

بيد أن الإيمان الذى يستحق هذه النعوت له نواحى عديدة، فهو صلة بالله قائمة على الخشوع والإخبات، وهو صلة بالنفس قائمة على التأديب والضبط، وهو صلة بالمجتمع قائمة على العدل والرحمة، وهو صلة بالكون قائمة على السيادة والارتفاق.

ويجب أن ننصف الإسلام، فنعلم أنه دين أعلى قدر الإنسان، ورفع شأن الحياة، لا بعبادتها والتفانى فيها، كما يفعل الجهال، بل بضبط رسالة الإنسان فيها، وحسن إفادته منها.

الإنسان -فى تصوير الإسلام- عبد لله وحده، يعرفه ويتقيه..! سيد لهذا الكون- يرتفقه، ويستخدمه، ويستغل قواه. أخ لنظرائه من الناس يتعاونون معهم على الخير، ويعاشرهم بقانون العدل والرحمة.

صلة الإيمان بالعمل كصلة الخلق بالسلوك:

فإذا آمن الإنسان بالله العظيم، وأيقن باليوم الآخر، وصدق ما جاء به المرسلون، دفعه ذلك -لا محالة- إلى استرضاء ربه، والاستعداد للقائه، والاستقامة على صراطه. كما أن الشجاع فى ميادين الخطر يقم، والكريم فى مواطن البذل ينفق، والصادق فى أداء الحديث يتحرى الحق..إلخ. وعسير -بل مستحيل- أن يهبط الإنسان بحقيقة الدين عن هذا المستوى، أو أن يفهم من كتاب الله ورسوله ﷺ ما يغاير ذلك.

بيد أن أعداء الإسلام -وقد عجزوا عن هزيمته فى ساحات القتال- لم تعيهم الحيل لسحقه فى عقر داره. فدسوا على المسلمين من يصور لهم الإسلام كلمة لا تكاليف لها، وأمانى لاعمل معها. وفى ظل هذا الفهم المعوج ترى المسلم واليهودى والقبطى يتعاشرون سنين عددا، فلا تستطيع أن تميز أحدهم عن الآخر فى شىء. الكل لا يدخل مسجدا، ولا يقيم فريضة، ولا يحترم لله شعيرة. والكل يشرب الخمر، ويأكل الربا، ويفجر بالأعراض. وغاية ما بينهم من فوارق، أن اليهودى يقدس يوم السبت، وقد يذهب النصرانى إلى كنيسته خلسة. أما ذلك المسلم المزعوم فليس يربطه بالإسلام إلا اسم سجل فى شهادة الميلاد فحسب.

إن الله -عز وجل- جعل العمل رسالة الوجود ووظيفة الأحياء- وجعل السباق فى إحسانه سر الخليقة ودعامة الحساب.

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]

وما من آية فى كتاب الله ذكرت الإيمان مجردا، بل عطفت عليه عمل الصالحات، أو تقوى الله، أو الإسلام له، بل أصبحت صلة العمل بالإيمان آصرة لا يعروها وهن. فإذا عقدت مقارنة بين الهدى والضلال، جعل الإيمان والعمل جميعها فى كفة، وجعل الكفر فى الكفة الأخرى.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ ﴾ [غافر: ٥٨]

وكثيراً ما يشار إلى الإسلام وحقيقته الشاملة بمظاهر عملية واضحة محدودة: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١١-١٦]. بل إن العلامة التى ينصبها القرآن دليلا على فراغ النفس من العقيدة، وخراب القلب من

الإيمان، هى فى النكوص عن القيام ببعض الأعمال الصالحة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: ١-٣]

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

ثم ما الذى يوزن فى الدار الآخرة؟ أليست الأعمال التى تميل بالإنسان إلى النعيم أو الجحيم أو الدعاوى والمزاعم؟

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: ٨، ٩]

إننا نعرف تاريخ أمم هلكت بسوء عملها، ونعرف أن الله نقم على قوم لوط -مثلاً- لارتكابهم الفاحشة، وعلى قوم شعيب -مثلاً- لبخسهم المكيال والميزان، وقد عرفنا مصائر أولئك الفاسقين.

فهل أمتنا -وحدها- هى التى تريد أن ترتكب السيئات، دون حذر أو وجل؟

ليس الإسلام بدعاً من الشرائع السابقة، فيوجب الإيمان دون عمل.

بل إن القرآن الكريم ليقص علينا عبر السابقين لنتعظ منها، ثم لنسمع قول الله بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

هكذا نمتحن وتراقب تصرفاتنا، ويكلفنا الله بالإيمان والعمل جميعاً ثم ينظر وفاءنا بما حملنا من أعباء!.

وقد خاطب الله أبناء آدم -قاطبة- بهذه الحقيقة السافرة، وأفهمهم -فى جلاء وقوة- أن نجاتهم فى الصلاح والتقوى، لا فى النفاق والدعوى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦].

وعندما اهتدى أولو الألباب إلى الحق، وأعلنوا إيمانهم وهتفوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وعندما تضرعوا يطلبون من الرحمن أن يصفح عن زلاتهم:

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وعندما تطلعوا إلى النصر والتمكين فى الأرض، والفوز والرضوان فى الآخرة ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

مع هذه الحرارة فى الدعاء، والإخلاص فى التوجه، أعلن الحق أن استجابته مقرونة بالعمل وحده وأن الكلام -فحسب- لا يروج، وأن تحقيق هذا الرجاء مرهون بجهاد وتضحيات وتكاليف: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: ١٩٥]

إن النصوص الهادية إلى تلازم الإيمان والعمل كثيرة، يزخر بها القرآن وتستفيض بها السنة، وتقر الحق فى نصابه، وترسم لكل مسلم غايته، وتخط له مكانته، وتقرع الآذان بذلكم الأمر الحاسم:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

المبحث الثامن
ثمرات الإيمان الصحيح

١- ثمار الإيمان القلبى:

وإذا عرف الإنسان ربه عن طريق العقل والقلب؛ أثمرت له هذه المعرفة ثمارا يانعة، وتركت فى نفسه آثاراً طيبة، ووجهت سلوكه وجهة الخير والحق والسمو والجمال.

وهذه الثمار تجمل بعضها فيما يلى:

أ - تحرر النص من سيطرة الغير، وذلك لأن الإيمان يقتضى الإقرار بأن الله هو المحى، المميت، الخافض، الرافع، الضار، النافع.

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

إن الذى عوق البشرية عن النهوض، وحال بينها وبين الرقى هو الخضوع للاستبداد، سواء أكان هذا الاستبداد سياسيا للحكام والرؤساء، أم استبداداً كهنوتيا لرجال الدين والكهنوت. وبتقرير الإسلام لهذه الحقيقة، قضى على هذا الأسر وأطلق حرية الإنسان من سيطرة هؤلاء المستبدين التى لازمته قروناً طوالاً.

ب- والإيمان يبعث فى النفس احتقار الموت والرغبة فى الاستشهاد من أجل الحق.

إذ أن الإيمان يوحى بأن واهب العمر هو الله، وأنه لا ينقص بالإقدام، ولايزيد بالأحجام، فكم من إنسان يموت وهو على فراشه الوثير، وكم من إنسان ينجو وهو يخوض غمرات المعارك والحروب.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿وطَائفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ باللَّه غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهليَّة يَقُولُونَ هَل لَّنَا منَ الأَمْرِ من شَيْءٍ قُلْ إنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للَّه يُخْفُونَ في أَنفُسهم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا منَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ في بُيُوتكُمْ لَبَرَزَ الَّذينَ كُتبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إلَىٰ مَضَاجعهمْ وَليَبْتَليَ اللَّهُ مَا في صُدُوركُمْ وَليُمَحِّصَ مَا في قُلُوبكُمْ وَاللَّهُ عَليمٌ بذَات الصُّدُور﴾ [آل عمران: ١٥٤].

جـ- والإيمان يقتضى الاعتقاد بأن الله هو الرزاق، وأن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية.

﴿وَمَا من دَابَّةٍ في الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللَّه رزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ في كتَابٍ مُّبينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْملُ رزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لمَن يَشَاءُ منْ عبَاده وَيَقْدرُ لَهُ إنَّ اللَّهَ بكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

وإذا سيطرت هذه العقيدة على النفس تخلص الإنسان من رذيلة البخل والحرص والشدة، والطمع، واتصف بفضيلة الجود، والبذل، والسخاء، والألفة، والعفة، وكان إنساناً مأمول الخير مأمون الشر.

د- والطمأنينة أثر من آثار الإيمان: أى طمأنينة القلب، وسكينة النفس.
﴿الَّذينَ آمَنُوا وَتَطْمَئنُّ قُلُوبُهُم بذكْر اللَّه ألا بذكْر اللَّه تَطْمَئنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].
﴿هُوَ الَّذي أَنزَلَ السَّكينَةَ في قُلُوب الْمُؤْمنينَ ليَزْدَادُوا إيمَانًا مَّعَ إيمَانهمْ﴾ [الفتح: ٤].

وإذا اطمأن القلب، وسكنت النفس- شعر الإنسان ببرد الراحة، وحلاوة اليقين، واحتمل الأهوال بشجاعة، وثبت إزاء الخطوب مهما اشتدت، ورأى أن يد الله ممدوة إليه، وأنه القادر على فتح الأبواب المغلقة، فلا يتسرب إليه الجزع، ولايعرف اليأس إلى قلبه سبيلا.

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

هـ- والإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنوية، ويربطه بمثل أعلى، وهو الله مصدر الخير والبر، والكمال.

وبهذا يسمو الإنسان عن الماديات، ويرتفع عن الشهوات، ويستكبر على لذائذ الدنيا، ويرى أن الخير والسعادة فى النزاهة والشرف، وتحقيق القيم الصالحة، ومن ثم يتجه المرء اتجاهاً تلقائياً لخير نفسه، ولخير أمته، ولخير الناس جميعا.

وهذا هو السر فى اقتران العمل الصالح بجميع شعبه وفروعه بالإيمان إذ أنه الأصل الذى تصدر عنه، وتتفرع منه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [يونس: ٩].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤]. ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. وإذا اهتدى القلب، فأى شىء من الخير يفوته؟!

و- والحياة الطيبة يعجل الله بها للمؤمنين فى الدنيا قبل الآخرة. وتتمثل هذه الحياة فى ولاية الله للمؤمن، وهدايته له، ونصره على أعدائه، وحفظه مما يثبت له، وأخذه بيده كلما عثر، أو زلت به قدم، فضلا عما يفيضه عليه من متاع مادى. يكون عونا له على قطع مرحلة الحياة فى يسر.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]

﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقد انتهى العالم إلى هذه الحقائق الإيمانية؛ ولا يتسع المجال لإثبات شهادات كبار العلماء، وتسجيل ما شاهدوه. ونكتفى هنا بتسجيل ما نشر بإحدى الصحف المصرية قالت الصحيفة تحت عنوان «العلماء يلجأون إلى الدين لعلاج مرضى الأمراضى العقلية».

عزاء وسلوانا لأولئك الذين تشبثوا بدينهم، ولم يتزعزع إيمانهم فى أحلك لحظات المدنية وأنصعها، أقصد تلك اللحظات التى يتشدق فيها دعاة النظريات العتيدة، وفى مقدمتها نظرية النشوء والارتقاء «لداروين» بأن الدين بدعة، وبأن الإنسان يقف وحده فى هذا الكون، كما زعم «جوليان هاكسلى» جد الكاتب الفيلسوف البريطانى الكبير «الدوسى هاكسلى». إن علماء الأمراض العقلية، لا يجدون اليوم سلاحا أمضى، وأبعد فاعلية لعلاج مرضاهم من الدين والإيمان بالله والتطلع إلى رحمة السماء.. والتشبث بالرعاية الإلهية.. والالتجاء إلى قوة الخالق الهائلة عندما يتضح عجز كل قوة سواه..!

لقد بدأت التجربة فى مستشفى بولاية نيويورك، وهو مستشفى خاص بمرتكبى الجرائم من المصابين بالأمراض العقلية. بدأت التجربة بإدخال الدين كوسيلة جديدة للعلاج بجانب الصدمات الكهربائية لخلايا المخ، والعقاقير المسكنة

والمهدئة للأعصاب. وكانت النتيجة رائعة.. إن أولئك الذين تعذر شفاؤهم. بل فقدوا الأمل فيه انتقلوا من عالم المجانين إلى عالم العقلاء.. أولئك الذين ارتكبوا أفظع الجرائم، وهم مسلوبو الإرادة، باتوا يسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم، ويذرفون الدمع ندما، وكلهم أمل فى رحمة السماء ومغفرة الله.

واستسلم العلماء، ورفعوا أيديهم إلى السماء، يعترفون بضعفهم، ويعلنون للدنيا أن العلم يدعو إلى الإيمان، وليس أبداً إلى الإلحاد»[١].

من ثمرات التوحيد الخالص:

وإذا كان التوحيد حقيقة لا مراء فيها، توحيد ربوبية وتوحيد إلهية وتوحيد الله فى أسمائه وصفاته، مع الجزم أنه ليس كمثله شىء، فإن هذا التوحيد له ثمراته التى لا ينكرها إلا جاحد وأهم ثمراته هى:

١ - الاطمئنان وشكر الواحد الأحد المنعم:

فالواحد الذى خلق الإنسان من تراب وجعله بشرا وأمده بالسمع والبصر والأفئدة، لا ينبغى أن يناله من عبده أقل من الشكر، فشكر المنعم دليل على ثبات الإيمان، ثباتا تقر معه فى القلب كل عوامل الاطمئنان، فعندما تطمئن النفس إلى أن قدرها بيد الديان، تنصرف إليه، ولا تعتمد إلا عليه، تهون أمامها الصعاب، ولا تذل عندئذ لأعتى الرقاب، لأنها بالاطمئنان تشعر أنها بالديان أكبر من قدرات كل بنى الإنسان، فهل أطمأن الإنسان وحاول بعد هذا شكر الديان؟ كلا! وإن حدث الشكر فهو من أقل القليل، وإن حدث الشكر من الكثيرين فإنه لا يكون بالحجم الواحد وإنما يكون قليلا قليلا. قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

---

(١) سيد سابق: العقائد الإسلامية، القاهرة، الفتح للإعلام العربى، ١٩٩٢م، ص ٧٨.

العبد لا يشكر عندما يفتقر ويظن الثروة هى المال وحده من دون السمع والأبصار والأفئدة، والعبد يسخط عندما يفقد عينا أو قدما أو ذراعا، وينسى أن الله أبقى عليه نعمة العين الأخرى أو القدم الأخرى أو الذراع الأخرى، والعبد يجحد عندما يفقد كل السمع أو البصر وينسى نعمة الحياة ذاتها، وما يتمتع به الإنسان من جراء وجود باقى الأعضاء، وينسى أن من يؤخذ منه شيء يعوضه الله لا محالة فى شيء آخر.

ولنسأل أنفسنا، حتى نشكر الله مطمئنين، أفاقد البصر أم حاد البصر الذى لم يقع بصره على كلمة واحدة من كتاب الله، ولم يترك سوقا تغشاه النساء إلا وغشاه لإمتاع عينيه بما لا حق له فيه، ولم يسمع عن دار لهو إلا وخف إليها، وما إلى ذلك من أمور تعف الأقلام عنها، وقس على ذلك من يغشى بقدميه أماكن المنكرات فى أى مكان، ولا يرى غضاضة فى أن يسمع الآذان ولا يستجيب لهدى الرحمن ركوعا وسجودا يطهرانه من كل الأدران، أفهذا أفضل أمَّن لا يتمتع بقدمين ولكنه يُغبر جبهته بالسجود شكراً لله على نعمه الأخرى[1].

إن شكر الله واجب حتمى على كل موحد ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٥]. تلك هى الحقائق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. أما الابتلاء، فهو يظهر معدن الإنسان ومدى استحقاقه لنعم الديان ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

٢- عدم الركون إلى متع الحياة الدنيا:

عندما يستقر التوحيد فى الموحدين، فإنهم بهدى رب العالمين، يجدون أنفسهم، أقرب إلى نعيم الآخرة منهم إلى نعيم الدنيا، فشتان بين النعيمين: إن

---

(١) محمد شتا أبو سعد: قل هو الله أحد، الرياض، سلسلة مستقبل التشريع الإسلامى، ١٤١٢هـ، ص١٦.

نعيم الدنيا زائل، بينما نعيم الآخرة مقيم، ونعيم الدنيا قد يداخله الحرام، أما نعيم الآخرة فهو كنعيم أبدى مقيم، رزق من عند الله، وهل يرزق الحق إلا حقا وحلالا، ونعيم الدنيا يغلب عليه الطابع الحسى المحدود، فى حين أن نعيم الآخرة يتحقق فيه الجانب الحسى المطلق من خلال المتعة المعنوية والروحية والصفاء اللانهائى الذى يكون فيه الناس كالملائكة، ونعيم الدنيا منوط بالكد، ونعيم الآخرة هو ثمرة الإخلاص فى الدنيا ويأتى الإنسان بمجرد أن يخطر على باله، كذلك فإن نعيم الدنيا نعيم حطام بلا رضوان أما نعيم الآخرة فهو نعيم الحقيقة. فى دار الحيوان الأبدى، ونعيم الدنيا كحطام قد يورث العذاب فى الآخرة وليس هذا شأن نعيم الآخرة.

والعاقل يستشف ما تقدم وأكثر منه من وصف الله تعالى لمتع الدنيا بقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

لذا فإن الموحد لا يركن إلى متاع الغرور، بل يطمع فى وعد الله، ولا يغتر بمتع هذه الحياة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

ليس يكفى الموحد إذن أن يقول آمنت، ثم ينصرف بكليته إلى متع الحياة الدنيا، تفتنه حتى يصير موحدا بالاسم لا بالقلب والفؤاد، مسلما بالشكل لا بالجوهر، مؤمنا بالكلمة لا بالتقوى والعمل، وإنما يجب على صاحب عقيدة التوحيد أن يسمو إلى مستواها، عملا وإخلاصا، طاعة وامتثالا، بحثا عن الحق ونأياً عن الباطل، صدقاً لا كذباً ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

إن الدين هو السلاح الوحيد فى يد الموحد، به يشق دروب الصعاب، ويمهد به جبال المشكلات، ويرتفع به فوق مستوى المحن، إنه عاصمه من الانزلاق إلى هاوية الضلال، ومانعه من الانحراف فى سلك أهل المنكرات، فالحياة ليست بطونا تملأ، ولا ملذات تغتنم، ولا سيئات تجترح، ولا أموالا تنهب، ولا حقوقا تغتصب، ولا رياء تطول به قصار الرقاب، ولا نقاقاً تبتز به الأموال، ولا ترفا يشيع معه الفسق، ولا غيبوبة سكر أو تخدير يزيد معها الإثم، إنما الحياة عقيدة تهيمن على كيان الإنسان، فتعصمه من الخطايا والآثام، مهما كابد فى سبيل ذلك وواجهته أعاصير الباطل وأنواء الحرام، وهى عقيدة تخلق رجالا عابدين شاكرين ومؤمنين موحدين، كما قال الله تعالى فيهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:٣٧]. وكمن يستجيبون لتحذير الله تعالى فى قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وكمن لا يطغون مع الثروة لأنهم يعلمون حقيقة قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨﴾ [العلق: ٦-٨]. وكمن يثقون أن تزول الثروة بقدر إنما هو لحكمة لا يعلمها إلا الله ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

٣- التوكل على الله وابتغاء رحمته كدليل قاطع على إخلاص التوحيد:

التوحيد يجتث الخبائث من النفوس؛ فتصلح، فإن صلحت أخلصت، فإن أخلصت توكلت على الله وحده ولم تبتغ رحمة أحد سواه، لأن صلتها بالله تكون قد قامت على الحقيقة، التى يدركها كل إنسان بفطرته ناهيك عن عقله، المهدى بأنوار الرسالة المحمدية، وهذه الصلة تحرك فى الإنسان حنينه إلى خالقه ومربيه؛ فلا يفزع عند الشدائد إلا إليه، ولا يلتمس مخرجا من المحن إلا منه، أما من استكبر فله عذاب السعير ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وفزع الإنسان إلى الديان هو فزع إلى القريب المجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وهو فزع إلى من يقى الإنسان من عذاب يوم الفزع الأكبر، إنه فزع إلى القادر على كشف الضر وحده، لذا يجب أن يتسم بالاستمرار لا الوقتية، وباليقين الثابت لا بالعرضية، حتى لا يكون الإنسان ممن قال الله تعالى فيهم ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢]. وهو فزع إخلاص أساسه شكر النعمة، وجوهره الاعتراف بظلم النفس، وحقيقته التوجه إلى الله ليبعده عن القوم الظالمين، والمثال الذى يبين هذا الأساس هو دعاء إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وأما الجوهر المشار إليه فيمكن استظهاره من دعاء آدم وحواء فى قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

وللإيمان ثمرات عظيمة فى: الإخلاص، والتوكل وأمن الخوف والسكينة، والفرح برحمة الله والرضا والالتزام وهذه الأمور سيأتى تفصيلها فى الفصل الثانى بحوله تعالى.



أثر الإيمان فى حياة المسلم وسلوكه

المبحث الأول : الإيمان وشخصية المسلم.

المبحث الثانى : أثر الإيمان فى جانب العبادة، وذكر الله وتلاوة القرآن.

المبحث الثالث : أثر الإيمان فى تحقيق سعادة المسلم.

المبحث الرابع : الإيمان وحب المسلم لربه والناس.

المبحث الخامس : أثر الإيمان فى تحقيق الرضا لدى المسلم.

المبحث السادس : أثر الإيمان فى الصوم عن المعاصى.

المبحث السابع : الإيمان والشوق للكعبة المشرفة.

المبحث الثامن : الإيمان وحق الله فى المال.

المبحث التاسع : الإيمان والجانب الأخلاقى

أ- الصدق ب- أداء الأمانة

جـ- العفو د- الصبر

المبحث العاشر : الإيمان وتفكر المسلم فى ملكوت الله.

المبحث الحادى عشر : الإيمان والأمن النفسى

المبحث الثانى عشر : الإيمان والأمل لدى المسلم.

المبحث الأول
الإيمان وشخصية المسلم

١- أثر الإيمان فى سلوك المسلم:

الإيمان هو الركن الأساسى الذى بدأ الإسلام به فى تكوين شخصية المسلم، لأنه هو الجذر فى بناء شخصيته، وهو العنصر الأساسى المحرك لعواطفه والموجه لإرادته، ومتى صحت عناصر الإيمان فى الإنسان استقامت الأساسيات الكبرى لديه، وكان أطوع للاستقامة على طريق الحق والخير والرشاد، وأقدر على التحكم بأنواع سلوكه، وضبطها فيما يدفع عنه الضر والألم والمفسدة، العاجل من كل ذلك والآجل، وفيما يجلب له النفع واللذة والمصلحة العاجلة من كل ذلك والآجل، وهذا ما يتطلبه منا الإسلام والدين الحنيف.

وقد أدرك حديثاً الباحثون من غير المسلمين قيمة العقائد فى توجيه سلوك الإنسان، فبدأوا يتحدثون عنها تحت عنوان «أيديولوجيات» ولكنهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى المستوى الذى وصل إليه الإسلام، إذ هو يبنى فى الفرد المسلم إيماناً لا يضارعه ولا يشابهه أى عنصر اعتقادى «أيديولوجى» يحاولون غرسه فى نفس الفرد من أفرادهم.

إن الفرق بين العقيدة الإسلامية الصحيحة والعقائد المنحرفة التى عبثت بها أيدى البشر -سواء بالوضع أو التحريف- يكمن فى تلك الثمار اليانعة التى تثمرها العقيدة الصحيحة، وتلك الآثار الطيبة التى تحدثها فى النفس والسلوك والسمو فى الأخلاق والمعاملة، ولأن ظلمة الليل الحالك تنجلى بسطوع ضوء النهار؛ فإننا نرصد بعضا من آثار العقيدة الإسلامية الصحيحة فى شخصية المسلم، وفى تكوينه، وتفاعلاته فيما يلى:

١- العقيدة الصحيحة تحرر النفس من سيطرة الغير، وذلك أن الإيمان يقتضى الإقرار بأن الله هو المحيى المميت، الخافض الرافع، الضار النافع، كما فى قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. فالذى عوق البشرية عن النهوض وحال بينها وبين الرقى هو الخضوع والاستبداد، سواء كان الاستبداد استبداداً سياسياً للحكام والرؤساء، أم استبداداً كهنوتياً لرجال الدين والكهنوت. وبتقرير الإسلام لهذه الحقيقة، قضى على هذا الأسر، وأطلق حرية الإنسان من سيطرة هؤلاء المستبدين التى لازمته قروناً طوالاً[١].

٢- الإيمان يقتضى الاعتقاد بأن الله هو الرازق، وأن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، ويدل على هذا قوله تعالى ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

وإذا سيطرت هذه العقيدة على النفس تخلص الإنسان من رذيلة البخل والحرص والشره، والطمع، واتصف بفضيلة الجود والبذل والسخاء والأنفة، وكان إنسانا مأمول الخير والفضائل مأمول الشر والرذائل.

٣- ومن آثار الإيمان العظيمة الطمأنينة: أى طمأنينة القلب، وسكينة النفس، ومصداق ذلك فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. وقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وإذا اطمأن القلب، وسكنت النفس، شعر الإنسان ببرد الراحة، وحلاوة

---

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق، ٨٤-٨٥ وما بعدهما.

اليقين، واحتمل الأهوال، وثبت إزاء الخطوب مهما اشتدت، ورأى أن يد الله ممدودة إليه، وإنه القادر على فتح الأبواب المغلقة، فلا يتسرب إليه الجزع، ولايعرف اليأس إلى قلبه سبيلا.

٤- والإيمان بالله يرفع من قوى الإنسان المعنوية، ويربطه بمثل أعلى، وهو الله جل جلاله - مصدر الخير والبر والكمال. وبهذا يسمو الإنسان عن الماديات، ويرتفع عن الشهوات، ويستكبر على لذائذ الدنيا، ويرى أن الخير والسعادة فى النزاهة والشرف وتحقيق القيم الصالحة.. ومن ثم يتجه المرء اتجاها تلقائيا لخير نفسه، ولخير أمته، ولخير الناس جميعا. وهذا هو السر فى اقتران العمل الصالح بجميع شعبه وفروعه بالإيمان إذ أنه الأصل الذى تصدر عنه، وتتفرع منه، ويتمثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. وإذا اهتدى القلب، فلا يفوته خير لحرصه عليه ولصلاح الأصل المحرك لجوارح الإنسان.

٥- والحياة الطيبة يعجل الله بها للمؤمنين فى الدنيا قبل الآخرة. وتتمثل هذه الحياة فى ولاية الله للمؤمن، وهدايته له، ونصره على أعدائه، وحفظه مما يبيت له، وأخذه بيده كلما عثر أو زلت قدم، فضلا عما يفيضه عليه من متاع مادى، يكون عونا له على قطع مرحلة الحياة فى يسر فقد قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]. وقال عز من قائل:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].
وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

٢- آثار الإقرار بلا إله إلا الله:

ذكر الداعية أبو الأعلى المودودى[١] -رحمه الله- تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلى:

١- إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر، بخلاف من يقول بآلهة متعددة أو من يجحده.

٢- إن الإيمان بهذه الكلمة ينشىء فى النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شىء، لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله، وهو المحى المميت، وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة، ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه، فلا يطأطىء الرأس أمام أحد من الخلق، ولا يتضرع إليه ولا يتكفف له، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته لأن الله هو العظيم القادر وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

٣- ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها: تواضع من غير ذل وترفع من غير كبر فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذى وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء، أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة.

٤- المؤمن بهذه الكلمة: يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أمانى كاذبة، فمنهم من يقول: إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا،

(١) أبو الأعلى المودودى: مبادىء الإسلام، الناشر مؤسسة الرسالة، سنة ١٣٩٧هـ، ص ٨٠-٨٧.

ومنهم من يقول: «إنا سنتشفع عند الله كبرائنا وأتقيائنا، ومنهم من يقدم النذور والقرابين إلى آلهته زاعماً أنه قد نال بذلك رخصة فى العمل بما يشاء.

أما الملحد الذى لا يؤمن بالله فيعتقد أنه حر فى هذه الدنيا غير مقيد بشرع الله، إنما آلهه هواه وشهوته هو عبدها.

٥- قائل هذه الكلمة لا يتسرب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط، لأنه يؤمن أن الله له خزائن السماوات والأرض، ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمل حتى ولو طرد وأهين وضاقت عليه سبل العيش.

إن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه لنفسه، وهو يبذل جهده متوكلاً على الله بخلاف الكفار الذين يعتمدون على قواهم المحدودة، وسرعان ما يدب إليهم اليأس ويساورهم القنوط عند الشدائد مما يقضى بهم أحياناً إلى الانتحار.

٦- الإيمان بهذه الكلمة يربى على قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالى الأمور ابتغاء مرضاة الله، إنه يشعر أنه وراء قوة مالك السماوات والأرض فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التى يستمدها من هذا التصور، كالجبال الراسية، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات؟

٧- هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة، لأن الذى يجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان: حبه للنفس والمال والأهل، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الإنسان، فإيمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلبه كلا هذين السببين، فيجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعندئذ يضحى فى سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده، وينزع الثانى بأن يلقى فى روعه أن لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولاقنبلة ولامدفع ولا سيف ولا حجر وغنما يقدر على ذلك الله وحده.

ومن أجل ذلك لا يكون فى الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله، فلا يكاد يخيفه أو يثبت فى وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطر الرصاصات والقنابل بعكس المشركين والكفار والمنافقين الذين لا يقاتلون إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر.

٨- الإيمان بلا إله إلا الله يرفع الإنسان وينشىء فيه الترفع والقناعة والاستغناء ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

٩- وأهم شيء وأجدره في هذا الصدد، أن الإيمان بلا إله إلا الله، يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله ومحافظاً عليه، فإن المؤمن يعتقد بيقين أن الله خبير بكل شيء وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أي كائن، فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله عز وجل.

وعلى قدر ما يكون الإيمان راسخاً في قلب الإنسان، يكون متبعاً لأحكام الله قائماً عند حدوده، لا يجرؤ على اقتراف ما حرم الله، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله.

ومن أجل جعل «لا إله إلا الله» أول ركن وأهم ليكون الإنسان مسلماً والمسلم هو العبد المطيع المنقاد لله تعالى، ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا الله، وهذا هو أصل الإسلام، ومصدر قوته، وكل ما عداه من معتقدات الإسلام إنما مبنية عليه ولا تستمد قوتها إلا منه. والإسلام لا يبقى منه شيء لو زال هذا الأساس[١].

٣- أثر الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين:

«لما كان أصل الموالاة الحب وأصل المعادة البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعادة كالنصرة والأنس والمعاونة وكالجهاد والهجرة ونحو ذلك»[٢]، فإن الولاء والبراء من لوازم الإيمان بالله والعمل بمقتضاه، وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة.

---

(١) انظر مبادىء الإسلام، ٨٧.

(٢) عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، الرسائل المفيدة، ص ٢٩٦- تصحيح عبدالرحمن الرويشد، طبع سنة ١٣٩٨ هـ، بدار العلوم بمصر.

أما الكتاب فمنه قوله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ويقول عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

وقوله تباركت أسماؤه عن أهداف أعداء الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]. ويقول جل وعلى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

أما الأحاديث والآثار فكثيرة نذكر منها:

١- ما رواه الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلى أن رسول الله ﷺ بايعه على أن ينصح لكل مسلم ويبرأ من أى كافر.

٢- وقال ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله».

٣- وروى الطبرانى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله، والمعاداة فى الله، والحب فى الله، والبغض فى الله»[١].

٤- وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزى عن ابن عباس -رضى الله عنهم- قال: «من أحب فى الله وأبغض فى الله وإلى الله وعادى فى الله،

---

(١) المسند للإمام أحمد، جـ٤، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ، الناشر، المكتب الإسلامى بدمشق، ص ٣٥٧.

فإنما ينال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً»[(١)].

٥- وفى شرح قول ابن عباس جاء ما يلى: (قوله «ووالى فى الله» فيه بيان لازم المحبة فى الله، وهو الموالاة فيه، إشارة إلى أنه لا يكفى فى ذلك مجرد الحب، بل لابد مع ذلك فى الموالاة التى هى لازم الحب، وهى النصرة والإكرام، والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً، وقوله «وعادى فى الله» فيه بيان لازم البغض فى الله، وهو المعاداة فيه، أى اظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله والبراءة منهم، والبعد عنهم باطناً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفى مجرد بغض القلب، بل لابد من الإتيان بلازمه، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [الممتحنة: ٤]

فالولاء لله تعالى هو محبة الله ونصرة دينه، ومحبة أولياؤه ونصرتهم، والبراء بغض أعداء الله ومجاهدتهم، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥]. ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]. وحب الله تعالى لعبد من عبيده فيه علاقة الرحمة والعدل والود، وهذا أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من عرف الله سبحانه وتعالى بصفاته كما وصف نفسه وكما وصفه به رسول الله ﷺ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات فى حسه ونفسه وشعوره.

---

(١) انظر سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، طبعة إدارة البحوث العلمية بالرياض (د.ن)، ص ٤٢٢.

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاق حلاوتها، وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً هائلاً عظيماً وفضلاً غامراً جزيلاً، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه، وتعريفه المذاق الجميل هو إنعام عظيم[١].

أما البغض فى الله فأمر ملازم للحب فى الله، لا ينفصل عنه، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالى من يوالى محبوبه، ويعادى من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما نهى عنه، فهو موافق له فى ذلك.

فالولاء لله بهذا المعنى يعنى الانقياد التام لأوامره ونواهيه، ومن أمثلة ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بينما أنا أدير الكأس على أبى طلحة وأبى عبيدة بن الجراح، وأبى دجانة، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، فسمعت منادياً ينادى ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فما دخل علينا داخل، ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، فإذا برسول الله ﷺ يقرأ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ..**﴾[المائدة: ٩٠] إلى قوله: ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾، فقال رجل يا رسول الله فما ترى فيمن مات وهو يشربها، فأنزل الله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا**﴾ [المائدة:٩٣]. فقال رجل لأنس بن مالك أأنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم أوحدثنى من لا يكذب. ما كنا نكذب ولا ندرى ما الكذب[٢].

ونجحت توجيهات القرآن، وتربية الرسول فانقادوا للأمر فى يسر وقناعة تامة وما تكونت عصابات التهريب، ولا لجأت الدولة إلى أحكام الإعدام والسجن ومصادرة الأموال ولا إلى مجلات ومحاضرات وصور وسينما... إلخ.

وكذلك فعلن النساء، فعن صفية بنت شيبة قال: بينما نحن عند عائشة قال: فذكرنا نساء قريش وفضلهن. فقالت عائشة، إن لنساء قريش لفضلا، وإنى والله

---

(١) فى ظلال القرآن، جـ٢، ص ص ١٩٨-٩١٩.

(٢) تفسير القرآن الكريم، جـ٢، ص ص ٩٢-٩٣.

ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل لما نزلت سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ انقلبت رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم منها، يتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته، فما فيهن امرأة إلا قامت إلى مرطها فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله، فأصبحن وراء رسول الله -كأن على رؤوسهن الغربان[١].

أما الولاء لرسول الله ﷺ، فيكون فى متابعته فعلاً وقولاً وتقريراً والانصياع لأمره كائناً ما كان أمره أو نهيه، والنزول لحكمه، لأن طاعته ﷺ من طاعة الله سبحانه وتعالى وولائه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقد التزم الرعيل الأول من سلف هذه الأمة، بكل أمر أتاهم الرسول ﷺ فكانوا يمثلون النموذج الصادق الحى هؤلاء، فمن ذلك أن اليهود لعنهم الله، حاولوا الوقيعة بين أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أجمع الأوس والخزرج مجلس واحد يتحدثون فغاظ أحد اليهود ما رآه من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد ذلك الذى كان بينهم من العداوة والجاهلية، فأمر هذا اليهودى شاباً يهودياً، فقال له: اعمد إليهم، فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث وماكان قبله، وأنشدهم بعض ما تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بعاث اقتتلت فيه الأوس والخزرج، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا، وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: موعدكم الظاهرة[٢]: السلاح.. السلاح. وخرجوا إليها، فبلغ رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين: الله، الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عندكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً[٣]، فأنزل الله تعالى

---

(١) المصدر السابق، جـ٣، ص ٢٨٤.

(٢) الظاهرة: الحرة- حرة المدينة.

(٣) السيرة النبوية الجزء الثانى، ص ١٩٢.

فيهم قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

فهذه الواقعة تدلنا أن محبة الرسول ﷺ تقتضى بالتبعية اتباع سنته ﷺ واتباع شريعته باطناً وظاهراً والامتثال بكل أمر ونهى يصدر منه ﷺ.

أما الولاء للمؤمنين، فيكون على مقتضى الآية التالية: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. أى إنهم يعاملون المؤمنين بالذلة واللين وخفض الجناح، ويعاملون الكافرين بالعزة والشدة عليهم، والغلظة لهم، فهم يحبون من أحبه الله فيعاملونه بالمحبة والرأفة واللين ويبغضون أعداء الله الذين يعادونه فيعاملون بالشدة والغلظة كما فى قوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن هنا فإن مقتضيات الولاء والبراء: حق المسلم على المسلم، وحقوق المسلم على المسلم كثيرة جداً: النصرة والمودة والزيارة والإكرام والسلام وحماية العرض والمواساة، وغير ذلك مما هو منصوص فى الكتاب والسنة ومن هذه الحقوق:

(أ) **المودة:** وهذه للمؤمنين من بعضهم البعض فليْس للكافر، ولا الفاسق ولاالمبتدع فيها نصيب ومن هذه المودة حب المسلم أخيه المسلم ما يحب لنفسه كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

(ب) **النصرة:** وهذا واجب أخوى إيمانى على كل مسلم لأخيه المسلم من أى جنس كان وفى أى أرض حل، وبأى لون كان، ينصره بنفسه، وبماله، عن عرضه، ولذلك ورد التهديد لمن يترك ذلك وهو قادر عليه، قال ﷺ: «ما من امرىء يخذل امرأ مسلماً فى موضع حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه، جـ١، ص ٥٧ كتاب الإيمان.

موطن يحب فيه نصرته، وما من امرىء ينصر مسلماً فى موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب نصرته»[١].

وقد امتدح الله سبحانه وتعالى الأنصار رضوان الله عليهم فى نصرتهم لإخوانهم المهاجرين فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤].

ومن الأوامر النبوية فى شأن النصرة فى قوله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[٢]، ونصرته إذا كان مظلوماً ظاهرة، أما نصرته إذا كان ظالماً فبردعه عن الظلم ومنعه، وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربه من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[٣].

والمسلم داخل المجتمع ما هو إلا عضو عامل من أعضاء الجسد، فإذا حصل لهذا العضو مرض أو اختل عمله تأثر لذلك بقية الجسد، ويصور ذلك المصطفى ﷺ فى قوله الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[٤]، وقوله ﷺ: «المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه»[٥].

ولقد كان التحام المسلمين ونصرة كل منهم لأخيه امتثالاً فريداً فى تاريخ التلاحم والتواصل والتناصر سواء على مستوى الأمة أم الأفراد، حيث حققوا الموالاة والمعاداة على أوضح وأدق صورها.

---

(١) سنن أبو داود ج ٥/ ١٩٧، والمسند ج ٤/ ٣٠.
(٢) رواه البخارى فى صحيحه، جـ٥/ ٩٨، كتاب الظالم.
(٣) رواه البخارى فى صحيحه، جـ٥/ ٩٨، كتاب الظالم.
(٤) رواه البخارى فى صحيحه، جـ ١٠/ ٤٥٠، كتاب الأدب.
(٥) رواه البخارى فى الأدب المفرد، ص ٧٠.

ولن ينتصر المسلمون ولن تكون لهم شوكة إلا إذا تحقق فيهم - بعد صفاء العقيدة ووضوحها- حب المسلم لأخيه كحبة لنفسه، وشعوره بآلام أخيه كشعوره بما يصيبه هو، وحب نصرته كما يحب أن ينصره هو: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤].

وتحقق النصرة بعدة أمور منها: الدفاع بالنفس عن الأخ، وكسر شوكة الظالمين وبذل المال له لإعزازه وتقوية جانبه، عن عرضه وسمعته، والرد على أهل الباطل والظالمين الذين يريدون خدش كرامة المسلمين، والدعاء للمسلم بظاهر الغيب بالنصر والتوفيق وتسديد الخطى وتتبع أخبار المسلمين فى أنحاء المعمورة، والوقوف على أحوالهم ودعمهم بقدر الاستطاعة.

كل هذه الأمور تحقق ولاءه لإخوانه المسلمين وتجعله عضواً عاملاً صالحاً فى جسم الكيان الإسلامى.

المبحث الثانى
أثر الإيمان فى جانب العبادة
وذكر الله وتلاوة القرآن الكريم

١- الإيمان والصلاة:

حين يؤمن المسلم بربه فلا بد من صلة بينه وبينه؛ تربط المخلوق بخالقه وتملأ قلبه بالطمأنينة، واليقين، فيحس بأنه ليس وحده فى هذه الدنيا، بل إن معه واهب القوة والقدرة، وقيوم السماوات والأرض.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

والمسلم يعبد ربه ويتقرب إليه بمنهج دقيق، لا تطغى فيه الدنيا على الآخرة، ولا يغيب فيه عن الدنيا، وذلك من إعجاز الإسلام، وصدق نظرته للحياة.

والصلاة هى الوسيلة المثلى التى فرضها الإسلام ليصل المخلوق بخالقه خمس مرات فى كل يوم وليلة، فيشعر برقابته عليه، ويجدد معه العهد ويستمد منه العون، ويؤكد له الإنابة والخضوع: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد بين القرآن أن الصلاة صفة من صفات المؤمنين، وسمة لابد منها فى شخصية المسلم.

فالمؤمنون هم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [البقرة: ٣]. وهم: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ [الحج: ٤١].

وقد أمر الله المؤمنين جميعاً بإقامة الصلاة والحرص عليها: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١].

بل إن القرآن قد حث الرسول ﷺ على إقامة الصلاة والصبر عليها، وإلزام أهله بها.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

فهل يجد المسلم مناصاً من إقامة الصلاة أو عذراً فى إضاعتها؟!

والمسلم يعلم أن الصلاة ليست مجرد أقوال وأفعال تؤدى بلا وعى ولا تدبر، بل إن لها هدفاً لابد أن يدركه المصلى حتى يستفيد من الصلاة ويصل إلى الغاية منها، وحتى تنتقل إلى عالم الشعور وتصبح منهجاً من مناهج التربية.

فالقرآن يبين أن الصلاة التى تؤدى على وجهها الصحيح، من سلامة الأركان، ومن خشوع القلب، ومن التدبر فيما يناجى به المصلى ربه، لابد أن يصل بصاحبها إلى كرم الخلق، وطهارة النفس، فينتهى عن المعصية ويبتعد عن الفساد، وينشأ فى نفسه وازع يربطه بالحق، ويبتعد به عن الباطل.

يقول الله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

إن الصلاة فى حقيقتها وسيلة من وسائل التربية الإسلامية التى تغرس فى قلب المسلم حقيقة الإيمان، وتؤسس فيه الشعور الصادق برقابة الله عليه، وتعوده على طاعة أمره، وامتثال حكمه، والمبادرة إلى فرائضه.

والمسلم يكتسب منها ثبات العقيدة وطمأنينة القلب، والقوة فى مواجهة أحداث الحياة.

فالإنسان بطبعه يجزع حين يمسه البأس، فينهزم ويغشاه اليأس، وتغمره الكآبه. كما أنه بطبعه يتبطر ويفخر إذا مسه الخير، وأحاطت به النعماء فيطغى، وينسى حق الضعفاء.

ولكن المسلم الذى يقيم الصلاة على حقيقتها، ويتدبر معانيها، ويكتسب من صلاته سلامة القلب، وثبات المشاعر، فلا يتقلب إحساسه مع تقلب الأيام بين الخير والشر.

بل يقابل الشدائد بوجه باسم وقلب مطمئن، يعلم أن الله -سبحانه وتعالى- هو الذى يغير ويبدل. وأن قدرته على الحياة بعلمه وحكمه. كما يعرف حق الله والعباد عليه حتى يأتيه الخير وتغمره النعم.

﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٣].

إنها وسيلة مهمة يستعين بها المسلم فى مواجهة المصاعب، وعلى الصبر والثبات فى كفاحه فى دنياه، فيستمد من ربه العون، ويستلهم الثقة والطمأنينة:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وهى كذلك تطهر المسلم من الخطايا والهفوات التى لا يتحرز منها بشر، فيظل دائماً طاهر القلب برىء المشاعر حى الضمير.

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شىء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شىء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا»(١).

فالصلاة سمة من سمات المسلم، ومدرسة دائمة لايزال يتعلم منها حقائق الإيمان ويصل بها إلى أعلى درجات اليقين، فهى ميزان إسلامه وطريق نجاته.

كما يقول رسول الله ﷺ: «ومن يحافظ عليهن -أى الصلوات الخمس- عاش بخير، ومات بخير- وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه»(٢).

والحق، أن الصلاة لا تكلف المسلم إلا لحظات قليلة من وقته، فى فترات متباعدة فى اليوم والليلة، فإن لم يحرص عليها المسلم مع سهولة تكاليفها، ويسر القيام بها، فلن يحرص على ما سواها من واجبات الإسلام وفرائضه. ولذلك قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «يا معاذ إن أهم أمرك عندى الصلاة».

---

(١) رواه الخمسة إلا أبا داوود.

(٢) رواه أبو داوود.

وكان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يقول لحكام الأمصار: «إن أهم أموركم عندى الصلاة، فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة».

فالحفاظ على الصلاة ورعايتها مقياس لصدق الإيمان يثمر ثمرته، ويعمل عمله، فى تثبيت العقيدة، وتوجيه السلوك.

والمسلم الحق حين يؤدى الصلاة ورعايتها مقياس لصدق الإيمان يثمر ثمرته، ويعمل عمله، فى تثبيت العقيدة، وتوجيه السلوك.

والعجيب أن بعض الناس -فى عصرنا- يهونون من شأن الصلاة والعبادة عامة، ويزعمون أن لا نفع لها فى الحياة، ولا أثر لها فى تقويم السلوك، ناظرين فى ذلك إلى الذين يراءون فى العبادة فلا يرفعون بها رأساً، ولايصلحون عملاً، وليست هذه حجة يقنع بها العقل، أو يستقيم بها المنطق، فإن القرآن قد نهى المصلين عن الغفلة عن معانى الصلاة وحذرهم من الجهل بحقائقها، ونسيان دروسها حتى لا يصيبهم عقاب الغافلين: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤-٧].

فليس الانحراف عن الحق حجة فى تركه، ولا شذوذ البعض داعياً لأن يعم الشذوذ. وليست أعمال الجاهلين حجة على هذا الدين.

أما المسلم الحق، فإنه يعرف طريق الرشاد ويتخذ إلى ربه سبيلاً، ويجعل من الصلاة معراجاً يرتقى به إلى آفاق الكمال، ويتطهر به من الأرجاس، والأدناس وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها، وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله»[1].

---

(١) رواه مسلم.

٢- الإيمان وذكر الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١].

إن إيمان المسلم، وصدق يقينه، يجعله يذكر ربه فى كل وقت، ويراه فى كل شىء.. فى مشاهد الطبيعة، وفى أحداث الحياة، فيأنس به، ويثق فى قدرته، ويأوى إلى ظلال فضله ورحمته. ومثله الأعلى فى ذلك النبى الكريم الذى: «كان يذكر الله على كل أحيانه»(١).

وليست حقيقة الذكر باللسان، بل لابد أن ينشأ أولاً فى الشعور والوجدان ثم يفيض على اللسان، مناجاة وحمداً، وتسبيحاً وتنزيهاً، فحينئذ يكون المسلم من الذاكرين حقاً الذين أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً».

والمسلم الذى يذكر ربه؛ يذكره ربه، كما يقول الله عز وجل فى حديث قدسى: «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه»(٢).

فما أعظم هذا الذى يذكر ربه، ويرعاه.

والمسلم الذى يذكر ربه يناجيه بقلبه، ويملأ فؤاده بحبه، ويستضىء بنوره، ولهذا فإن الذكر حياة للقلب ونور، والغفلة عنه موت وظلام، لأن الذى يغفل عن ربه ينسى حقيقة الوجود، ويجهل سر الحياة.

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ: «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه مثل الحى والميت»(٣)، وهو تصوير صادق لما ينشئه ذكر الله سبحانه فى نفس المسلم من قوة وحياة، وما يمده به من زاد، وما يفتحه أمامه من آفاق الإيمان والعمل.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الشيخان.
(٣) رواه البخارى.

ولهذا لا ينبغى للمسلم أن ينسى ربه أو يغفل عنه، وإلا فماذا يذكر إن نسى ربه، وبماذا يشتغل إن غفل عنه؟

إنه يعلم أن لا شىء يشغل الإنسان عن ربه إلا الباطل، واللهو، والضلال، والانحراف. ﴿**وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨]

وذكر الله سبحانه وتعالى سمة المسلم فرداً أو جماعة، فإذا اجتمع قوم فغفلوا عن ذكر ربهم، وشغلوا بالباطل واللغو، فإنهم يكتسبون إثماً، ويستوجب عقاباً، كما يقول صلوات الله عليه وسلامة: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تره -أى ذنب- فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم»[١]. وهذا دليل على تأكد الذكر، وضرورته لصدق الإيمان، وتهذيب السلوك.

والدعاء ذكر، بل إن الدعاء هو العبادة، كما قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[٢]، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر: ٦٠][٣].

فما أعظم أن يقف العبد يسأل ربه ويلجأ إليه ويتطلع إلى خزائن نعمته، إنه يعرف أن الله وحده هو الذى يملك الاستجابة، ويملك العطاء.

﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٦].

إن الدعاء يقف اللسان أمام ربه، ويشعره بصفته به وإحاطته بشأنه، ولهذا فهو أفضل العبادة والذكر.

---

(١) رواه الترمذى.
(٢) رواه الترمذى وأبو داوود.
(٣) داخرين: أذلاء منقادين.

يقول الرسول ﷺ : «ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء»[١].

إن مقاليد الأمور بيد الله وحده، فلماذا لا يهرع إليه العباد طالبين راغبين، وهو -سبحانه وتعالى- لايرد أحدا، ولا يخيب سائلا.

يقول رسول الله صلوات الله عليه: «سلوا من فضله، فإن الله -عز وجل- يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج»[٢].

والاستغفار فى حقيقته ذكر، فالمستغفر قد عرف أن له رباً يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، فجاء يطلب الصفح، ويقدم الإنابة، ويعاهده على أن لا يعود.

ولهذا فإن ربه يتوب عليه، ويغفر له، ويتجاوز عن أخطائه، كما يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦]

وقد كان رسول الله صلوات الله عليه يعلم المسلمين كيف يستغفرون ربهم، وكيف يقفون ببابه خاشعين: «فكان يستغفر الله، ويتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[٣]، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر!.

إن الله سبحانه وتعالى يدعو عباده أن يسألوه العفو، ويطلبوا منه المغفرة، وتلك غاية الرحمة، والفضل، والإحسان. يقول عز وجل فى حديث قدسى: «يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفرونى أغفر لكم»[٤].

---

(١) رواه الترمذى وأحمد الحاكم.

(٢) رواه الترمذى.

(٣) رواه البخارى.

(٤) رواه مسلم.

على هذه الثلاثة تقوم صلة المسلم بربه؛ يذكره بالقول والعمل، وبالشعور والوجدان، ويدعوه فى كل وقت، ويفزع إليه إن أحاطت به المكاره، وأحدقت به المشكلات.

ويستغفره إن زل وأخطأ، فيحظى بالمغفرة، وينال الرضوان، فما أقدسها من صلة، وما أكرمها من علاقة عبد ومولاه.

٣- الإيمان وتلاوة القرآن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]

إن المسلم يعلم أن كتاب الله -عز وجل- هو روح الهداية فى هذه الدنيا، وهو نقطة التحول فى تاريخ البشرية، فلابد أن يكون وثيق الصلة به، يعيش معه ولا يسأم من ترديد النظر فيه، فهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم.

والقرآن كتاب الله الكريم، الذى أنزله على محمد صلوات الله وسلامه عليه رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ٢].

وقد جمع الله فيه من أصول الخير، ومناهج الهدى، ما يصلح الحياة، ويرسى فى الأرض دعائم الطمأنينة والسلام: **﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾** [الإسراء: ٩]

والمسلم يعلم أن للقرآن مهمة يؤديها للفرد والمجتمع، فهو يرشد إلى نظام كامل، ومنهج للحياة فريد، وهو علاج حقيقى لأمراض الإنسان، ومشكلاته، وإستجابة صادقة لنوازعه وحاجاته الأصيلة، فلا يعلم الإنسان، ولا يرسم طريقه المستقيم إلا من خلقه وهداه: **﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾** [الإسراء: ٨٢].

وهو دستور الإسلام وأساسه الأول، الذى يجمع أحكامه ويبين عقائده ويحدد شريعته، ويوجه إلى آدابه وفضائله. فما أعظمه من كتاب! وما أعظم أثره فى حياة الفرد والمجتمع على السواء؟

ولهذا كانت تلاوة القرآن وتدبر معانيه، عبادة مفروضة على كل مسلم بقدر محدد فى كل صلاة، حتى لا ينقطع المسلم عن مورد الهداية، ولا يعزب عن مصدر الإيمان. وباب التطوع بعد ذلك مفتوح بلا حد لمن شاء أن يستزيد.

وقد رغبت آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ فى تلاوة القرآن والاهتداء بهداه. يقول رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن واستظهره؛ فأحل حلاله وحرم حرامه، أدخله الله الجنة، وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم وجبت له النار»[1].

وهو يعلم أن إيمانه لا ينضج، ونفسه لا تزهر وروحه لا تضيء إلا إذا كان صاحب القرآن يتلوه ويتفهمه فحينئذ تفوح منه رائحة الإيمان، وتتضح آداب القرآن فى قوله وعمله، وتبدو ثمرات القرآن فى نهجه وسلوكه.

إنه حينئذ طيب الظاهر والباطن، كما يقول رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذى لايقرأ القرآن مثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو»[2].

وليست تلاوة القرآن مجرد عبادة لا ثمرة لها فى الحياة، بل إن توجيه القرآن للمسلم فى شئون الحياة وتصويره لحقائق الوجود وبيانه لحقيقة الصلة بين العباد. كل ذلك فى سعيه، فلا يعيش على هامش الدنيا، ولا يسير معصوب العينين ضالاً عن الهدى، بل يحيا مؤثراً فى الحياة، مصلحاً فى المجتمع، لا يعرف الذلة، ولا يألف الهوان..!!.

---

(١) رواه الترمذى.
(٢) رواه الخمسة.

ومن هنا كان تعلم القرآن فى ذاته ربحا يفضل كل ربح مادى، وكسبا لايعادله كسب، فهو علم يهدى إلى العمل، وتوجيه إلى أقوم طريق.

وقد بين الرسول ﷺ أن تعلم القرآن يعود على المسلم بثمرات تفضل كل عرض من أعراض الدنيا، فقال لأصحابه: «فلأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله -عز وجل- خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»(١).

ومن هنا فلا ينبغى للمسلم أن يتهاون فى صلته بالقرآن فينساه أو يهجره، فالقرآن هو الدستور الذى يجمع حقائق الإسلام فإذا انقطعت صلة المسلم به،فإن نبع الإيمان يجف فى نفسه، فتذوى نضارته، ويذهب بهاؤه.

ولهذا قال الرسول ﷺ: «إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب»(٢).

ونسيان القرآن إثم عظيم، لا ينبغى أن يقع مسلم فيه، وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه: «عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أؤتيها رجل ثم نسيها»(٣).

فما أعظم شأن القرآن! وما أجدر بالعناية والحفاظ!. فكيف يتلو المسلم كتاب ربه حق تلاوته؟.

إنه يعلم أن غاية التلاوة هى اتصال القلب بنور القرآن ووقوف العقل أمام ما تحويه آياته من حق وهدى، فهى عبادة تحتاج إلى قلب سليم، وعقل مستقيم. وليست العبرة بكثرة التلاوة، بل إن العبرة بالتأمل والتدبر واستجلاء منابع الهداية، من آيات القرآن الكريم.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذى.

(٣) رواه الترمذى وأبو داوود.

ومن هنا فإن المسلم يتلو القرآن الكريم، خاشع القلب، حاضر اللب، عارفا بقدره، مستحضراً لجلاله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وهو لا يجعل القرآن ألحانا ونغمات لا معنى لها، ولا حقيقة من ورائها، بل ينزهه عن اللغو واللهو.

إن ذلك اللهو إثم عظيم، ينافى جلال القرآن، ويحجب نوره، لأن القلب إذا لم يكن مصغياً إلى هداية القرآن فلا جدوى من تلاوته، كما يقول الرسول ﷺ: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليكم قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»[1].

إنه كتاب الله، ودستور الحياة، لا يتخذه المسلم مهجوراً ولا يلهو بتلاوته ولا يغفل عن حقائقه، كيف وقد كانت تحنو له القلوب، وتعن له الجباه[2]، إلى حد أن كان يبكى عند سماعه رسول الله ﷺ !.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ : «إقرأ علىّ قلت: « أ أقرأ عليك، وعليك أنزل يا رسول الله، قال: «إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى»، قال فقرأت سورة النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «كف أو أمسك، فرأيت عينيه تذرفان ».

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) تعن له الجباه: تخضع له.

المبحث الثالث
أثر الإيمان فى تحقيق سعادة المسلم

السعادة هى جنة الأحلام التى ينشدها كل البشر، من الفيلسوف فى قمة تفكيره وتجريده، إلى العامى فى قاع سذاجته وبساطته، من الملك فى قصره المشيد، إلى الصعلوك فى كوخه الصغير، ولا نحسب أحدا يبحث عن الشقاء لنفسه، أو يرضى بتعاستها.

وكثرة المال ليست هى السعادة، ولا العنصر الأول فى تحقيقها، بل ربما كانت كثرة المال أحيانا وبالا على صاحبها فى الدنيا قبل الآخرة، لذا قال الله فى شأن قوم من المنافقين ﴿**فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [التوبة: ٥٥]، والعذاب هنا هو المشقة، والنصب والألم والهم والسقم، فهو عذاب دنيوى حاضر، على نحو ما ورد فى الحديث «السفر قطعة من العذاب» وهذا ما نشاهده بأعيننا فى كل من جعل المال والدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، ومنتهى أمله، فهو دائما معذب النفس، متعب القلب، مثقل الروح، لايغنيه قليل، ولا يشبعه كثير.

وفى الحديث الذى رواه أنس عن النبى ﷺ تصوير لهذه النفسية المعذبة فقال: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[١].

ومن أبلغ العذاب فى الدنيا -كما قال ابن القيم[٢]- تشتيت الشمل وتفريق القلب، وكون الفقر نصب عينيه لا يفارقه ولا سكرة عشاق الدنيا، بحبها

---

(١) رواه الترمذى من حديث أنس، وروى ابن ماجه وغيره قريبا منه من حديث زيد بن ثابت.

(٢) ابن القيم «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، مكتبة السنة المحمدية، ص ٢٦.

لاستغاثوا من هذا العذاب؛ على أن أكثرهم لايزال يشكو ويصرخ منه، ومن أنواع العذاب، عذاب القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه، ومناساة معاداتهم، كما قال بعض السلف: «من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب» ومحب الدنيا لا ينفك عن ثلاث: هم لازم، وتعب دائم، وحسرة لاتنقضى، وذلك أن محبها لا ينال منها شيئا إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه كما فى الحديث: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا». وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شربا ازداد عطشا.

ولا تتحقق السعادة فى الأولاد:

حقيقة إن الأولاد زهرة الحياة، وزينة الدنيا، ولكن كم من أولاد جروا على آبائهم الويل، وجزوهم بالعقوق والكفران بدل البر والإحسان، بل كم من آباء ذاقوا حتفهم على يد أولادهم طمعا فى ثرواتهم، أو لوقوفهم فى سبيل شهواتهم.

لقد وجدنا من الآباء من يقول لولده آسفا:

غدوتك مولودا وعلتك يافعا — تعل بما أسدى إليه وتنهل
إذ ليلة نابتك بالشجو لم أبت — لشكواك إلا ساهرا أتململ
فلما بلغت السن والغاية التى — إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة — كأنك أنت المنعم المتفضل

وكم رأينا فى الحياة صوراً غريبة، وسمعنا أحاديث أغرب عن عقوق الأبناء وتعاسة الآباء، وهذا ما جعل الآباء ما برحوا على مر العصور، ينشدون شعرهم حنقا من جحود أبنائهم.

السعادة الحقة فى داخل الإنسان:

السعادة إذاً ليست فى وفرة المال، ولا سطوة الجاه ولا كثرة الولد، ولا نيل المنفعة ولا فى العلم المادى.

السعادة شيء معنوى لا يرى بالعين ولا يقاس بالكم، ولا تحتويه الخزائن، ولا يشترى بالدينار، أو الجنيه أو الروبل أو الدولار. السعادة شيء يشعر به بين جوانحه.. صفاء نفس وطمأنينة قلب، وانشراح صدر، وراحة ضمير. السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه.

حدثوا أن زوجاً غاضب قال لزوجته متوعداً: لأشقينك. فقالت الزوجة فى هدوء لا تستطيع أن تشقينى، كما لا تملك أن تسعدنى.

فقال الزوج فى حنق: وكيف لا أستطيع؟

فقالت الزوجة فى ثقة لو كانت السعادة فى راتب لقطعته عنى، أو زينة من الحلى والحلل لحرمتنى منها، ولكنها فى شيء لا تملكه أنت ولا الناس أجمعون!

فقال الزوج فى دهشة: وما هو؟

فقالت الزوجة فى يقين: إنى أجد سعادتى فى إيمانى، وإيمانى فى قلبى، وقلبى لا سلطان لأحد عليه غير ربى!.

هذه هى السعادة الحقة، السعادة التى لا يملك بشر أن يعطيها، ولا يملك أن ينتزعها ممن أوتيها، السعادة التى شعر بنشوتها أحد المؤمنين الصالحين فقال: إننا نعيش فى سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف.

وقال آخر وهو ثمل بتلك اللذة الروحية التى تغمر جوانبه: إنه لتمر على ساعات أقول فيها: لو كان أهل الجنة فى مثل ما أنا فيه الآن لكانوا إذاً فى عيش طيب! والذين رزقوا هذه النعمة يسخرون من الأحداث وإن برقت ورعدت، ويبتسمون للحياة وإن هى كشرت عن نابها، ويفلسفون الألم، فإذا هو يستحيل عندهم إلى نعمة تستحق الشكر، على حين هو عند غيرهم مصيبة تستوجب الصراخ والشكوى، كأنما عندهم غدد روحية خاصة، مهمتها أن تفرز مادة معينة تتحول بها كوارث الحياة إلى نعم.

وهناك القدر المادى اللازم لتحقيق السعادة ولا نجحد أن للجانب المادى مكاناً فى تحقيق السعادة، كيف وقد قال رسول الإسلام: «من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح»[١].

بيد أن أنه ليس المكان الأول ولا الأفسح، والمدار فيه على الكيف لا على الكم، فحسب الإنسان أن يسلم من المنغصات المادية التى يضيق بها الصدر، مثل: المرأة السوء، والمسكن السوء، وأن يمنح الأمن والعافية، وييسر له القوت فى غير حرج، ولا إعنات. وما أصدق وأروع الحديث النبوى «من أصبح آمنا فى سربه، معافى فى بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[٢].

وإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية، والقلب الإنسانى، فإن الإيمان بالله وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها، وهواؤها وضياؤها.

لقد فجر الإيمان فى قلب الإنسان ينابيع للسعادة، لا يمكن أن تغيض، ولا أن تتحقق السعادة بغيرها، تلك هى ينابيع السكينة، والأمن، والأمل، والرضى، والحب، وسيأتى تفصيل ذلك فى المباحث الأخيرة من هذا الفصل بحوله تعالى.

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح من حديث سعد بن أبى وقاص.

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وقال: حسن غريب، وابن ماجة.

المبحث الرابع
الإيمان وحب المسلم لربه والناس

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

صلة المسلم بربه تقوم على الحب والرجاء والخشية. فالمسلم تفيض نفسه بعاطفة الحب نحو خالق، لأنه واهب الحياة، ومفيض النعم، وصاحب الفضل والإحسان، الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى.

وإذا كان فى طبيعة الإنسان مقابلة الإحسان بمثله، فكيف لا تمتلىء قلوب المؤمنين بحب الله لا تحصى نعمه، ولا تنفذ عطاياه؟.. فإن الحياة بما فيها نعمة من الله.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

ومن هنا تنشأ بين المسلم وربه صلة من الحب لا تنقطع.. ومن هذه الصلة تنمو فى نفس المسلم مشاعر كريمة تسمو به إلى آفاق الكمال، وتذيقه ألوانا من الأمن والاطمئنان، والثقة واليقين، وتدفعه إلى إدامة الطاعة وإحسان العبادة.. حتى يذوق حلاوة الإيمان التى يشير إليها الرسول ﷺ بقوله: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[1].

وحب المسلم لربه يملك عليه ويسيطر على فؤاده فلا يترك فى قلبه فراغا لسواه، ولا يحب شيئا قدر حبه لله، وذلك دليل إيمانه، وبرهان يقينه، كما قال الله سبحانه وتعالى:

---

(١) رواه البخارى.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولهذا الحب آثاره الملموسة، ودلائله الواضحة، فى عمل المسلم وجهاده. فهو ينشط للبذل، ويخف للتضحية، حينما يكون ذلك فى سبيل الله، وابتغاء رضاه، فلا يبخل، ولا يجبن إيثارا لمال، أو إشفاقا على ولد، أو رغبة فى الحياة. بل يقدم نفسه وما يملك، ويبذل جهده وما يستطيع فى سبيل نصرة العقيدة، وحماية الحق، والدفاع عن الحرمات.. وذلك دليل صادق على حبه وإيثاره لرضاه. فإن أخلد إلى نوازع الجبن والبخل، أو استجاب لمشاعر الضعف والتردد، أو آثر روابط الدنيا على دعوة الله، فقد خمدت فيه حماسة الإيمان، وهمدت شعلة اليقين، وهو حينئذ منحرف عن سبيل ربه، متعرض لسخطه وعقابه.

كما يقول سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وكما يحب المسلم ربه بإحسانه وفضله، ورعايته وهداه.. فإن ربه يحبه لإيمانه وإخلاصه واستقامته وتقواه.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

فما أجل ذلك وأقدسه! وما أعظمه فى النفس التى تسعى إلى الكمال!.؟

ولقد بيّن الله لعباده أنه يحب المتقين الصالحين، ذوى الإيمان الراسخ والفضائل العالية، والخلق الكريم.

فهو يحب أهل العدل، الذين يقومون بالقسط.. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]

وأهل الوفاء والتقوى.. ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]

كما يحب أهل العفو والإحسان.. ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

ويحب المجاهدين الصامدين الصابرين الذين يثبتون فى ساحة الكفاح.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ويحب المتطهرين المترفعين عن الدنايا: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ومن هنا فإن المسلم الصادق يتابع سيره إلى الكمال ليحظى بحب الله، ويفوز برضاه. وعلى أساس هذا الحب المتين يقوم توكل المسلم على ربه حق التوكل.

إن الله -سبحانه وتعالى- هو صاحب القدرة القاهرة، والعلم الواسع، والغنى المطلق.. وهو القادر على النفع والضرر والإعطاء والمنع. فكيف لا يتوكل عليه المسلم، وهو مولاه الذى يهديه ويرعاه.. ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]. إن التوكل على الله نتيجة طبيعية للإيمان والحب؛ فهو صفة من صفات المؤمنين. ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣]

وحين يتوكل المؤمن على ربه فإنه يستند إلى السبب الأقوى والركن المتين، يستند إلى ذى الحكمة والرحمة والقوة والتدبير وهو سبحانه وتعالى لن يضيع من استند إليه.. ولن يخذل من توكل عليه.﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣]

التوكل على الله هو الذى يمنح القلب الطمأنينة، والثبات فى مواجهة الأحداث، كما يبنى العزيمة، ويقوى الإرادة، ويفتح منافذ الأمل وأبواب الرجاء، وهو قوة إيجابية تدفع إلى الكفاح، وتسد أبواب القلق، وتعصم من الجزع، وتقضى على الحيرة والتردد، فهو خلق من أخلاق البطولة يحتاج إليه المسلم، وهو يخوض معارك الحياة.

وحين جبن بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة مع نبيهم ناداهم رجلان مؤمنان من أهل اليقين والتوكل: أن امضوا إلى الجهاد واثقين متوكلين فذلك سر النصر، وباب الفتح.

﴿ قَالَ رَجُلان منَ الَّذينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّه فَتَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّؤْمنينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

ولهذا فإن المسلم حين يتوكل على ربه، لا يهمل الأخذ بالأسباب بل يؤدى واجبه ويحتاج لأمره.

وقد وفد أحد الأعراب إلى رسول الله ﷺ وترك ناقته خارج المسجد فقال له رسول الله ﷺ «اعقلها وتوكل».

فلا تنافى بين العمل والحرص على ما ينفع، وبين سكون القلب إلى الحق ورجائه ما عند الله.

ومع الحب والتوكل، فإن المسلم يخشى ربه ويخاف عقابه. كما يرجو رحمته وثوابه. وخشية المسلم لربه هى خوفه من الوقوع فيما يسخطه، وعزمه الصادق أن لا يجاوز حدوده ولا ينتهك حرماته، فهى شعور، وعمل، ونية، وسلوك.

وهى بهذا أصل من أصول التربية الإسلامية التى تنشىء الوازع الخلقى فى نفس المسلم، وتعصمه من الانحراف والطغيان، فالمسلم يخشى ربه فى كل مكان، وفى كل وقت وحال. كما قال رسول الله ﷺ : «اتق الله حيثما كنت. .»[1].

---

(١) رواه الترمذى.

وقد وعد الله من يخشاه بعظيم الأجر، وكريم المنزلة، لأن الخشية دليل صدق الإيمان، وثبات اليقين، واستحضار القلب لعظمة الرب سبحانه.. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

والله سبحانه وتعالى هو المستحق للخشية، وإذا كان الناس يخالفون القوى المسيطرة فى الأرض، ويرهبون ذوى البأس والسلطان، فإن المسلم لا يخشى إلا الله، لأن قوته فوق كل قوة، وإرادته فوق كل إرادة.. وكل ما فى الأرض فهو تحت قدرته، وفى قبضته.. ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

ومن هنا يعيش المسلم عزيزا لا يذل، قويا لا يضعف، يهاب ربه ويخشاه، ولا يذل لأحد سواه. فيصبح قوة فى الوجود لها دورها بين نواميس الكون، وسنن الحياة.

بهذه العاطفة الصادقة النابعة من الفطرة القريبة من الوجدان، يمتلىء القلب المسلم.. بالحب، والخشية، والرجاء. وهى تحدد صلة المسلم بربه وتوجه زمامها. فلا يبقى فى القلب شىء غيره، ولا يتجه المسلم إلا إلى طريقه، ولا ينحرف إلى غاية سواه.

المبحث الخامس
أثر الإيمان فى تحقيق الرضا لدى المسلم

قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل بقسطه جعل الفرح والروح فى الرضى واليقين، وجعل الغم والحزن فى السخط والشك»[١].

هذا الحديث الشريف كشف عن حقيقة نفسية باهرة، فكما أن سنة الله قد ربطت الشبع والرى بالطعام والشراب فى عالم المادة، فإن سنته تعالى فى عالم النفس والروح قد ربطت الفرح والروح -وبعبارة أخرى السرور وراحة النفس- بالرضى واليقين، فيرضى الإنسان عن نفسه وربه يطمئن إلى يومه وحاضره، وبيقينه بالله والآخرة والجزاء يطمئن إلى غده ومستقبله. ومن غير المؤمن فى رضاه عن يومه، ويقينه بغده؟ كما ربطت سنة الله الغم والحزن بالسخط والشك.

فالساخطون والشاكون لا يذوقون للسرور طعما، إن حياتهم كلها سواد ممتد، وظلام متصل، وليل حالك لا يعقبه نهار ولا يرتقب له فجر صادق. وقد ربط الحديث النبوى الكريم بين السخط والشك وهما متلازمان، فلا سخط من غير شك، ولا شك من غير سخط. قال ابن القيم: قل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وأن كان لا يشعر به، فلو فتش نفسه غاية التفتيش، لوجد يقينه معلوماً مدخولاً؛ فإن الرضى واليقين أخوان مصطحبان، والشك والسخط قرينان.

الساخط إنسان دائم الحزن، دائم الكآبة، ضيق الصدر، ضيق الحياة، ضيق بالناس، ضيق بنفسه، ضيق بكل شىء، كأن الدنيا -على سعتها- فى عينيه سم الخياط.

---

(١) رواه أبو داود وغيره.

إن المؤمن قد تصبه الكآبة، وقد يعتريه الحزن، ولهذا قال الله لرسوله ﴿**وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾[النحل:١٢٧] . ﴿**وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ**﴾ [يونس:٦٥]، ولكن حزن المؤمن لغيره أكثر من حزنه لنفسه، وإذا حزن لنفسه فلآخرته قبل دنياه. وإذا حزن لدنياه فهو حزن عارض موقوت كغمام الصيف، سرعان ما ينقشع إذا هبت عليه ريح الإيمان. حتى النفوس المنقبضة والطبائع المتشائمة، ينشر الإيمان عليها من ضيائه وإشراقه، فيبدد كثيراً من ظلامها ويخفف كثيراً من انقباضها ويطارد أسباب السخط والتشاؤم من وجودها.

أما المرتاب فى الله والآخرة، فهو يعيش فى مأتم مستمر، ومناحة دائمة لأنه يعيش فى سخط دائم، وغضب مستمر. ساخط على الناس، ساخط على نفسه، ساخط على الدهر، ساخط على كل شيء. وقديماً قالوا: من غضب على الدهر طال غضبه، ولهذا هو فى مأتم مستمر، يبكى دائماً وينعى نفسه، وينوح على دنياه، ويولول على وجوده. كما وصف بعض المرتابين نفسه فقال: إنه حزين بعاطفته وتفكيره وسلوكه.. حزين بأعصابه وأعصاب الكون والآلهة والناس والأشياء!..، لا يعرف لماذا هو حزين؟!

إن شعور الإنسان بالرضى من أول أسباب السكينة النفسية التى هى سر السعادة.

وفى الحديث الصحيح: «من سعادة المرء استخارته ربه، ورضاه بما قضى، ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء»[1].

فكل أمره مقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبل وقوعه، والرضى بعد وقوعه، والسعيد من جمع بينهما، وبذلك هو المؤمن، والشقى من حرمهما.

المؤمن يسأل الله قبل إقدامه على أمر من الأمور أن يهديه إلى أرشد الأعمال وأهدى السبل، ومن الأدعية التى علمها لنا الرسول: «اللهم إن كنت تعلم أن

---

(١) رواه البزار ومعناه عند أحمد والترمذى.

هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فيسره لى، وبارك لى فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فاصرفنى عنه»[١].

المؤمن هو الذى يحس تلك الحالة النفسية التى تجعله مستريح الفؤاد منشرح الصدر، غير متبرم ولا ضجر، ولا ساخط على نفسه، وعلى الكون والحياة والأحياء، ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص فى نفسه، وعن الوجود العام من حوله، ومبعث هذا وذاك رضاه عن مصدر الوجود كله، وينبوع هذا الرضى هو الإيمان بالله رب العالمين.

والرضا مرتبة روحية جزيلة، هيهات أن يصل إليها جاحد بالله، أو شاك فيه، أو مرتاب فى جزاء الآخرة، إنما يصل إليها من قوى إيمانه بالله، وحسن اتصاله به، وقد خاطب الله رسوله عليه السلام بقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]. وامتن عليه بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]. وقال النبى ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا»[٢].

وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]. المؤمن راض عن نفسه وعن ربه:

المؤمن راض عن نفسه، أعنى عن وجوده ومكانه فى الكون، لأنه يعلم أنه ليس ذرة ضائعة، ولا كما مهملا، ولا شيئا تافها، بل هو قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، وخليفة فى أرض الله.

---

(١) رواه البخارى وغيره.

(٢) رواه أحمد ومسلم والترمذى.

وهو راض عنه ربه، لأنه آمن بكماله وجماله، وأيقن بعدله ورحمته، واطمأن إلى علمه وحكمته، أحاط سبحانه بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، ووسع كل شيء رحمة، لم يخلق شيئا لهوا، ولم يترك شيئا سدى، له الملك وله الحمد، نعمه عليه لا تعد، وفضله عليه لا يحد، فما به من نعمة فمن الله، وما نابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، يردد دائماً هذا الذى ردده من قبل أبونا إبراهيم خليل الرحمن: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٧-٨٢].

والمؤمن -نتيجة لهذا- راض عن الحياة والكون من حوله، لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله الذى أتقن كل شىء: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وكل ذرة فى الأرض أو السماء تدل على حكمة حكيم، وتقدير عزيز عليم، وتدبير ملك عظيم، ورعاية رب كريم رحيم.

المؤمن -كما قال الإمام الغزالى[١]- يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب؟ أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم، وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة مالا منهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور. وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرفهم دقائق اللطف، وخفايا العقوبات، حتى اطلعوا به على الخير والشر، والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت. بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم من التعاون والتظاهر عليه: أن يزاد فيما دبر الله سبحانه، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر، عمن بلى به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى

---

(١) الأحياء ربع المنجيات كتاب التوكل، ص ٢٢٢، ط الحلبى.

أو نفع، عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السماوات والأرض -إن رجعوا فيها البصر، وطولوا فيها النظر- ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل، وسرور وحزن، وعجز وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغى وكما ينبغى وبالقدر الذى ينبغى، وليس فى الإمكان أصلا أحسن منه، ولا أتم، ولا أكمل، ولو كان ادخره -مع القدرة- ولم يتفضل به لكان بخلا يناقض الجود، وظلما يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الالهية» أ.هـ.

فما عرفه المؤمن من حكمة الله فى خلقه، وأسراره فى كونه، فبها ونعمت، وما خفي عليه وكله إلى عالمه، وقال فى تواضع أولى الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

إن مما يسخط الناس على أنفسهم وعلى حياتهم، ويحرمهم لذة الرضا، أنهم قلبوا الإحساس بما يتمتعون به من نعم غامرة، ربما فقدت قيمتها بإلفها، أو بسهولة الحصول عليها، وهم يقولون دائما: ينقصنا كذا وكذا، ونريد كذا وكذا، ولا يقولون: عندنا كذا وكذا.

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه فى كل شيء حوله، ويرى فى كل ذرة فى الأرض أو السماء منحة من الله، تيسر له معيشته، وتعينه على القيام برسالة فى الحياة.. إنه يرى نعمة الله فى هبة الريح، وسير السحاب، وتفجر الأنهار، وبزوغ الشمس، وطلوع الفجر، وضياء النهار، وظلام الليل، وتسخير الدواب، وإنبات النبات.

ولتقرأ فى مثل هذا قوله الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يتفكرون (١٣)﴾ [الجاثية: ١٢-١٣]. ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون (٣٣) وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون (٣٤) ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون (٣٥) سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦)﴾ [يس: ٣٣-٣٦]. ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا فهم لها مالكون (٧١) وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٧٣)﴾ [يس: ٧١-٧٣]. ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباسًا والنوم سباتًا وجعل النهار نشورًا (٤٧) وهو الذي أرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورًا (٤٨) لنحيي به بلدة ميتًا ونسقيه مما خلقنا أنعامًا وأناسي كثيرًا (٤٩)﴾ [الفرقان: ٤٧-٤٩].
﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون (٧١) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون (٧٢) ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٧٣)﴾ [القصص: ٧١-٧٣].
﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم (٧) والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨) وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين (٩) هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (١٠) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (١١) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١٢) وما ذرأ لكم في الأرض مختلفًا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون (١٣) وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًّا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٤) وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارًا وسبلاً لعلكم تهتدون (١٥) وعلامات وبالنجم هم

يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ٥-١٨].

ولقد كان سيدنا محمد رسول الله ﷺ أشد الناس إحساسا بنعمة الله وفضله فى كل شئونه، ولذا إذا تناول طعامه -وإن كان من خشن الخبز وجاف الشعير- يتناوله تناول الراضى الشاكر، ويقول فى ختام الطعام: «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين» وإذا شرب الماء القراح قال: «الحمد لله الذى جعله عذبا فراتا برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا».

وإذا اكتسى ثوباً، أو عمامة، أو نحو ذلك قال: «الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة، اللهم إنى أسألك من خيره وخير ما هو له».

وإذا ركب دابة قال ما علمه الله إياه: «سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلىٰ ربنا لمنقلبون».

وإذا استيقظ من نومه قال: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

وإذا قضى ضرورته البشرية وخرج من الخلاء قال: «الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى».

وإذا رأى مبتلى فى جسمه أو حواسه قال: «الحمد لله الذى عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه».

وإذا تم له أمر على ما كان يبغى ويريد قال: «الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات».

وإذا تم له أمر على ما كان يبغى ويريد قال: «الحمد لله على كل حال».

وإذا استقبل وجه الصباح قال: «اللهم إنى أصبحت منك فى نعمة وعافية وستر، فأتم علىّ نعمتك وعافيتك وسترك فى الدنيا والآخرة، اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر».

وإذا أظله المساء قال مثل ما فى الصباح.

فهذا هو شعور المؤمن دائماً، شعور الذاكر لنعمة الله، الشاكر لفضل الله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨].

ولا عجب أن كانت أول آية فى كتاب الله الخالد -بعد البسملة- آية تشعر المؤمنين أبداً بنعمة الله وإحسانه وتوجههم إلى حمده وشكره، تلك هى آية فاتحة الكتاب «الحمد لله رب العالمين» ولا غرو أن جعل الإسلام تلاوتها فريضة يومية يكررها المسلم كل يوم مالا يقل عن سبع عشرة مرة فى صلواته الخمس. المؤمن راض بما قدر الله عليه.

والمؤمن كما يغمره الشعور بنعمة الله عليه كل حين وفى كل حال، لا يفقد هذا الشعور وإن أصابته البأساء والضراء، وهزته زلازل الحياة.

إنه راض بما قضى الله له، وما قدر عليه، إيماناً بأن الله تعالى لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا يقضى أمراً يريد به عسراً لعباده، وأنه -سبحانه- أرحم بهم من الوالدة بولدها، وأن الخير المطوى فى جوف ما نظنه كارثة وشراً، وما نكرهه بطبيعتنا البشرية ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:١٩].

والمؤمن راض بما قسم الله له من رزق، وما قدر له من مواهب، وما وهب له من حظ، لأنه مؤمن بعدل الله فيما قسم من أرزاق، وبحكمته فيما وزع من مواهب، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ، وهذا هو معنى «القناعة» الذى حث عليه الدين، وأشاد به الحكماء والصالحون.

والإسلام يهدى المرء إلى الاعتدال فى السعى للغنى، والإجمال فى طلب الرزق، وبذلك يضمن التوازن فى نفسه وفى حياته، ويمنحه السكينة التى هى سر السعادة، ويجنبه الإفراط والغلو الذى يرهق النفس والبدن معا، ومن ثم قال ﷺ «يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب، فإن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»[1].

---

(١) رواه ابن ماجة.

ولو ترك الإنسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه، لأصبح خطرا على نفسه وجماعته، فكان لابد من توجيه طموحه إلى قيم أرفع، ومعان أخلد، ورزق أبقى، وتلك هى وظيفة الدين معه: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وظيفة الإيمان هنا أن يحد من سورة الحرص والطمع، وطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية فلا تستبد بها وتجعلها تحيا فى قلق دائم، ولا تكتفى بقليل، ولا تشبع من كثير، لا يطفىء غلة ظمئها ما عندها فتمتد عينها إلى ما عند غيرها، ولا يشبعها الحلال فيسيل لعابها إلى حرام، مثل هذه النفس لاترضى ولا تستريح، إنها كجهنم -أعاذنا الله منها- تلتهم الملايين فى جوفها ثم يقال لها: هل امتلأت؟ وتقول هل من مزيد؟!

وظيفة الإيمان أن يوجه النفوس إلى القيم المعنوية الخالدة، وإلى الدار الآخرة الباقية، وإلى الله الحى الذى لا يموت، ويعلم المؤمن أن الغنى -إن كان ينشد الغنى- ليس فى وفرة المال وكثرة المتاع الأدنى، وإنما هو داخل النفس أولا، وبذلك ورد الحديث: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»[(١)].

ومن معانى الرضى وثانى ما تعنيه القناعة. أن يرضى الإنسان بما وهب الله مما لا يستطيع تغييره، وفى حدود ما قدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنياً ما لا يتيسر له، ومتطلعا إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له، وذلك كتمنى الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميمة إلى الحسناء

(١) متفق عليه.

فى غيرة وحسد، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل فى حسرة وتلهف، وطموح البدوى الذى يعيش فى أرض قفراء بطبيعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم، وكما حدث فى عهد الرسول حين منى النساء أن يكن لهن ما للرجال، فأنزل الله ﴿لا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

«وفى حال العسر وضيق الرزق التى تحل بالأفراد، ولا تخلو منها حياة الناس، وفى الأزمات الطارئة التى تحل بالأمم نتيجة حرب أو مجاعة أو نحوها».

وفى البلاد والدول التى تقل مواردها الطبيعية عن توفير الرفاهية لأهلها، ولا يهتدى كثير منهم سبيلا لتنمية رزقه أو للهجرة من بلده -تكون القناعة بما رزق الله هى الدواء الناجع، والبلسم الشافى، وتطلع مثل هؤلاء الذين ذكرنا ليس طموحا، ولا علو همة، إنه طمع فى غير مطمع، وتمن لما لا يكون، وحرص لاثمرة له إلا الهم والحزن.

هؤلاء فى حاجة أن يعلموا ويوقنوا أن السعادة ليست فى وفرة أعراض الحياة ولكنها فى داخل النفس، وأولى ما يقال لهم ما وجهنا إليه رسول الله ﷺ «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»، «قد أفلح من هدى للإسلام وكان رزقه كفافا وقنع به»، «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

المبحث السادس
أثر الإيمان فى الصوم عن المعاصى

يرتقى المسلم بإنسانيته إلى ذروة الكمال، ويعلم أن الله عز وجل قد ميزه عن الحيوان، وجعل فيه استعدادا للسمو بروحه والتحرر من أسر الشهوات وعبودية الغرائز.

وهو حين يمتنع بمحض إرادته عن تناول الطعام والشراب وإجابة الشهوات يثبت أن الإيمان صانع العجائب، وأن الإرادة هى الخاصة التى ميز بها الله -سبحانه- الإنسان عن غيره وفضله بها على كثير ممن خلق.

والمسلم يعلم أن الصوم عبادة أصيلة، فرضها الله على أهل الأديان السماوية جميعا، اختلفت طرائقها، لكن كمال هذه الفريضة، ووضوح حقيقتها كان فى الإسلام.

﴿.. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤].

وما كان الله ليشرع لعباده ولا أن يفرض عليهم تلك الفريضة إلا لحكمة بالغة وغاية مثلى، وليس لمجرد المشقة والحرمان، وإنما شرع الله الصيام ليصل بالنفس إلى حقيقة التقوى فتسمو عن الدنايا، وترتفع عن ضرورات البشرية، وتتعلم كيف تسيطر على النوازع والغرائز، وكيف تستعصم عن نداء الفتنة، وداعية الشهوة.

فليس الهدف من الصيام هو إذلال النفس، أو القسوة عليها، ولكن الغاية منه علاج النفس من أدوائها، فتكتسب إرادة حازمة وعزيمة صادقة، ولاتتهافت على الشهوات، ولا تتهالك على الرغبات والللذائذ، بل تملك الصبر على

الحرمان، والقوة فى مواجهة الغرائز، وتترقى من ذلك إلى الابتعاد عن الرذائل واجتناب الدنايا، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿. . لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

فالمسلم حين يمتنع طائعاً عن الضرورات التى يحتاج إليها بحكم الغريزة، فإنه لا ريب يمسك عن المحرمات، ويجتنب المنكرات، وينشأ فى نفسه الضمير الحى، والوازع الخلقى، الذى يوجهه إلى الخير ويعصمه عن نزغات السوء.

والمسلم فى صيامه يثبت قوة نفسه، وعلو قدرها، واستعدادها للقيام بالواجبات، والاضطلاع بعظائم الأمور، كما يثبت قدرته على التغلب على الحاجات والأهواء، واستعصامه عن الدنايا والسيئات. فحين ينجح المسلم فى تجربة الصيام فهو على الكفاح فى سبيل الحق أقدر. أما إذا قصر عنه وضعف عن تكاليفه فهو فى ميدان الجهاد أجبن وأضعف. وليس على الصائم رقيب إلا الله سبحانه.

ومن هنا تنمو لديه ملكة مراقبة الله، والشعور باطلاعه عليه، فتخفى من نفسه مظاهر الرياء، والتطلع إلى إعجاب الناس، والرغبة فى حب الثناء، وذلك بعض ما يتعلمه المسلم من عظات الصيام ومعانيه، وقد بين الإسلام حدود الصيام التى يجب على المسلم أن يلتزمها؛ فإن للصيام جانباً ظاهراً وهو: الامتناع عن المفطرات فى ساعات النهار. . وذلك أمر ميسور يقدر عليه الحيوان، ولكن المهم فى الصوم جانبه الروحى الذى جعله الإسلام الهدف الحقيقى لهذه الفريضة.

ومن هنا فإن المسلم الحق يتخذ من الصيام وسيلة لتطهير نفسه وتزكيتها. فإن من يغفل عن حقيقة الصيام، ولا يفطن إلى حكمته، لا يعود صيامه عليه بثمرة، ولا ينال منه إلا التعب.

وإلى هذا يشير رسول الله ﷺ بقوله: «من لم يدع قول الزور، والعمل به، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه»(١). ومن هنا فلابد للصائم أن يتميز فى قوله وعمله، ويتخذ لنفسه سلوكاً يتفق مع جلال العبادة وقدسية الإيمان. وإلى هذا يوجه الرسول ﷺ بقوله: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد، أو قاتله، فليقل: إنى صائم»(٢).

وبذلك يرتقى المسلم، إلى ذروة الإنسانية التى جعلها الله فى أحسن تقويم ويقى نفسه شر غرائزه، ويفتح فيها طاقات الخير.

فما أجل معنى الصيام! وما أقدس حقيقته! وما أكرمه من سر بين العبد ومولاه.! يقول الله تعالى فى حديث قدسى: «كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه من أجلى»(٣).

فهو تجربة حية تدل على صدق الإيمان وتحوله إلى قوة قادرة على التوجيه والعمل.. ولهذا فإن المسلم الذى يرعى حقيقة الصوم، ويحسن القيام بواجباته فيه ينال الأجر العظيم، وتشمله الرحمة الواسعة.

فقد جعل الله -سبحانه- الصيام باباً من أبواب الطهر، وسبيل من سبل المغفرة التى تعفى آثار الخطايا، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(٤).

والأمر كله يعود إلى النية الصادقة والعزم القوى، ومتى خلصت نية المسلم فإن الله يعينه على سلوك سبيل الخير، وييسر له مجانبة السيئات، ومحاربة الأهواء ويقيه نزغات الشيطان.

---

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

كما يقول الرسول صلوات الله عليه: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادى مناد: يا باغى الخير أقبل، ويا باغى الشر أقصر، ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة[١].

وهكذا نرى الصوم فى حقيقته رياضة للنفس، وارتفاعا بالإنسانية إلى أفق كريم، وجهاداً كبيراً يطبع المسلم بطابع القوة، ويزيد من طاقته فى ميادين الكفاح.

ومن عجب ألا يفطن بعض المفتونين فى عصرنا إلى هذه الحقيقة الجليلة فيحاولون الغض من شأن الصوم، وإغراء المسلمين بالتفلت من قيوده بحجة الحفاظ على العمل، وزيادة الإنتاج!!

إن النفوس التافهة المشغوفة بالشهوات هى التى تحاول -الإفلات من الصيام ولا تصبر على مشقاته. ونسى هؤلاء أن المسلمين الأولين الذين فهموا الإسلام حق الفهم، وعملوا به حق العمل، كانوا يرون فى الصيام عبادة إيجابية لا الفريضة فحسب، بل وصوم التطوع الذى كانوا يحرصون عليه مختارين.. فلا عجب أن ظهرت فيهم البطولات وحدثت منهم العجائب، فإن للصيام تربية تقوى الإرادة وتصهر العزيمة، وتدفع إلى التضحية والفداء.

أما حين نرى فى عصرنا جماهيراً من المسلمين تستثقل تلك الفريضة وتفزع من مشقتها، وفيهم الشاب القوى والصحيح القادر.. ويجدون من يعذرهم ويسول لهم، فإنه لأمر يبعث الأسى فى النفس، ويكشف عما أصاب المسلمين فى عصرنا من وهن واختلال.

فكيف يرجى من هؤلاء خير فى دينهم أو دنياهم..!

---

(١) رواه الترمذى.

بل إن هناك طوائف فى بعض المجتمعات الإسلامية تحرص على تضييع معانى الصيام وإحاطة لياليه بجو من الهزل والفجور، حتى تضيع معالم العبادة فيه، وتمحى معانيه من نفوس المسلمين. وهذا لهو، حقير، ينبغى أن يتنزه عنه المسلم، وأن ينأى عن مواطنه، وأن يكون مثله الأعلى فى رمضان ماكان عليه رسول الله صلوات الله عليه من هدى كريم.

لقد كان من سنة رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون فى رمضان. وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة فيدارسه القرآن فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة[١]، وكان يقوم فى رمضان فيصلى ويتعبد. وكان يرغب الناس فى ذلك ويقول: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[٢].

هذا هو الصيام كما يفهم المسلم الحق.. سبيل من سبل التربية، وباب من أبواب الجهاد، ونظام حازم يطبع المسلم بطابع المبادرة والطاعة. ومهما قيل فى بيان معانيه وفهم أسراره، فلا نزال نتبين فيها جديداً ونبصر حكمة؛ فهو عبادة فذة كما قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «عليك بالصيام فإنه لا مثل له»[٣].

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه الخمسة.

(٣) رواه النسائى والحاكم وصححه.

المبحث السابع
الإيمان والشوق للكعبة المشرفة

يولى المسلم وجهه شطر المسجد الحرام كل يوم خمس مرات، وهو يسجد لربه ويظل قلبه أبدا متعلقا بهذه القبلة المباركة مسلوب المشاعر نحوها، فهى رمز العبادة، وهى موطن النبوة، وهى أول مسجد فى الأرض جعله الله لعبادته وتوحيده، ومن هنا يصبح الحج إلى بيت الله الحرام أملا لكل مسلم، لا يمل من التطلع إليه ولا نخمد حماسته نحوه، لما فيه من تأكد الالتفاف حول الهدف واليقين بالغاية الواحدة التى تجمع المسلمين.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٦-٢٨].

والمسلم يعلم أن المسجد الحرام بمكة هو بيت الله، الذى أمر إبراهيم ببنائه ليكون مثابة للناس ومقصداً.

وقد صانه الله وحفظه؛ وطهره وكرمه، ودفع عنه الطغاة والملحدين، وساوى فيه بين العاكفين والبادين، وأفاض فيه الأمن والطمأنينة على الناس أجمعين.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقد كان العرب فى الجاهلية يعظمون البيت عن تقليد للآباء، فلما جاء الإسلام ربط هذا البيت بحقيقته التاريخية، وفطرته الدينية، وجعله للمسلمين خاصة، لأنه ميراث أبيهم إبراهيم الذى أمره ربه بإقامته ليكون قبلة ومقصداً للمسلمين.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

لذلك جعل الله -سبحانه- من أركان الإسلام الحج إلى بيت الله الحرام، وجعل ذلك فريضة لازمة فى العمر مرة على القادرين.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

واستطاعة الحج إنما تكون بالقدرة على مشقات الرحلة، وامتلاك النفقة الضرورية فى أيام الحج.. ولا يشترط فيه الثراء العريض، ولا الصحة الموفورة، فمن استطاع ذلك فقد وجب عليه الحج إلى بيت الله.

فما حقيقة الحج.. وماذا يتعلم المسلم من دروسه ويستفيد من تمارينه؟

إنه رحلة روحية، وعبادة فريدة تترك أكرم الآثار فى نفس المسلم، وتطبعه بطابع التجرد لله، والتزام حكمه والخضوع لشرعه.

ولهذا كان الحج بهذا المعنى طهارة شاملة، تمسح الخطايا، وتكفر الذنوب، وتبيض ما اسود من صحائف الإنسان؛ يقول رسول الله ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»[1].

إن المسلم يتحمل مشقات الحج ومتاعبه راضياً، قرير العين، فهو بذلك يطيع ربه، ويبادر إلى أمره. وفى ذلك تدريب على تحمل الأعباء، ومواجهة الشدائد، ومدافعة الأخطار.. ولذلك يتعلم المسلم من الحج معنى الجهاد.

وقد جعل الإسلام الحج جهاداً حقيقياً للنساء والضعاف من الرجال، يعفيهم من جهاد العدو، إذ هو غاية وسعهم ومنتهى تحملهم.

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «جهاد الكبير والصغير والضعيف والمرأة: الحج والعمرة»[2].

---

(١) رواه الخمسة إلا أبا داود.

(٢) رواه النسائى.

كما قيل له: يا رسول الله هل على النساء من جهاد؟ قال: «نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة»(١).

وقالت له عائشة رضى الله عنها: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «لا، لكن أفضل الجهاد حج مبرور»(٢).

فما أحوج المسلم إلى الحج وما فيه من تدريب على الجهاد، ولقد جمع الحج بين نفع الدنيا، وثواب الآخرة. فكما أنه يطهر المسلم من خطاياه، ويمسح عنه أوزاره، فإنه كذلك يفتح أمامه آفاقاً للكسب، ويتيح له التعاون، والتعارف مع إخوانه المسلمين من شتى أقطار الأرض.

ومن هنا يستطيع المسلمون أن يبتغوا منافع لهم وأن ينهضوا باقتصادهم واجتماعهم عن طريق الوحدة الروحية التى يحققها لقاؤهم مع إخوانهم فى موسم الحج. وليت الأمة الإسلامية فى عصرنا تنتفع بتلك النعمة فتكسب منها وحدة الرأى ووحدة السلوك.

وقد كان العرب فى الجاهلية يتبايعون ويتبادلون فى موسم الحج، فلما جاء الإسلام كرهوا الاشتغال بالدنيا أثناء تأدية العبادة.. فرفع الله عنهم الحرج بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ومعنى هذا أن الحج عبادة تمحو الذنب، وتمحق الفقر.

كما يقول الرسول ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة»(٣).

إنه مؤتمر كبير يأتى بغير تكلف يجمع ملايين المسلمين من كافة أنحاء الأرض، فيهيب بهم أن يوحدوا صفوفهم ويخلصوا غايتهم، وأن تجتمع كلمتهم

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه النسائى والترمذى.

على استرداد حقوقهم وحماية حرماتهم ونصرة عقليتهم والتعاون فى ميادين الحياة.. وكل هذا مما يشمله قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٨]

والمسلم يعلم أن وراء أركان الحج جميعاً قصد العبادة ونية ذكر الله.

ففى الحج يتعلم الناس حقيقة المساواة، وينزلون جميعاً على حكم الله، فيتجردون من ثيابهم التى ألفوها والتى يظهر فيها التفاوت الاجتماعى، ويلبس كل منهم إزاراً ورداء فى خشوع وإخبات.. فلا مكان للمباهاة، وهم جميعاً فى حرم الله، قد لبوا دعوته، وأقبلوا على كعبته، وأتوه جميعاً خاشعين قائلين كما كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»[١].

والمسلم فى هذه التلبية وهذا النداء الكريم ليس وحده، بل إن كل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه حتى الجماد والشجر.. فما أروع هذا الموقف! وما أقدسه!.

يقول الرسول ﷺ: «ما من مسلم يلبى إلا لبى من عن يمينه، وعن شماله من حجر أو مدر، حتى تنقطع الأرض من ها هنا وهنا»[٢].

وحين يطوفون حول الكعبة فليس طوافهم مجرد دوران حول بناء.. بل هو مناجاة الله وصلاة.. وتطلع، وتضرع، واستغاثة والتجاء.. لصاحب الفضل، وواهب الإحسان.

ولهذا كان الطواف موضعاً من المواضع التى يستحب فيها الذكر والدعاء؛ وموطناً من مواطن الرحمة والمغفرة، يقول رسول الله ﷺ: «الطواف حول البيت مثل الصلاة، إلا أنكم لا تتكلمون فيه؛ فمن تكلم فيه فلا يتكلمن إلا بخير»[٣].

(١) رواه الخمسة.
(٢) رواه الترمذى.
(٣) رواه الترمذى والحاكم.

وكل مشاعر الحج ومناسكه لا يقصد بها إلا ذكر الله، والتطلع إلى فضله، واللجوء إلى رحابه، وليست طقوساً لا معنى لها، أو حركات لا تثمر فى النفس شيئاً.

يقول رسول الله ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، ورمى الجمار لإقامة ذكر الله -تعالى»[١]. كما يقول: «خير الدعاء، دعاء يوم عرفة»[٢].

هذا هو الحج، كما يفهمه المسلم الحق، باب من أبواب النفع المبارك فى الدنيا، وسبيل من سبل الآخرة.

ورحلة لله مصحوبة برعايته وفضله مشمولة بتوفيقه وإحسانه فالمعرض عن الحج معرض عن الله، غير راغب فى ذكره ولا مهتد بهداه.

وهو حينئذ بعيد عن دينه، منحرف عن صراطه، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله، ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً، أو نصرانياً»[٣].

---

(١) رواه أبو داود وأحمد والترمذى.

(٢) رواه الترمذى وأحمد.

(٣) رواه الترمذى وأحمد

المبحث الثامن
الإيمان وحق الله فى المال

لا ينسى المسلم حين يؤدى حق ربه أن الله سبحانه قد أمره بأداء حق أخيه الإنسان، فتلك أيضاً عبادة الله وابتغاء لرضاه. فلابد أن يقوم بناء المجتمع على التكافل والتعاون، حتى لا يكون المال دولة فى أيدى الأغنياء، بينما يحرم الفقراء من ضروريات الحياة. فالمال مال الله، والناس جميعاً شركاء فيه.. إن لم يكن على سواء فعلى الأقل بما يعين الفقير على أعباء الحياة، ويشد أزره فى مواجهة دنياه.

وليست الزكاة إلا مظهراً لما يفيض به قلب المسلم من إحساس بالمسئولية الاجتماعية، وشعور قوى بالتضامن والارتباط فهى كما قال الرسول صلوات الله عليه: «صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم».

والمسلم يفهم لماذا يقرن الإسلام دائماً بين حق الله وحق العباد، فيجمع بين الصلاة والزكاة.. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١١٠]، ويجعل ذلك من سمات المؤمنين.. ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [الحج: ٤١].

إن الإنفاق نتيجة من نتائج الإيمان ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

ولم يترك أمر الإنفاق موكولا إلى ضمائر الناس، بل حدده بالشريعة، فأوجب زكاة المال، بنسبة معلومة فى كل موارد الكسب، من الذهب والفضة، والتجارة والزروع، والثمار، والسوائم من الإبل، والبقر، والغنم، والكنوز التى توجد فى باطن الأرض، وأنصبة هذه الزكاة تتسم بالعدالة والوسط، ولا تجحف

الفرد، ولا تصادر نشاطه الضرورى، ولا تستولى على قوته الذى يحتاج إليه، وفى الوقت نفسه، ترعى حق الفقير فلا تشترط قدراً كبيراً من الثراء.

كما فرض زكاة الفطر من صيام رمضان على كل مسلم يجد ما يزيد عن كفايته فى يومه وليلته، فيتعلم المسلم من دينه كيف يكون التضامن؟ وكيف يسع الناس بعضهم بعضا فى مجتمع الإسلام.

ومن هنا يدرك المسلم الأساس الذى تقوم عليه فريضة الزكاة، ويعرف ثمراتها للفرد والمجتمع.

فإن الزكاة من جانب المزكى طهرة لماله، وسمو بنفسه، وعلاج له من أدواء الشح والبخل، حتى لا يكنز المال، ويحبسه عن نفع المجتمع.. كما يقول الله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٢].

وهى كذلك سد[1]، وكفاية للحاجة، وإقامة للعدالة، وتقرير للتكافل بين الناس، ولهذا يعلم المسلم أن الزكاة حق للفقير، لا فضل من الغنى.

إنها فريضة مادية ومع ذلك يربطها الإسلام بأصل الإيمان، ويقرر لها قداسة العبادة، وجلال الشعيرة ويجعلها انعكاسا لما يعمر القلب من عقيدة ومبدأ.. فالقرآن الكريم يذكر الزكاة فى أصول الإسلام الأولى، التى لا يتخلى عنها، ولا يقبل جدلا حولها: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

كما يجعل الكفر بحق الفقير، تكذيباً بالدين، وإنكاراً للبعث: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: ١-٣].

ويجعل الاستهانة بحق الفقير سبباً من أسباب الجحيم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾ [المدثر: ٤٢-٤٤].

---

(١) الخلة: الحاجة والفقر.

بل يجعل القرآن جحد الزكاة، ومنع حقوق الفقراء، وجها بارزاً للكفر يكفى للتعريف به، وينوب فى الدلالة عليه: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

ولا يذكر القرآن، إقامة الصلاة، وهى حق الله سبحانه، إلا ويقرنها غالباً بأداء الزكاة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦]. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١].

وهكذا يحل الإسلام فريضة التكافل الاجتماعى محلها بين أركانه ويضمن لها الثبات والرسوخ، ليعلم المسلم ارتباط تلك الفريضة بحقيقة الإيمان ودلالتها الواضحة على صدق اليقين فيبادر إلى أدائها راضيا.

إنها تجربة صادقة للبذل، يؤدى إلى ألوان أخرى من التضامن والتعاون.

ولا ينتهى الأمر بالمسلم عند أداء زكاة ماله بحدها المفروض فإن أمامه باب التطوع، يرغبه فيه الإسلام، ويحضه على المضى فى سبيله.. فالزكاة حد أدنى للتكافل الاجتماعى يضعه الإسلام يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك»[1].

ولكن القرآن إلى جانب نصه على الزكاة المفروضة، يذكر حق الفقير فى مال الغنى على الإجمال، مما يبين أن المهم كفاية الحاجة وسد الخلة: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

وهذا الحق غير الزكاة المفروضة وهو حق يعرفه المسلم بحسه المرهف، وقلبه النقى، وتجاوبه مع الأحداث التى تقع حوله، وإحساسه بأنه لبنة فى بناء كبير.

والمسلم يعلم أن الزكاة حل ناجح وكريم لمشكلة الحاجة والضعف والتخلف فى مواجهة الحياة، إنها مورد متجدد يشمل كل مصدر العمل والكسب، يتجه إلى مصب واحد: الفقر والعوز والحاجة، فلا يزال ذلك يعمل عمله فيمسح

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجة.

الآلات، ويقرب الفوارق، ولا يفسح المجال للثروة الفاحشة، أو الاستعلاء على البائسين، أو الازدراء بحقوق المساكين.

وقد شهد بذلك تاريخ المجتمع الإسلامى فى كل الأجيال التى أقامت تلك الفريضة إلى عهد قريب. فقد كان المجتمع الإسلامى بمنجى من البؤس والضعة، وكانت الحياة فيه كريمة على كل فرد، لا يحفل بصور الشقاء والحاجة التى تهوى بالإنسان إلى الحضيض، وتلبسه ثوب الذلة والهوان.

وكانت الزكاة تعمل عملها فى التقريب بين الطبقات، وكفاية المحتاجين. إنها حل طيع ميسور، يخفف الأحقاد، ويلطف من حدة الصراع، ويحقق التآزر بين القادرين والعاجزين، وعن طريقها نجح المجتمع الإسلامى فى تحقيق السلام بين الطبقات وربطها برباط التكافل، مما يحقق التوازن، ويشيع التكافل فى المجتمع.. ويعالج كثيراً من المشاكل التى تهدد المجتمع بالاضطراب والاختلال.

إن المسلم لا يبخل عن حقوق العباد، ولا يعرض نفسه للهلكة فهو يعلم أن البخل لن يعود عليه بالخير فى دنيا أو آخرته.

ففى الدنيا تمحق ثروات الباخلين، ويزيلها التوفيق والبركة كما قال الرسول ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكاً تلفاً»[1].

إن الله يبارك فى أموال المنفقين، ويخلف على المتصدقين. ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وفى الآخرة تصبح ثروات المسكين وسيلة من وسائل العذاب الأليم.

كما قال الرسول ﷺ: «من آتاه الله مالاً لا يؤد زكاته، مثل له يوم القيامة شجاعاً (ثعباناً) أقرع، له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه (أى شدقيه) ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك[2]. ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) رواه البخارى وغيره.

(٢) رواه الخمسة إلا أبا داود.

يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فلن يكتسب من يجحد الزكاة إلا البوار والخسران، أما الإنفاق والتصديق فهو خير محض للمنفقين؛ فالمال نعمة من الله أنعم بها عليهم، ثم يستقرضهم منها بأجر مضاعف وثواب عظيم: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

والمنفقون فى رحمة الله ورعايته: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. والذى ينفق فى سبيل الله لا يضيع عمله هباء فإن الله يدخره له ويجزيه به.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

ولقد فرض الإسلام على كل مسلم أن يشرب قلبه حب الخير، ونفع الناس بما يستطيع، من مال وجهد أو نية وشعور. فليس لأحد أن يعيش مع الناس يمنع عنهم خيره، ويبسط إليهم أذاه؛ فإن ذلك ليس من خصال المسلم، ولا يستقيم مع منهجه فى الحياة. يقول رسول الله ﷺ: «على كل مسلم صدقة، فقالوا يا نبى الله فمن لم يجد؟

قال: يعين ذا الحاجة الملهوف، قالوا فإن لم يجد؟ قال: فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة»[١].

وهكذا يصبح المسلم ويمسى، وهو يمد الحياة بنفع، ويشيع فيها الخير بين الناس، فهو يعلم أن هذا مقياس الإسلام، ودليل اليقين، فليس الإيمان بالتمنى، بل هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل.

---

(١) رواه الشيخان والنسائى.

المبحث التاسع
الإيمان والجانب الأخلاقى

١- صدق المسلم:

من ملامح المسلم ومعالمه البارزة التزام الصدق فى قوله وعمله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

فهو خلق أصيل من أخلاقه يعبر عن حقيقته، ويسير إلى أهدافه. والصدق فى نظر المسلم ليس إلا الحق الذى هو أساس الإيمان وعماد الوجود، أما الكذب فهو الباطل، الذى لا يقوم له بناء ولا تثبت له قدم.

ومادام المسلم قد اختار طريق الحق، فآمن بالله وعرف سر الوجود، فلابد أن يتحرى الصدق فى قوله، وأن يتخذه منهاجاً فى حياته، لأنه يعلم أن الكذب يناقض الإيمان، وأنه خطر يتهدد العقيدة، ويفسد العمل.

من هنا فإن المسلم الحق لا يتصف بالكذب، ولا يرضى به طريقا، كما يقول الرسول ﷺ: «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب»[١]، كما أن التزام الكذب، والميل إلى الباطل، يخرج صاحبه من دائرة الإيمان إلى هاوية النفاق، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كان فيه خصلة منها كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب»[٢].

ولهذا فإن المسلم يتخذ من الصدق طريقا مأمونا ينتهى به إلى رضوان الله -سبحانه- ويهديه إلى حسن العاقبة فى الدنيا والآخرة، فينمى مواهب الخير فى نفسه، ويطبعه بطابع الحق، فيألف مسالك الخير والاستقامة، وينبت فى قلبه بذور اليقين والمعرفة، ويسمو به إلى أرفع الدرجات.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه البخارى.

ويصور ذلك الطريق، ويعبر عن مناهجه قول الرسول ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، ومازال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا . .».

وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور، يهدى إلى النار، ومايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا». وليس الصدق طريقا إلى رضوان الله -سبحانه- وعظيم مثوبته فحسب، بل هو طريق النجاح فى الحياة، وهو الصراط المستقيم الذى يصل بصاحبه إلى التوفيق فى سلوكه، والرشاد فى سعيه، وهو بذلك طريق النجاة فى الدنيا والآخرة.

وأما الكذب فليس وراءه إلا ضلال القصد، وسوء العاقبة، مهما بدا للنظر القاصر غير ذلك، وفى هذا يقول النبى ﷺ: «تحروا الصدق، وإن رأيتم أن الهلكة فيه، فإن فيه النجاة»[1].

وبذلك يصبح الصدق فى نظر المسلم سنة من سنن النجاح فى الدنيا، والفلاح يوم القيامة، وقانونا من قوانين الإيمان يعكس نظرة المسلم إلى الحياة، ويدل على طريقه الذى ارتضاه.

ومن هنا يبلغ المسلم الغاية فى طلب الصدق، فيحرص على أن يعتاد لسانه قول الحق، فى الصغير والكبير، وفى الجد واللعب حتى يصبح الصدق سمة من سماته، وصبغة من خلقه لا تزول، مهتديا فى ذلك بقول الرسول ﷺ: «لايؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى المزاح»[2].

وبقوله ﷺ: «من قال لصبى تعالى هاك -أى لأعطيك- ثم لم يعطه فهى كذبه»[3].

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه أحمد.

وليس وراء ذلك غاية فى تزكية النفس، وتهذيب الخلق، والسمو بالإنسانية إلى أعلى مراتبها فى رعاية الحق، وإيثار الصدق فى كل شأن وعمل.

إن الصدق فى نظر المسلم، وفى مفهوم الإسلام، ليس وصفا لالتزام الحقيقة فى القول، والحرص على الصواب فى المنطق فحسب، ولكنه وصف لاتجاه المسلم فى حياته، وحقيقة تدل على معدنه، ونوضح طريقه.

فالصدق فى العمل يعنى إخلاص النية واجتناب الرياء الذى يحبط العمل، ويفسد الحياة، ويجعلها زورا لا حقيقة وراءها.

وهكذا فإن المسلم يصدق مع ربه، كما يصدق مع نفسه ومع الناس، فيصبح ظاهره كباطنه فى الصفاء، والطهر، والاستقامة، ويجعل وسائله فى حياته شريفة كغاياته، فهو يعلم من كتاب ربه، أن الكذب سبيل الضلال بل هو طريق الكفر، لأنه مذهب لا يختلف، وطريق تدل بدايته على نهايته، فمحال أن يختاره مسلم يبغى لنفسه حسن العاقبة: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾ [النحل: ١٠٥].

وأقبح الكذب وأشده عقابا ما انتهكت به الحرمات، وضاعت به الحقوق، كشهادة الزور، التى تقلب ميزان العدل، وتغير وجه الحق، فتشيع المظالم، ويظهر الفساد، ولذلك نهى الإسلام عنها أشد النهى، وشدد النكير على من يشهدونها. فجعلها من أكبر الكبائر عند الله، كما يقول الرسول ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ -ثلاثا- قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وقتل النفس -وكان متكئا فجلس- وقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور. فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[1].

ومن هنا فإن التزام المسلم بالحق، وحرصه على رعايته مهما كلفه ذلك من عناد يعود على المجتمع كله بالطمأنينة، ويسبغ عليه ظل الأمان، حتى ليصل

(١) رواه البخارى.

المسلم إلى درجات عالية من المثالية والتضحية، ومجانبة النفع الذاتى، فى سبيل خير المجتمع، والحفاظ على حقوق الإنسانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

ومعنى ذلك أن الصدق فى ميزان المسلم الحق غاية فى ذاته.. دون النظر إلى نفع، أو حرص على مصلحة: إنه شهادة لله، واستقامة مع سنته فى الكون والحياة، وليس وراء ذلك مثالية ولا ارتقاء بالإنسانية.

٢- أداء الأمانة:

الأمانة خلق من أخلاق المسلم الأصيلة التى تنبع من عقيدته، وتدل على صدق اتجاهه، وشرف غايته.

ولهذا كانت الأمانة من لوازم الإيمان، وكانت الخيانة من علامات الجحود والكفران، كما يقول الرسول ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[١].

والأمانة بمعناها الحقيقى فى نظر المسلم صفة نفسية تملى على صاحبها سلوكا لا يتبدل إزاء كل ما يعهد إليه القائم به، وكل ما يلتزم ويتحمل مسئوليته.

وهى بهذا تحيط بكل تبعات الحياة الصغيرة والكبيرة، وتتناول كل الأعباء التى يحملها الإنسان، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته»[٢].

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه البخارى.

غير أن العبء يعظم، والمسئولية تتأكد، كلما اتسع النطاق، وثقلت الأمانة. فالولاية على الناس، ورعاية أمورهم، أمانة كبرى، لا يستشرق لها المسلم إلا حين يثق فى قدراته على حملها، وكفاءته أمام أعبائها، وصدق نيته فى إشاعة الخير بين الناس، وكبح نوازع الشر عنه.. وإلا عرض نفسه للحساب، وجلب عليها سوء العقاب.

عن أبى ذر قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملنى؟ (أى تسند إلىَّ عملا أقوى به؟) قال: فضرب بيده منكبى ثم قال: «يا أبا ذر: إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها»[١].

والحق أن ضياع تلك الأمانة من علامات انتهاء الحياة فى الأرض، وأمارات اقتراب القيامة، وهو دليل على فساد الحياة، واختلال موازينها.

فقد جاء رجل يسأل رسولا الله ﷺ: متى تقوم الساعة؟ فقال له: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» فقال: وكيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسِّد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة»[٢].

ومن هنا فإن المسلم يحسن القيام بكل ما يعهد به إليه، ويعلم أنها أمانة يسأل عنها ويتوقف مصيره على أدائها. والمسلم الحق يعلم أن النعم والمواهب أمانة، وعطاء مشروط بأن يتجه به الإنسان إلى سبيله القويم.

ومن العجيب أن كثيرا من الناس يهلكون أنفسهم، فيجحدون فضل الله، ويضعون نعمه فى غير مواضع الشكر والطاعة.

وتلك خيانة تجلب على صاحبها الشقاء فى الدنيا والآخرة، والمسلم يعلم أنه مسئول عن تلك النعم التى ابتلاه الله بها، فيحرص على أن يروجها فى سبيل

---

(١) روا مسلم.
(٢) رواه البخارى.

الخير، وأن يرعى فيها حدود الله، فيستديمها بالشكر وينجح فيما يعرض له من ابتلاء.

مدركاً خطر المسئولية التى تتجلى فى قوله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن عمله ماذا عمل به»[١].

أما جانب المعاملة فإنه موطن عظيم من مواطن الأمانة التى يجب أن تتجلى فى المسلم حتى يتضح يقينه بما للناس من حقوق.

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء: ٥٨].

فما يجوز أن يستبيح المسلم لنفسه من حقوق الناس شيئاً، وإن هان، فإن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين الذين يعلمون أن كل المسلم على المسلم حرام.. دمه وماله وعرضه.

وقد بين الرسول ﷺ أن الله سبحانه قد يغفر حقوقه، ويصفح عن سيئات عباده، ولكنه لا يعفو عن حقوق العباد.

ففى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار- أى اجتازوا الصراط- حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيتقاضون مظالم كانت بينهم فى الدنيا».

ولهذا فإن ضمير المسلم يستيقظ، وإحساسه يرق، فيؤدى الأمانة للناس جميعا وصدق رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[٢].

وذلك هو الإسلام الحق الذى يشيع الأمن بين الناس، ويحفظ لكل فرد حقه، ويصون حرماته.

---

(١) رواه الترمذى.
(٢) رواه أحمد.

إن المسلم يعلم أن حياة الإنسان فى هذه الدنيا مجموعة من الأمانات صغيرة كانت أم كبيرة. وهو مطالب بأن لا يخون فيها ولا يفرط فى أدائها.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ولكن العجيب أن سلوك أكثر الناس فى هذه الدنيا يتسم بالخيانة والتفريط..! وهذا ما سجله القرآن الكريم فى قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

نعم.. لقد كانت الحياة منذ قامت مسرحاً للجهالات وميدانا للتظالم، مما يجعل الخيانة سمة بارزة لكثير من المجتمعات والعصور، ولا عاصم من ذلك إلا صدق الإيمان، ويقظة الضمير، التى تبرىء صاحبها من الظلم، والجهل، وتشد يده بعرى الأمانة والإيمان.

٣- العفــو:

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

صلة المسلم بالناس تشملها السماحة ويظللها الحلم؛ ويحيط بها العفو والتجاوز وضبط النفس. إن ذلك من علائم التقوى، وأمارات الإيمان، كما أنه من دلائل قوة النفس وسموها، واعتدادها بإيمانها، وارتفاعها عن سوءات الحقد، ومشاعر السوء. وقد كان ذلك المعنى من معانى الإيمان التى بدل الإسلام أفهام العرب عن القوة والبأس، فقد كانوا من قبل يظنون أن القوة فى الانتقام والغلبة.

ولذلك قال الرسول ﷺ لأصحابه: «ما تعدون الصرعة فيكم؟» (أى القوة والشجاعة) قالوا: الذى لا تصرعه الرجال، قال: «لا، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب»[1].

---

(١) رواه مسلم.

فذلك هو الذى نضج إيمانه وقهر هواه وسيطر على نوازعه وسلوكه. ولئن كانت المشاعر الغريزية للإنسان تدفعه إلى الانتقام والانتصار، وتغريه أن يقابل السوء بمثله، فهذا حق أباحه الإسلام للنفس البشرية مقيدا بعدم التجاوز كما يقول الله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ [البقرة: ١٩٤]. وكما يقول فى أوصاف المؤمنين: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ [الشورى: ٣٩].

لكن الإسلام بعد تقرير هذا الحق، أهاب بالإنسان أن يسمو إلى منزلة أعظم من ذلك وأكرم، منزلة ينالها المسلم بإيمانه وتقواه، وله بها أعظم الأجر من الله.

وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾ [الشورى: ٤٠].

وذلك يجعل المسلم يؤثر ثواب الله على شفاء الغيظ وإجابة نداء الانتقام ويصفح عن أخيه رجاءً لما عند الله من عظيم الأجر فقد تكفل بمرضاته وإثابته؛ جزاء تجاوزه عن الإساءة وترفعه عن الانتقام، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فأجره على الله﴾ وكما قال الرسول ﷺ : «إذا كان يوم القيامة ينادى مناد: ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة، وهم العافون عن الناس»[1].

إن المسلم يعلم أن الحلم والعفو منزلة من منازل الإيمان. وليس علامة ضعف ولا أمارة جبن. إنه أمارة اليقين بأن الله صاحب الحساب والجزاء، وبأن ثوابه الذى أعد للعافين عن الناس، خير من لذة الانتصار والانتقام. ولذلك يرقى المسلم إلى تلك الدرجة العليا وذلك الثواب العظيم يبين ذلك قول النبى ﷺ: «من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق، حتى يخيره فى أى الحور شاء»[2]. وهذه دلالة على استحقاقه الجنة، وفوزه برضوان الله.

---

(١) رواه الطبرانى بإسناد حسن. وهو من حديث طويل بمعناه.

(٢) رواه أبو داود.

إن الإسلام يجعل العفو والصفح سبيلا من سبل التهذيب الخلقى ينظف القلب من مشاعر الحقد، ويطهره من نزعات السوء، وبذلك يرتفع يقين المسلم، ويثبت إيمانه ويبلغ كماله، فتعلو منزلته عند الله ويعظم ثوابه.

يقول الرسول ﷺ: «إلا أنبئكم بما يشرف الله به البينان، ويرفع الدرجات؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك»(١).

وذلك سمو بالإنسانية إلى أرفع درجة يطبقها الإنسان، فيهذب نفسه ويطهرها من نوازع الشر وبواعث الانتقام.

والمسلم فى ذلك العفو والتسامح يصدر عن وعى بأمن المجتمع وسلامته، فهو يعلم أن صغار الشرر تهيج كبارها، وأن التنازع يؤدى بقوة الجماعة. فالخصومة، والقطيعة بين الأفراد والجماعات، تهدم أمن المجتمع وتزلزل أركانه، وتجعله مسرحا للفتن والأحقاد. ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وهو يعلم أن رباط الأخوة من القوة والأصالة؛ بحيث لا تفصمه الضغائن، أو أزمات الحياة وصعاب المعاملة. فالأخوة بين المسلمين يجب أن تكون أقوى من المنازعات والأحقاد. فإن الصلة بينهم من صنع الله يقويها اجتماعهم على دينه، ونصرتهم لشريعته. ومن هنا يصبح العفو ضرورة يحتمها حفظ الكيان الاجتماعى ويدعو إلى ما يجب أن يشيع بين المسلمين من حب ورحمة حتى تنمو الصلات وتقوى الروابط. ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وإذا كان هذا شأن المسلم فى الصفح والغفران عن زلات أخيه، فإنه بالأحرى لا يعتدى عليه ولا ينتهك حرمته. فالعدوان جريمة ينبغى ألا يفكر فيها مسلم، وأمامه قول الرسول الكريم: كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»(٢).

---

(١) رواه الطبرانى.

(٢) أخرجه الستة إلا النسائى وهذا لفظ مسلم.

فأينما نظر المسلم إلى أخيه فلن يجد منفذا للشر ينفذ منه إليه، مادامت الأخوة بينهما قائمة، ومادام الحق والعدل يظلل المجتمع كله. فلا سباب ولا نزاع ولا قتال من المسلمين، وإلا فهو الفسق والكفر، كما يقول النبى ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[1]، وكما يقول: «ما من مسلمين إلا وبينهما ستر من الله عز وجل، فإذا قال أحدهما لصاحبه كلمة هجر، خرق ستر الله»[2]. تلك هى الصلة التى تنبغى بين المسلمين. لقد جعلهم الله أخوة وذكرهم بنعمته التى تستوجب الشكر وتستأهـل العرفـان: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فلابد للمسلم من أن يقى الناس شره، وحذرهم رسولهم من الفتنة والفساد، وبصرهم بعواقب التنازع حين قال: «فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[3]؛ فيسلمون من لسانه ويده، وأن يشمل اخوانه صفحه وتسامحه، فذلك أجدى عليه وعلى الإنسانية جميعاً.

٤- الصبـر:

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الصبر من أخلاق المسلم ووسائله فى الحياة التى هداه إليها القرآن: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وهو من دلائل صدق الإيمان، فإنه لا يصبر لحكم الله إلا مؤمن به، مقدر لحكمته، مبتغ لثوابه فى الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

---

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه البيهقى.

(٣) رواه البخارى.

والمسلم يعلم أن الصبر ضرورة فى هذه الدنيا.

فالدنيا ميدان فسيح تعاقبت عليه الأجيال، واختلفت عليه الأمم، فواجهتهم طبعة الحياة، ومازال هذا الميدان يستقبل أجيال البشر بطبيعة لا تتغير وحقيقة لاتختلف، يشير إليها قول الله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالصبر يجعل المسلم يحسن التصرف فى كل موقف، ويواجه الحياة بمشاعر ثابتة، وقلب مطمئن. فإن ذلك هو ما يقتضيه الإيمان وما يضمره اليقين.

وهل هناك ما يحفز الهمم على الصبر للنجاح فى معركة الابتلاء أعظم من قوله سبحانه: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ولئن كان كل إنسان يحب أن تسير الأمور على هواه، فإن للقدر خطة محكمة ونهج مرسوم.

وليس أمام الإنسان إلا أن يتقبل الأحداث ويواجه الواقع، بتسليم ورضا، فإن ذلك خير له فى الدنيا والآخرة، أما الجزع والسخط فإنه يحرمه راحة الدنيا وثواب الآخرة.

والمسلم يعلم أن قوة الله لا تقهر، وإرادته لا تغلب، ومشيئته لا ترد، ورحمته من وراء ذلك للصابرين، وهدايته للموقنين، وإن قلبه ليغمره الرضا، وتملؤه السكينة حين يتلو قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

فالرضا والاحتمال نعمة كبرى يهبها الله للصابرين، الذين يرضون بحكمه،

ويستسلمون لإرادته، فيكتسبون طمأنينة النفس وثقة القلب وصلاح البال، وهذا خير عطاء وأفضل نعمة، كما يقول رسول الله ﷺ : «.. ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيراً أوسع من الصبر»[١].

والمسلم يعلم أن الابتلاء مهما اشتد فهو خير له فى الدنيا والآخرة، بل هو دليل على أن الإيمان يعمر قلبه وأن القدر يرشحه بذلك للدرجات العلى.. ولهذا كان الابتلاء سنة لا تتبدل فى حياة المصطفين الأخيار.

فإن قلوبهم عامرة باليقين، مزودة بطاقة من التحمل والثبات.. فقد سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة»[٢].

ومن هنا فإن الإسلام لا يهن أمام البلاء، ولا ينكص على عقبيه إن مسته الضراء، لأنه يعلم أن للإيمان تبعات، وأن المكاره طبيعة الحياة التى يميز الله بها الخبيث من الطيب ويمحص بها الصدق من الادعاء: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٢].

فإذا انتهت هذه الدنيا وانطوت صفحتها، فإن للصابرين من عظيم الأجر وكريم الجزاء، ما ينسيهم ما لقوا فى الحياة من جهد وعناء: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

وهذا الأجر الجزيل فى دار الخلود لا تقاس به نعمة أو سلامة فى الدنيا الفانية مهما طالت، التى يزول نعيمها وتنسى لذتها. ولذلك «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقارض»[٣].

---

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه ابن حبان.
(٣) رواه الترمذى.

والمسلم يميز ببصيرته بين المواطن التى يحمد فيها الصبر، والتى يتخذها من الصبر سلاحا ماضيا فى جهاده وكفاحه فى سبيل الحق فهو لا يصبر على الذل ولا يرضى بالضيم ولا يستسلم للطغيان: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾** [النساء: ٩٧].

أما صبر المسلم فإنه قوة دافعة تجعله أصلب عودا وأشد بأسا فلا يجزع ولا يفزع: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [آل عمران: ٢٠٠].

المبحث العاشر
الإيمان وتفكر المسلم فى ملكوت الله

إن العلم فى نظر المسلم هو قمة الهدى التى يبلغها الإنسان، وهل الإيمان إلا نوع من العلم بالله، وتصحيح النظرة إلى الكون والحياة، محوطا بالحقائق والدلائل؟ ولهذا يجعله القرآن مقابلا للكفر الذى هو جهل وضلال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

إن المعركة مع الكفر هى معركة مع الجهل والخرافة، إذ يقوم الكفر على أوهام وأكاذيب لا سند لها ولا برهان: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

ومن هنا كان شقاء الجاحدين حين اتبعوا أهواءهم وقدسوا أوهامهم ولم يبحثوا عن الحق ولم يتحروا الصواب: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩].

وذلك ما يجعل المسلم حريصا على العلم معولا عليه فى بلوغ الحقيقة واستقامة الطريق.

والمسلم يرى فى آيات الكتاب أنها إنما أنزلت للعالمين، الذين يخرجون من أسوار الجهالة ويفتحون عقولهم لضياء المعرفة: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].. فأولئك الذين يستجلون آيات الله يفهمون دلائل وجوده وقدرته، ولهذا كان الإيمان الصحيح بحاجة إلى قاعدة من التسليم، وهداية من العقل تساند الشعور وتوجه العاطفة، وتمد القلب بألوان من الطمأنينة واليقين.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٧، ٩٨].

إن ذلك يلفت الأنظار إلى مشاهد الكون، ويجعلها سبيلا إلى معرفة الخالق، وفهم أسرار الحياة. فما كان الشرك بالله إلا عن جهالة بقدره وذهول عن عظمته المتفردة ومشيئته المطلقة: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]. ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. وما يكون التوحيد والإيمان الصادق إلا عن وقوف على حقائق الكون، وإدراك للقدرة التى تفردت بذلك الإبداع. وإلى هذا يشير القرآن بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

ومن هنا فإن المسلم لابد أن يبرأ من الجهالة التى كانت ومازال علة التكذيب والجحود ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٩٣].

إن إيمانه يرتقى به إلى آفاق سامية من المعرفة والهداية. وهو يبدأ فى العلم بأولى المعارف وبديهات الحقائق، من الإيمان بالله ولقائه وما ينبغى له. ثم يطلق بصره فى الآفاق يتعلم كل خير ويتبصر فى كل ما يحيط به ويدرك من قضايا الوجود وحقائقه ما يشاء.

وهو يعلم أن دائرة العلم فى الإسلام أوسع من أن تحد وأشمل من أن تحصر بنوع أو اتجاه. فالمسلم يتعلم كل ما ينفعه وكل ما يطمح له ويستعد، ويعلم من كتاب ربه أن العلم الذى تميز آدم به على الملائكة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. وليس الأمر إدراك أسماء، بل هو خبرة بالمسميات ومعرفة بطبائعها وأحوالها، وفى هذا ما يشير إلى دور العلم فى حياة الإنسان وأثره فى تذليل الحياة له.

لكن المسلم يعلم أن العلم لا خير فيه ولا أثر له إن لم يهد إلى الحقيقة الأولى، وهى معرفة الله سبحانه وتعالى.. وإلا فما فائدة أن يعلم الإنسان من

خصائص الكون وطبائع الأشياء ما يعلم، ثم يغفل عن الخالق الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. . !؟

إن العلم هنا لم يقم بدوره ولم يهد الإنسان إلى حقيقة وجوده ومهمته فى حياته.

ولهذا ينعى القرآن الكريم على حضارات البشر الجاحدة التى تركتهم قطيعا هملا لا تتعدى معارفهم المادة وظواهرها دون أن ينفذوا إلى الحقائق، أو يعقلوا المعانى.

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨]. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٦، ٧].

وإنا لنرى الحضارات المادية فى عصرنا تنفذ إلى كثير من حقائق العلم المادى وتصل إلى آفاق عليا فى شتى ميادينه. . ولكن تصورها للحياة ومعرفتها بحقيقة الكون وغايته لا تعدو أن تكون معرفة ظاهرة، تشوبها الخرافات والأوهام أو الجحود والنكران، فما يتناسب تفوقها العلمى مع حظها من إدراك الحق وصلتها بالله خالق الكون والإنسان.

أما الإسلام فإنه يرتب كل الحقائق ويبنى صروح العلم على أساس اليقين بوجود الله وتوجيه الحياة إلى طاعته، فالعلم فى نظر المسلم وحدة متكاملة لايتناقض بعضها البعض، ولا تنقسم إلى شطر نظرى وآخر عملى، بل تقوم على مبدأ واحد وإدراك متكامل لا تعدد فيه ولا انفصام.

إن الإسلام يجعل العلم بمعناه الواسع فريضة على كل مسلم. . وفى سبيل ذلك نوه القرآن الكريم بأداة العلم ووسيلته، وهى الكتابة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥].

ومن هنا يدفع القرآن، الإنسان إلى أفسح آفاق العلم والمعرفة.

وقدوة المسلم فى ذلك رسوله الكريم ﷺ، الذى وجهه القرآن أن يطلب المزيد من العلم وأن لا يقف عند حد منه مادام يجد إليه سبيلا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وموسى الكليم الذى لم يستنكف أن يبغى المزيد من العلم وتعرف الحقائق، بعد أن أوتى الرسالة، فقطع المسافات فى البحر يطلب المعرفة ويبحث عن الحق.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٥، ٦٦].

وهو توجيه راشد، بابتغاء العلم من أى سبيل والجهد فى طلبه، فإن «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها»[١].

ويكفى أن يكون طلب العلم طريقا إلى الجنة، ليعلم المسلم أن العلم النافع باب الإيمان: من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة»[٢].

«إن الملائكة لتضع أجنحتها على طالب العلم رضا بما يصنع»[٣]، ولا ينتهى دور المسلم عند طلب المعرفة والاستزادة من العلم، بل إن ذلك يضع على كاهله عبئا هو أن يعلم الجاهل ويرشد الضال وينشر ضياء المعرفة فى كل مجال. فذلك أفضل المراتب التى يبلغها المسلم، كما يقول الرسول ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[٤]. وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يعيشوا العلم ويبلغوه: «ليبلغ الشاهد الغائب»، ويقول: «بلغوا عنى ولو آية»[٥]. بل إن كتمان العلم جرم كبير يؤذى صاحبه ويشقيه: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة».

وذلك يجعل من المسلم الحق ضياء لمجتمعه وأداة نافعة لدينه ودنياه.

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى.

(٣) أخرجه البخارى وأبو داود والترمذى.

(٤) أخرجه البخارى.

(٥) أبو داود والترمذى.

المبحث الحادى عشر
الإيمان والأمن النفسى

كما لا يتحسر المؤمن على الماضى باكياً حزيناً، ولا يلقى الحاضر جزعا ساخطا، لا يواجه المستقبل خائفاً وجلاً، ولا يعيش فى فرع منه، ورهبة من غموضه، وتوجس من جبروته، كأنه عدو شرير متربص، بل يعيش آمن النفس كأنه فى الجنة . . إن إيمانه كان مصدر أمنه، والأمن من ثمرات الطمأنينة والسكينة بل هو نوع منها، إنه طمأنينة تتعلق بالمستقبل، بكل ما يتوقعه الإنسان ويخاف منه، أو يخاف عليه، ولا سعادة بدون هذا الأمن النفسى . . وقد قيل لحكيم: ما السرور؟ فقال: الأمن فإنى وجدت الخائف لا عيش له.

ولا عجب أن جعل الله الجنة دار أمن وسلام كاملين فأهلها فى الغرفات آمنون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتتلقاهم الملائكة منذ اللحظة الأولى ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦].

الإيمان مصدر الأمان:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

إن الناس يخافون من أشياء كثيرة، وأمور شتى، ولكن المؤمن سد أبواب الخوف كلها، فلم يعد يخاف إلا الله وحده، يخافه أن يكون فرط فى حقه، أو اعتدى على خلقه، أما الناس فلا يخافهم، لأنهم لا يملكون له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

دعا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى توحيد الله، وتحطيم الأصنام، فخوفه قومه من آلهتهم التى دعا إلى نبذها، فقال إبراهيم متعجبا: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨١]. وقد عقب الله على ذلك حاكما بين

الفريقين فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وفسر النبى ﷺ الظلم فى هذه الآية بالشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]. فبين لنا أن الإيمان والتوحيد هما أعظم أسباب الخوف والاضطراب والرعب. وصدق الله إذ قال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١].

والملحدون الجاحدون أكثر الناس مخافة -وإن كتموها عن الناس- إنهم يخافون الزمن والكوارث، والفقر والمرض والناس، وأشد ما يخيفهم الموت، فهم ينظرون إليه نظرتهم إلى سبع فاتك، وعدو متربص، ونهاية مجهولة، ومصير مخوف.

المؤمن آمن على رزقه:

هو آمن على رزقه أن يفوت فإن الأرزاق فى ضمان الله الذى لا يخلف وعده، ولا يضيع عبده، وقد خلق الأرض مهاداً وفراشاً وبساطاً، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وجعل فيها معايش ووعد عباده فيها بكفالة الأرزاق وعداً كرره وأكده وأقسم عليه. وعد كريم لا يبخل، قدير لا يعجز، حكيم لايعبث: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]. ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣]. ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمنا على رزقه، مطمئنا إلى أن الله لن يهلكه جوعاً، وهو الذى يطعم الطير فى الوكنات، والسباع فى الفلوات، والأسماك فى البحار، والديدان فى الصخور.

ولقد كان المؤمن يذهب إلى ميدان الجهاد حاملا رأسه على كفه، متمنيا الموت فى سبيل عقيدته، ومن خلفه ذرية ضعاف، وأفراخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر، ولكنه كان يوقن أن يتركهم فى رعاية أب كريم، هو أبر بهم وأحنى عليهم منه.

وتقول الزوجة عن زوجها وهو ذاهب فى سبيل الله: أننى عرفته أكالا وما عرفته رزاقا، ولئن ذهب الأكال لقد بقى الرزاق!.

المؤمن آمن على أجله:

وهو آمن على أجله، فإن الله قدر ميقاتا مسمى، أياما معدودة وأنفاسا محدودة، لا تملك قوة أن تنقص من هذا الميقات أو تزيد فيه ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٤]. ﴿**وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا**﴾ [المنافقون: ١١]. ﴿**إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [نوح: ٤]. ﴿**وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ**﴾ [فاطر: ١١].

أيقن المؤمن أن الله قد فرغ من الآجال والأعمار، وكتب على كل نفس متى تموت وأين تموت؟.

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت فى أرض سواها

وبهذا ألقى عن كاهله هم التفكير فى الموت والخوف على الحياة. وهذا الأمن على الرزق والأجل منح المؤمن السكينة والطمأنينة، كما منحه القوة فى مواجهة الحياة وما فيها من طغيان وجبروت.

هدد الحجاج سعيد بن جبير بالقتل فقال له: ولو علمت أن الموت والحياة فى يدك ما عبدت إلها غيرك!.

والمؤمن لا يخاف الموت: ويعيش فى خوف من الموت، وجزع من مرارة كأسه، إنه زائر لابد من لقاءه، وقادم لا ريب فيه، والخوف لا يرده، والجزع لايثنيه، ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ**﴾ [الجمعة: ٨]. ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا**

يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ويهون الموت على المؤمن أنه سبيل الناس قبله من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فلا عليه اقتفى أثرهم، وسار فى دربهم.. إن الموت خطب قد عظم حتى هان وخشن حتى لان، إنه بلية عمت، والبلايا إذا عمت طابت، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ومتاع الدنيا أهون عند المؤمن من أن يأسى على فراقه بالموت، كيف والموت قنطرته إلى المتاع الباقى، والنعيم السرمدى؟ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧].

فالموت ليس عدما محضا، ولا فناء صرفا، إنه انتقال من حياة إلى حياة، ومن طور إلى طور، وفى الأثر «إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار».

وما الموت إلا رحلة غير أنها من منزل الفانى إلى المنزل الباقى

الموت انطلاق من قفص الجسد وغلافه -فى الحياة البرزخية- ثم عودة إليه فى نشأة أخرى يوم البعث والنشور.

إن الله -وهو الجواد المطلق- لا يسلب نعمة أنعم بها إلا وهو يعطى نعمة أكبر منها، فلا يسلب هذه الحياة الضعيفة القيمة التى لا تستحق أن تسمى الحياة الباقية إلا ويعطى حياة أوسع وأبقى وأجمل وأفضل».

وقال يحيى بن معاذ «لا يكره لقاء الموت إلا مريب، فهو الذى يقرب الحبيب من الحبيب».

ولم تكن هذه نظرة الخاصة أو المتفلسفة أو المتصوفة فقط للموت، ولكنها كانت نظرة جمهور المؤمنين.

قيل لأعرابى اشتد مرضه: إنك ستموت، فقال: وإلى أين يذهب بى بعد الموت؟ قالوا: إلى الله، فقال: ويحكم، وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده؟

وصدق الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

المبحث الثانى عشر
الإيمان والأمل لدى المسلم

من مصادر الأمن والسكينة لدى المؤمن: ما يغمر جوانحه من أمل ذلك الشعاع الذى يلوح للإنسان فى دياجير الحياة فيضىء له الظلمات، وينير له المعالم ويهديه السبيل، ذلك هو الأمل الذى به تنمو شجرة الحياة، ويرتفع صرح العمران، ويذوق المرء طعم السعادة، ويحس ببهجة الحياة.

الأمل قوة دافعة تشرح الصدر للعمل، وتخلق دواعى الكفاح من أجل الواجب، وتبعث النشاط فى الروح والبدن، وتدفع الكسول إلى الجد، والمجد إلى المداومة على جده، والزيادة فيه تدفع المخفق إلى تكرار المحاولة حتى ينجح، وتحفز الناجح إلى مضاعفة الجهد ليزداد نجاحه. إن الذى يدفع الزارع إلى الكدح والعرق أمله فى الحصاد، والذى يغرى التاجر بالأسفار والمخاطر، أمله فى الربح، والذى يبعث الطالب إلى الجد والمثابرة أمله فى النجاح، والذى يحفز الجندى إلى الاستبسال أمله فى النصر، والذى يهون على الشعب المستعبد تكاليف الجهاد أمله فى التحرر، والذى يحبب إلى المريض الدواء المر أمله فى العافية، والذى يدعو المؤمن أن يخالف هواه ويطيع ربه أمله فى رضوانه وجنته.

والأمل إذن هو أكسير الحياة، ودافع نشاطها، ومخفف ويلاتها، وباعث البهجة والسرور فيها. ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل! والأمل -قبل ذلك كله- شىء حلو المذاق، جميل المحيا فى ذاته، تحقق أو لم يتحقق. وعندما يذهب الأمل يحل اليأس، وهو بداية التعثر والفشل فإذا يئس التلميذ من النجاح.. نفر من الكتاب والقلم، وضاق بالمدرسة والبيت، ولم يعد ينفعه درس خاص يتلقاه، أو نصح يسدى إليه، أو تهيئة المكان والجو المناسب لاستذكاره، أو... أو ... إلا أن يعود الأمل إليه. وإذا يئس المريض من الشفاء كره الدواء والطبيب، والعيادة والصيدلية، وضاق بالحياة والأحياء، ولم يعد يجديه علاج، إلا أن يعود الأمل إليه. وهكذا إذا تغلب اليأس على إنسان أى إنسان اسودت

الدنيا فى وجهه وأظلمت فى عينيه، وأغلقت أمامه الأبواب، وتقطعت دونه الأسباب، وضاقت عليه الأرض بما رحبت.

وأصبح لا يدرى إن كان داريا أقـدامـه خير لـــه أم وراءه

ذلك هو اليأس: سم بطىء لروح الإنسان، وإعصار مدمر لنشاط الإنسان، وتلك حال اليائسين أبد الدهر، ولا إنتاج للحياة، ولا إحساس بمعنى الحياة.

تلازم اليأس والكفر:

وليس بعجيب أن تجد الكافرين أيأس الناس. كما نجد اليائسين أكفر الناس، فهناك ارتباط بين اليأس والكفر، كلاهما سبب للآخر، وثمرة له، اليأس يلد الكفر، والكفر يلد اليأس ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف: ٨٧]. ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾ [الحجر: ٥٦].

وأظهر ما يتجلى هذا اليأس فى الشدة ونزول الشر، وقد كرر القرآن ذمه لهذا النوع من الناس فقال: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ**﴾ [هود: ٩]. ثم استثنى من ذلك بعد: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [هود: ١١]. وقال: ﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا**﴾ [الإسراء: ٨٣]، ﴿**وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ**﴾ [فصلت: ٤٩].

وليس اليأس من لوازم الكفر فحسب، بل من لوازم الشك أيضا. فكل من فقد اليقين الجازم بالله ولقائه، وحكمته وعدله، فقد حرم الأمل والنظرة المتفائلة للناس والكون والحياة، وعاش ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود قاتم، ويرى الأرض غابة والناس وحوشا والعيش عبثا لا يطاق.. على نحو ما قال أبو العلاء: هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد. وقال:

لا تبك ميتا ولا تفرح بمولود فالميـت للدود والمولود للدود!

الإيمان يلد الأمل:

فالمؤمن أوسع الناس أملا، وأكثرهم تفاؤلا واستبشارا، وأبعدهم عن التشاؤم والتبرم والضجر، إذ الإيمان معناه الاعتقاد بقوة عليا تدبر هذا الكون لا يخفى عليها شيء، ولا تعجز عن شيء، والاعتقاد بقوة غير مصورة، ورحمة غير متناهية، وكرم غير محدود، الاعتقاد بالله قدير رحيم، يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، يمنح الجزيل، ويغفر الذنوب، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، إله هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأبر بخلقه من أنفسهم. إله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

إله يفرح بتوبة عبده أشد من فرحة الضال إذا وجد، والغائب إذا وفد، والظمآن إذا ورد.

إله يجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أو يزيد، ويجزى السيئة بمثلها أو يعفو.

إله يدعو المعرض عنه من قريب، ويتلقى المقبل عليه من بعيد، ويقول: «أنا عند حسن ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة»[1].

إله يداول الأيام بين الناس، فيبدل من بعد الخوف أمنا، ومن بعد الضعف قوة، ويجعل من كل ضيق فرجا، ومن كل هم مخرجاً، ومن كل عسر يسراً.

المؤمن الذى يعتصم بهذا الإله البر الرحيم، العزيز الكريم، الغفور الودود ذى العرش المجيد، الفعال لما يريد، يعيش على أمل لا حد له، ورجاء لا تنفصم

---

(١) حديث قدسى رواه البخارى وغيره.

عراه، إنه دائما متفائل، ينظر إلى الحياة بوجه ضاحك، ويستقبل أحداثها بثغر باسم، لا بوجه عبوس قمطرير.

فهو إذا حارب كان واثقا بالنصر، لأنه مع الله، فالله معه، ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣].

وإذا مرض لم ينقطع أمله فى العاقبة ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠].

وإذا اقترف ذنبا لم ييأس من المغفرة، ومهما يكن ذنبه عظيماً فإن عفو الله أعظم ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وهو إذا أعسر لم يزل يؤمل فى اليسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾ [الانشراح: ٥، ٨]. ولن يغلب عسر يسرين أبداً. قال ابن مسعود: لو دخل العسر جحرا لتبعه اليسر.

وهو إذا انتابته كارثة من كوارث الزمن كان على رجاء من الله أن يأجره فى مصيبته ويخلفه خيراً منها ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

وهو إذا عادى أو كره، كان قريباً إلى الصلة والسلام، راجيا فى الصفاء والوئام، مؤمنا بأن الله يحول القلوب ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

وهو إذا رأى الباطل يقوم فى غفلة الحق أيقن أن الباطل إلى زوال، وأن الحق إلى ظهور وانتصار ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨] ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٨]

وهو إذا أكردته الشيخوخة، واشتعل رأسه شيبا، لم ينفك يرجو حياة أخرى فيها شباب بلا هرم، وحياة بلا موت، وسعادة بلا شقاء ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: ٦١، ٦٢].

انظر إلى أنبياء الله وما تأملوا من الله عز وجل، وكيف عاشوا على هذا، واستجاب الله لهم، وحقق لهم الأمل والسكينة فانظر إلى خليل الله إبراهيم وهو شيخ كبير ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]. فاستجاب الله له وبعث إليه الملائكة، وهو فى صورة ضيوف من البشر فقالوا له ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٢-٥٦].

وقد أثنى على ربه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ويعقوب بعد أن طالت غيبة ولده يوسف عنه، وبعدت مسافة الزمن بينه وبينه، وكان جديرا أن يفقد الأمل فى لقائه، ثم فجع بحجز شقيقه من بعده فى حادثة صواع الملك، لكنه مع هذا لم يتسرب إلى فؤاده اليأس، بل قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

وحين أبدى أسفه على ابنه يوسف قال له أبناؤه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: ٨٥، ٨٦]. ثم ألقى إلى أبنائه بحقيقة ما فى نفسه من أمل حلو تعززه الثقة بالله أن يجمع شمله بأبنائه فقالوا: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

﴿زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٢-٦]. فاستجاب له الله سبحانه: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

ويونس قد ابتلعه الحوت ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وموسى حين يسرى بقومه لينجو بهم من فرعون وجنوده، فيعلمون بمسراه ويحشدون الحشود ليدركوه ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦٠-٦١]. وأى إدراك أكثر من هذا؟ البحر من أمامهم والعدو من ورائهم !! بيد أن موسى لم يفزع ولم ييأس، بل قال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. ولم يضع أمله سدى.. ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦].

ومحمد ﷺ يلجأ إلى غار ثور فى هجرته مع صاحبه الصديق، ويقتفى المشركون آثار قدميه، ويقول قائدهم: لم يعد محمد هذا الموضع.. فإما صعد إلى السماء من هنا، وإما هبط إلى الأرض من هنا.. ويشتد خوف الصديق على صاحب الدعوة وخاتم النبيين ويبكى ويقول: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فيقول له النبى: ما ظنك باثنين الله ثالثهما، وكانت العاقبة ما ذكره القرآن ﴿إِلَّا

تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

اشتد أذى المشركين بأصحابه، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم فى ثقة ويقين: «تفرقوا فى الأرض فإن الله سيجمعكم».

وجاءه أحد الصحابة «حباب بن الأرت» وكانت مولاته تكوى ظهره بالحديد المحمى فضاق بهذا العذاب المتكرر ذرعا، وقال للرسول ﷺ فى ألم: ألا تدعو لنا؟ كأنه يستبطىء سير الزمن ويستحث خطاه ويريد حسم الموقف بين الإيمان والشرك بدعوة محمدية تهتز لها قوائم العرش، فينزل الله بأسه بالقوم المجرمين كما أنزله بعاد وثمود والذين من بعدهم.

وغضب النبى ﷺ لهذه العجلة من صاحبه: وألقى عليه درسا فى الصبر على بأساء اليوم، والأمل فى نصر الغد، فقال: «إن الرجل قبلكم كان يمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، وينشر بالمنشار فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه. والذى نفسى بيده ليظهرن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه.. ولكنكم تستعجلون!!»[1].

وفى الهجرة من مكة، والنبى خارج من بلده خروج المطارد المضطهد الذى يغير الطريق، ويأوى إلى الغار، ويسير بالليل، ويختفى بالنهار.. وفى الطريق يلحقه الفارس المغامر سراقة بن مالك وفى رأسه أحلام سعيدة بمائة ناقة من حمر النعم - جائزة قريش لمن يأتى برأس محمد حيا أو ميتا- ولكن قوائم جواده تسوخ فى الأرض ويدركه الوهن، وينظر إليه الرسول ﷺ ويكشف له عن الغيب

---

(١) رواه البخارى.

المستور لديه فيقول له: «يا سراقة كيف بك إذا ألبسك الله سوارى كسرى؟» فيعجب الرجل ويبهت ويقول: «كسرى بن هومز؟» فيقول: «نعم».

ويذهب الرسول ﷺ إلى المدينة، ويبدأ فى كفاح دام مرير مع طواغيت الشرك، وأعوان الضلال، وتسير الحرب -كما هى سنة الله- سجالاً، حتى تأتى غزوة الأحزاب فيتألب الشرك الوثنى بكل عناصره، والغدر اليهودى بكل تاريخه، ويشتد الأمر على النبى ﷺ وأصحابه، قريش وغطفان ومن يحطب فى حبلهما من خارج المدينة، واليهود والمنافقون من الداخل، موقف عصيب صوره القرآن بقوله: ﴿**إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١)**﴾.[الأحزاب: ١٠، ١١]. فى هذه الساعات الرهيبة التى يذوى فيها عود الأمل، ويخبو شعاع الرجاء، ولا يفكر المرء إلا فى الخلاص والنجاة.. فى هذه اللحظات والنبى ﷺ يسهم مع أصحابه فى حفر الخندق حول المدينة يصدون بحفره الغزاة، ويعوقون الطامعين العتاة – يحدث النبى ﷺ أصحابه عن الغد المأمول، والمستقبل المرجو حين يفتح الله عليهم بلاد كسرى بفارس، وبلاد قيصر بالشام، وبلاد اليمن بالجزيرة العربية، حديث الواثق المطمئن الذى أثار أرباب النفاق فقالوا فى ضيق وحنق: إن محمداً يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الخلاء وحده! أو كما قال القرآن: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾.[الأحزاب: ١٢].

ماذا تسمى هذا الشعاع الذى يبزغ فى دياجير الأحداث من القلوب الكبيرة، فينير الطريق ويبدد الظلام؟ إنه الأمل، وإن شئت فهو الإيمان بنصر الله ﴿ **يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦)**﴾ [الروم: ٥، ٦].



أثر الإيمان في حياة المجتمع وأنظمته وشئونه

المبحث الأول : أثر الإيمان في حياة المجتمع.

المبحث الثاني : الآثار الاجتماعية للعقيدة الصحيحة.

المبحث الثالث : الآثار الاقتصادية للعقيدة الصحيحة.

المبحث الأول
أثر الإيمان فى حياة المجتمع

الحدود بين الفرد والمجتمع متداخلة متشابكة، وليس من المستطاع بسهولة أن يقال: هذا أمر يؤثر فى الفرد، وهذا أمر يؤثر فى المجتمع، فما المجتمع فى واقع أمره إلا أفراد ربطت بينهم روابط مشتركة، وكل جهد يبذل لتكوين الفرد الصالح، هو عمل أصيل لتكوين المجتمع الصالح.

ومثل المجتمع البشرى كمثل البنيان المرصوص، ومثل الأفراد فيه كمثل اللبنات للبنيان، فإذا كانت اللبنات قوية متينة، وكانت المادة التى تربط بينهما قوية الربط وإحكام الالتحام والتماسك بينها. قام منها بناء قوى مكين، فالعمل الأول فى البناء يجب أن يتجه إلى اللبنات وإعدادها.

وإذا نظرنا إلى ما تقدم – من أثر الإيمان فى حياة الفرد –نجد أن الفرد الذى يتمتع بسكينة النفس، وأمن الروح، ويتذوق نعمة الرضى ويستروح نسمات الأمل، ويحيا فى خلال الحب الفسيح، ويحس بالقوة عليها بناء اجتماعى سليم.

والمجتمع الذى تشيع بين أفراده السكينة والأمن، والرضى والأمل، والحب والشعور بالكرامة، مجتمع يشق طريقه إلى السعادة والرقى والاستقرار.

ألا وإن أخص ما يميز المجتمع الراقى، المجتمع الفاضل، المجتمع السعيد هو التمسك والترابط، المجتمع الفاضل هو الذى يتعارف أبناؤه فلا يتناكرون، ويتحابون فلا يتباغضون، ويتعاونون فلا يتخاذلون، ويتعاملون فيما بينهم بالعدل والرحمة، فلا يبغى بعضهم على بعض، ولا يقسو بعضهم على بعض فلا ينسى الواجد المحروم، ولا يهمل القادر العاجز، ولا يأكل الكبير الصغير كالسمك، ولا يعدو القوى على الضعيف كسكان الغابة.

وشر ما يصيب المجتمع هو التفكك وضعف الروابط بين أبنائه، وذلك بغلبة

الأنانية على أنفسهم، فيذكر المرء نفسه وينسى أخاه، ويقول كل واحد نفسى، ولا يبالى أن يجعل من الناس قرابين تقدم لإله أطماعه وشهواته.

شر ما يصيب المجتمع أن يقول كل فرد فيه: لى ولا يقول: علىّ.. أن تتضخم «أنا» فى نفسه على حساب غيره، فينظر إلى نفسه نظرة استعلاء واستكبار، وإلى الناس نظرة الازدراء والاحتقار.

ومثل ذلك فى الشر أن يفقد الإنسان إحساسه بذاته، وشعوره بكرامته، وبما وهبه الله من قوة، وما آتاه من نعمة. وحينئذ تموت فى نفسه الحوافز الكريمة، والبواعث الطيبة، ولا ينمو فى جوانحه إلا الشعور بالضعف والهوان والضياع والفراغ، وهى مشاعر قتالة للفرد، وبالتالى هدامة لصرح المجتمع.

وإذن فلابد من حد وسط يقف عنده الفرد. يحس بذاته وكرامته إحساساً لاينال من ذات غيره وكرامته وحقه باعتباره إنساناً، وبذلك يعمل أبناء المجتمع معاً، ويسيرون إلى الهدف المشترك جنباً إلى جنب، متعاونين على البر والتقوى، متواصين بالحق والصبر.

والمجتمع فى حاجة إلى ضوابط تحكم علاقاته ومعاملاته بعضه لبعض، فلا تطغى الغريزة على العقل: ولا القوة على الحق، ولا الهوى على الواجب، ولا المنفعة الخاصة على المصلحة العامة. وهذه الضوابط لا تؤدى مهمتها إن لم تكن ضوابط أخلاقية، مبعثها النفس، ومصدرها الضمير.

ولهذا كان كل بناء أو إصلاح أو تغيير اجتماعى لا يقوم على إصلاح الأنفس وإيقاظ الضمائر، وتربية الأخلاق، أشبه ببناء على كثبان من الرمال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

القانون وحده لا يكفى لضبط السلوك الإنسانى:

أما القانون فهو أمر لابد منه لتنظيم شئون الجماعة وتحديد علاقاتها، ولكنه لا يصلح وحده ضابطاً لسلوك البشر، لأن سلطانه على الظاهر لا على الباطن،

ودائرته فى العلاقات العامة لا فى الشئون الخاصة، ومهمته أن يعاقب المسىء دون أن يستطيع مكافأة المحسن، على أن التحايل على القوانين ميسور، وتطويع نصوصها للأهواء مستطاع، والهرب من عقوباتها ليس بالشىء العسير، وإذا كان القانون عاجزاً عن أن يكون زاجراً عن الشر ورادعاً عن الجريمة والفساد، فإنه لأعجز عن أن يكون دافعاً إلى خير أو باعثاً على حق أو حافزاً على عمل صالح.

ومهما افترضنا فى القانون الإنسانى من مطابقة العدل، فإنه على كل حال ليس له قوة ذاتية، وإنما قوته فى «الحكومة» القائمة على رعايته وتنفيذه.

ويقول السيد جمال الدين الأفغانى فى هذه الحكومة، وأنها لا تكفى فى إلزام النفس حدود العدل[1]: «ليس بخاف أن قوة الحكومة إنما تأتى على كف العدوان الظاهر، ورفع الظلم البين، أما الاختلاس والزور المموّه والباطل المزين والفساد الملون بصبغ من الصلاح، ونحو ذلك مما يرتكبه «أرباب الشهوات»، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه؟ وأنى يكون لها الاطلاع على خافيات الحيل، وطاعنات الدسائس، ومطويات الخيانة، ومستورات الغدر حتى تقوم بدفع ضرره؟

وعلى أن الحاكم وأعوانه قد يكونون ممن تملكهم الشهوات، فأى وازع يأخذ على أيدى أصحاب السلطة، ويمنعهم من مطاوعة شهواتهم المتساقطة على عقولهم؟ وأى غوث ينقذ ضعفاء الرعايا وذوى المسكنة منهم من شر أولئك المتسلطين وحرضهم؟

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز فى كتابه «الدين»:

«لا قيام للحياة فى الجماعة إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته. وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع وازع؛ يكفل مهابته فى النفوس ويمنع انتهاك حرماته.

---

(١) جمال الدين الأفغانى: الرد على الدهريين، القاهرة، الحلبى، د.ت، ص ٧٢.

ونقرر أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافىء الدين. أو تدانيها فى كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، وطلب أسباب الراحة والطمأنينة فيه.

والسر فى ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شىء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ولا يوضع فى يده ولا فى عنقه، ولا يجرى فى دمه ولا فى عضلاته، ولا فى أعصابه، وإنما هو معنى إنسانى روحانى اسمه الفكرة والعقيدة، ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران بها.

أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهرة، وليست قوانين الجماعات ولاسلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل؛ فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

ومن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدهما ضمانا للسلام والرخاء، وعوضا عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى؛ ذلك لأن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير. ولابد فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسان وعمارة الأرض لا إلى الشر والفساد ذلكم الرقيب هو «العقيدة والإيمان»[(١)].

بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق، وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون!

الدين هو المصدر الفذ المعصوم الذى يعرف منه حسن الأخلاق من قبيحها، والدين هو الذى يربط الإنسان بمثل أعلى يرنو إليه، ويعمل له، والدين هو

---

(١) محمد عبدالله دراز: الدين، القاهرة، دار النهضة، د.ت، ص ٢٢.

الذى يحد من أنانية الفرد، ويكفكف من طغيان غرائزه، وسيطرة عاداته، ويخضعها لأهدافه ومثله، ويربى فيه الضمير الحى الذى على أساسه يرتفع صرح الأخلاق.

الإيمان والمثل الأعلى:

ما هم الإنسان الذى لا دين له ولا عقيدة؟ وما غايته من وجوده؟ وما رسالته فى الحياة؟

أغايته رضوان الله؟ إنه لا يؤمن به ولا يرجو له وقاراً.

أغايته الخلود والنعيم فى الحياة الأبدية؟ إنه لا يؤمن بها، ولا يفكر فيها.

إنه لا هم له ولا غاية ولا رسالة إلا أن يدور فى فلك نفسه، يتبع هواها ويحقق رغائبها العاجلة، ويسير خلف دوافعها أياً كانت، وفقاً لمزاجه وتكوينه الخاص.

فإن كان مزاجه من النوع العادى المسالم عاش فى الدنيا غافلا عن نفسه وعما حوله، حياً كميت، وموجوداً كمفقود، لا يحس أحد بحياته ولا يترك فراغاً بعد موته.

فذالك الذى إن عاش لم ينتفع به وإن مات لا تبكى عليه أقاربه

وإن كان يغلب على نفسه الجانب «البهيمى» جرى وراء الشهوات واللذات، يقتحم إلى بلوغها كل حرمة، ويسلك من أجلها كل طريق، لا حياء يردعه، ولاضمير يقمعه، ولا عقل يمنعه.

وإن كان مزاجه من النوع «العصبى» جعل همه العلو فى الأرض، والاستكبار، وإظهار السلطة والتحكم فى الرقاب، والفخر بلسانه، والاختيال بفعاله، ولم يهمه فى سبيل ذلك أن يبنى قصراً من جماجم، أو يزخرفه بدماء الأبرياء، شعاره ما قاله الشاعر الجاهلى:

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا ... ولكنا سنبدأ ظالمينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً ... تخر له الجبابر ساجدينا

وإن كان يغلب عليه الجانب «الشيطانى» دبر المكايد، وفرق بين الأحبة، ووضع الألغام ليدمر، وسمم الآبار ليقتل، وعكر المياه ليصطاد، وزين الإثم، وأغرى بالفاحشة، وأوقع العداوة والبغضاء بين الناس، وقال مع الشاعر:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما ... يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

وكان ممن حق عليهم قول الله : ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وهكذا يدور كل واحد من هؤلاء حيث تدور نفسه وينقاد لأمر هواه، والهوى يعمى ويصم، والهوى إله معبود ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

أما المؤمن فإنه يعيش لرسالة كبيرة، ويعمل لهدف رفيع، ويحيا فى ظل مثل عليا، يعيش لها ويموت عليها هى: القربى إلى الله، والتخلق بأخلاقه، والسعى فى مرضاته. وفى سبيل مثله يكبح جماح نفسه، ويتبع طغيان هواه، ويضغط على غرائزه وشهواته، احتسابا لله وإيثارا لما عنده، وابتغاء مرضاته، وإيمانا بحسن الثواب لديه، قد وضع نصب عينيه قول ربه جل شأنه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧)﴾ [آل عمران: ١٤-١٧].

فهذه هى الثمرات الأخلاقية للإيمان، وهذه هى صفات المؤمن التقى الذى آثر ما عند الله على شهوات الحياة: خشية من الله، وحرص على رضاه ومغفرته، وصبر وصدق وقنوت وإنفاق، بلا ادعاء ولا غرور، بل شعور بالصبر؛ يجعله يستغفر الله على كل حال.

إن المثل الأعلى للمؤمن أن يقترب من الله فى علاه، ويحصل على مثوبته ورضاه، وهذا يجعل حياته كلها موصولة الأسباب بالله، ويجعله يحيا دائماً وهو يرجو الله والدار الآخرة، ويجعل أكبر همه أن يتخلق بأخلاق الله، وينأى بنفسه عن مشابهة الأنعام والسباع والشياطين.

ولقد زعم بعض الكاتبين أن الدين كلف الناس شططا، بل محالا، حين طلب إليهم أن يتخلقوا بأخلاق الله، كأنه تصور أن هذه الدعوة تعنى أن يتحول الإنسان إلى إله!

وهذا وهم بعيد عن الصواب، لأن مطالبة الإنسان أن يتخلق بأخلاق الله معناه: المحالة الدائبة للصعود والترقى، والسعى المتواصل من قبل الإنسان ليقتبس من كمال الألوهية بقدر طاقته واستعداده البشرى.

إن الله عليم حكيم فليحاول الإنسان أن يتصف بالعلم والحكمة بقدر طاقته البشرية، والله رؤوف رحيم فليحاول الإنسان أن يتصف بالرأفة والرحمة بقدر طاقته البشرية، والله غنى كريم فليحاول الإنسان أن يتصف بالغنى والكرم بقدر طاقته البشرية، والله جبار متكبر فليحاول الإنسان أن يكون جباراً على المبطلين والطغاة متكبراً عن دنايا الأخلاق، وسفاسف الأعمال. والله عزيز ذو انتقام فليحاول الإنسان أن يكون عزيزاً على الكافرين، وذا نقمة على المفسدين الظالمين، والله شكور غفور فليحاول الإنسان أن يكون شكوراً لمن أحسن إليه، غفوراً لمن اعتذر إليه، والله على صراط مستقيم فليحاول الإنسان أن يكون على صراط مستقيم حتى لا تضل به المسالك الملتوية ولا تتفرق به السبل العوجة.

والله تعالى متصف بكل كمال، متنزه عن كل نقص؛ فيضع الإنسان نصب عينيه أن يبرأ من النقائص، وأن يتصف بالكمال حسب جهده.

فأى إيحاء أكرم وأعظم تأثيراً فى النفس الإنسانية من هذا الإيحاء: التخلق بأخلاق الله، والاقتباس من كمال الألوهية، وأى مثل أعلى يدانى هذا المثل الذى اتخذه المؤمن نصب عينيه أن يقترب من الله ويوثق صلته به، عن طريق العمل الصالح الذى يحبه الله ويرضاه.

متاع الحياة وخطره على الأخلاق:

ثم إن أخطر شىء على أخلاق الناس هو هذه الدنيا بمتاعها ومغرياتها، الدنيا بزخارفها وشهواتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة[١] والأنعام والحرث.

إن الغلو فى حب الدنيا هو رأس كل خطيئة والتنافس عليها أساس كل بلية. من أجل متاع الدنيا يبيع الأخ أخاه، ومن أجل متاع الدنيا يقتل الابن أباه، ومن أجلها يخون الناس الأمانات، وينكثون العهود، ومن أجلها يجحد الناس الحقوق، وينسون الواجبات، ومن أجلها يبغى الناس بعضهم على بعض ويعيشون كسباع الغابة أو أسماك البحار، يفترس القوى الضعيف، ويلتهم الكبير الصغير، ومن أجل شهوات الدنيا ومفاتنها يغش التجار ويطففون، ويتجبر الرؤساء ويستكبرون، ويجور القضاة ويرتشون، ويطغى الأغنياء ويترفون، وينافق ضعفاء النفوس ويتزلفون.

من أجل الدنيا يكتم العالم ما يعلم أنه الحق، ويفتى بما يعتقد أنه الباطل.

ومن أجل الدينا يروج الصحفى الكذب والزور، ويخفى الحقائق، وهى أوضح من فلق الصبح.

---

(١) تمثلها الآن السيارات الفارهة بمختلف أصنافها وألوانها.

من أجل الدنيا يهجو الشاعر كل حليم رشيد، ويزف عرائس المديح إلى كل سكير وعربيد.

من أجل الدنيا تسفك الدماء، وتستباح الحرمات، وتداس القيم، ويباع الدين والشرف والوطن والعرض وكل معنى إنسانى كريم.

أجل إن حب الحياة والأمل فيها جزء من فطرة الإنسان، ولولا ذلك ما عمرت الأرض، ولا ترعرعت شجرة الحياة فلم يكن مما ينافى الحكمة أن يزين للناس حب الشهوات، ولكن الخطر كل الخطر أن يستغرق الناس فى حب الدنيا وطول الأمل فيها، وأن تكون هذه الحياة القصيرة أكبر همهم ومبلغ علمهم، ومنتهى آمالهم، شأن أولئك الذين لا يرجون لقاء الله ولا يؤمنون بيوم الحساب. أولئك الذين يؤمنون بالآخرة ولكنهم عنها مشغولون ولها ناسون، ولهذا علمنا رسول الإسلام ﷺ أن تدعو الله فتقول: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولامبلغ علمنا».

إنه لابد من حب آخر وأمل آخر، أوقى من حب الحياة الدنيا ومن الأمل فيها، وليس ذلك إلا حب الآخرة والأمل فى لقاء الله، والطمع فى مثوبته ورضوانه، والخوف من حسابه وعذابه، وإن هذه المعانى من الحب والأمل والطمع والخوف هى العواصم المنجية من أخطار المحبة للدنيا والحرص عليها والركون إليها. إنها «صمام الأمن» من خطر الإغراق، والإسراف فى الإقبال على شهوات الحياة.

وذلك هو دور الإيمان الذى يغمر قلب صاحبه يقيناً بالآخرة، ورجاءً فيما عند الله، ومن هنا تكرر وصف المحسنين والمتقين فى القرآن بقوله: ﴿**وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة: ٤، والنمل: ٣، ولقمان: ٤]. وفى مقابل ذلك فى شأن الطغاة والمجرمين ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾**﴾ [النبأ:٢٧، ٢٨]. وفى مشهد من مشاهد الآخرة يقص علينا القرآن تساؤل المؤمنين فى الجنة عن المجرمين فى النار ﴿**مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ**

الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٧]. وقال فى شأن فرعون وملائه: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]. ولو ظنوا أنهم إلى ربهم راجعون، وعليه معرضون، ما أقدموا على ما فعلوا، من الجرائم البشعة، والمذابح الرهيبة، والمظالم القاسية.

إن المؤمن بالله والآخرة هو الذى يستطيع أن يعلو على شهوات الدنيا، وأن يطرح مغرياتها وراء ظهره، وأن يركل متاعها بقدمه ويقول لها ما قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: «يا صفراء يا بيضاء، غرى غيرى إلى تعرضت أم إلى تشوقت؟ قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها»! بل يقول ما قاله الرسول ﷺ حين دخل عليه عمر، وهو على حصير قد أثر فى جنبه فقال له: يا رسول الله لو اتخذت فراشا أوثر من هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «مالى وللدنيا؟ وما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها»[1].

الإيمان وحده هو الذى يعطى المؤمن هدفا أكبر من الدنيا، ويشده إلى قيم أرفع وأبقى من شهواتها.

الإيمان وحده هو الذى يعطى صاحبه القدرة على مقاومة إغراء الدنيا وفتنتها. إنه قد يملك ولكنها تملكه، وقد تمتلىء بها يداه ولكنه لا يمتلئ بها قلبه، ذلك أنه يعيش فى الدنيا بروح المرتحل، كأنه غريب أو عابر سبيل، ومن عاش فى الدنيا بهذه الروح فلا خوف عليه من امتلاك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، إنه يحيا فى الدنيا بقلب أهل الآخرة، ويمشى وقدمه فى الأرض وقلبه موصول بالسماء.

المؤمن وحده هو الذى امتلأ يقينا بأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأنها قنطرة عبور إلى الحياة الباقية، وأن ركعتين خاشعتين لله عند الله خير من

---

(١) رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى.

الدنيا وما فيها، وأن غدوة أو روحه فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها. وأن موضع قدم الإنسان فى الجنة خير من الدنيا وما فيها. وحسب المؤمن أن يعلم أن أنبياء الله ورسله وأولياءه عاشوا فى الدنيا معذبين مضطهدين، وأن أعداءه وأعداء رسله من الكفرة والمكذبين والملحدين كثيراً ما عاشوا منعمين مترفين.

﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

ليس معنى هذا أن يقعد المؤمن عن السعى فى الحياة، أو يحرم على نفسه طيباتها، أو يدع عجلتها لقيادة الكفار والفجار.

كلا، إنه مأمور أن يعمر الدنيا، وأن ينميها ويرقيها، مأمور أن يمشى فى مناكب الأرض ويأكل من رزق الله فيها، وينعم بطيباتها، ويسخرها لخدمة رسالته وعقيدته، وأن يكون فيها سيداً لا عبداً.

إن الاستعلاء على متاع الدنيا والاستكبار على شهواتها ومغرياتها، ليس معناه أبداً تحريم طيباتها، أو تعطيل مصالحها، أو تعويق سيرها، إنما المقصود أن تكون الآخرة مراد المؤمن، وغاية سعيه، فلا يكون ممن يريد حرث الدنيا، ممن يريد العاجلة.. ممن وصفه القرآن الكريم بأنه ﴿طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ [النازعات: ٣٧، ٣٨]. وخاطب الرسول ﷺ فى شأنه بقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

بل يجب أن يكون المؤمن ممن أراد الآخرة سعى لها سعيها، واتخذ الدنيا وسيلة لا غاية، وممراً لا مقراً.

إن الذى لا يوقن بالآخرة يقينا جازما، يصعب فطامه عن شهواته، وصرفه عن مجونه ولذاته، لأنه لا يرضى أن يبيع لذة حاضرة يقينية، من أجل لذة آجلة مشكوك فى وقوعها عنده.

إن الإيمان قوة قاهرة غلابة، أقوى من الغرائز والشهوات، وأقوى من سلطان العادات، وأقوى من كل المؤثرات.

سلطان الغريزة وسلطان الإيمان:

لا ريب أن للغرائز فى دفع الإنسان سلطانا لا ينكر، ولكن المثل العليا التى يعيش لها المؤمن تعلو به على الغرائز وسلطانها.

والغريزة الجنسية بخاصة لعلها أعتى الغرائز وأقواها، حتى إن فى علماء النفس من فسر بها السلوك البشرى كله، مثل «فرويد»: وهو تفسير حيوانى يتجاهل غرائز الإنسان الأخرى، وسائر ملكاته الروحية ودوافعه النفسية، وليس هنا موضع مناقشته.

وفى الشباب تتجلى هذه الغريزة على أشدها، فالشباب شعلة متوهجة لعظم طاقته الحيوية، وقوة دوافعه النفسية، وقلة علمه وتجاربه فى الحياة، بجانب أحلامه وخيالاته الكثيرة، فماذا يمنع الشاب الناضر الفتوة، القوى الغريزة أن يقضى شهوة جنسية مع امرأة لا تحل له إذا تيسرت له أسبابها، وتهيأت وسائلها دون خشية من عقاب أو قانون أو أعين الناس.

لا شىء يمنعه إلا الإيمان.. هذا ما حدث ليوسف عليه السلام: شاب فى ريعان الشباب، مكتمل الرجولة، رائع الفتوة، تدعوه إلى نفسها امرأة ذات منصب وجمال، ليست من عامة الناس ولكنها امرأة العزيز التى هو فى بيتها وهو عبدها وخادمها، والأبواب مغلقة، والسبل ميسرة، كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[يوسف: ٢٣].

فماذا كان موقفه أمام هذا الإغراء، وتلك الفتنة التى تخطف الأبصار! ألانت قناته فاستسلم وخان عرضا مؤتمن عليه؟ كلا إنما قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولقد حاولت المرأة بكيدها ومكرها وبكل ما لديها من ألوان الإغراء والتهديد

أن تذيب من صلابته وضعضع من شموخه، وأعلنت ذلك لنسوتها فى ضيق وغيظ: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

ولكن الشاب يوسف اتجه إلى الله يسأله المعونة والعصمة ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

كانت فتنة ضمير المؤمن، ومغريات الإثم، ففشلت المغريات وانتصر الإيمان.

والغريزة من شأنها أن تطلب متنفسا، فإن طال حبسها خيف عليها الانفجار مالم يحجزها سد الإيمان.

وهذه امرأة يغيب عنها زوجها فترة طويلة من الزمن، فتخيم عليها كآبة الوحشية، ويهجم عليها هواجس الوحدة. ويثور فى عرقها دم الأنوثة، وينطلق فيها صوت الغريزة فلا يصده إلا حاجز الإيمان، وفى جنح الليل باتت تنشد:

لقد طال هذا الليل واسود جانبه ... وأرقنى ان لا حبيب أداعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه ... لزحزح من هذا السرير جوانبه

وغريزة المقاتلة التى عبر عنها الأقدمون، بالقوة الغضبية، أو القوة السبعية، والتى تثير الإنسان أن يرد الصاع صاعين، وتدفعه إلى التدمير والانتقام، وبها يبدو كالوحش الهائج، أو الإعصار المدمر، جمرة من النار يلقيها شيطان الغضب فى جوفه فتنتفخ أوداجه، وتحمر عيناه، ويبدو كأن له مخالب وأنيابا.

ما الذى يقلم أظافر هذه الغريزة، ويلقى على هذه الجمرة المتقدة ماء الهدوء السلام؟

إنه الإيمان الذى يحمل المؤمن أن يكظم الغيظ، ويعفو عمن ظلمه، ويحلم على من جهل عليه، ويحسن إلى من أساء إليه، ويجعله يحس فى مرارة جرعة الغيظ حلاوة يجدها فى صدره.

وقد قص علينا القرآن الكريم قصة بنى آدم بالحق: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧]. فما كان من ابن آدم الشرير إلا أن قال لأخيه: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾ قال المؤمن الصالح: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٧، ٢٨].

خوف الله إذن هو الذى يكف الأيدى أن تمتد بالأذى، وإن التهبت الغريزة، ودفعت إلى العدوان وقد قال عمر: «من اتقى الله لم يشف غيظه. ومن خاف الله يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون».

وكلم رجل يوما عمر بن عبدالعزيز، فأساء إليه حتى أغضبه -وهو أمير المؤمنين- فهم به عمر ثم أمسك نفسه وقال للرجل: أردت أن يستفزنى الشيطان بعزة السلطان فأنال منك ما تناله منى غداً؟ -أى فى الآخرة- قم عافاك الله، لاحاجة لنا فى مقاومتك.

الإيمان ينتصر على الأنانية:

وغريزة الأنانية أو حب الذات غريزة عاتية جبارة، لا يكاد يخلو بشر من سلطانها عليه، وقوة دفعها له، وتوجيهها لسلوكه، وإنك لترى الناس تدفعهم الأنانية إلى التنافس على الدنيا ومتاعها، ويدفعهم التنافس إلى التنازع والاختصام، ويدفعهم ذلك إلى ادعاء ما ليس لهم، وجحود ما عليهم من حق، وأكل أموال الناس بالباطل، وعندما يطل شيطان الخصومة برأسه لا يكون إلا حب الغلب بأى ثمن، وأية وسيلة.

ولكن عنصر الإيمان إذا دخل المعركة أطفأ لهب الخصومة، فصارت نارها برداً وسلاما، وحطم طغيان الأنانية فاستحالت تسامحا وإيثاراً، وحلق بالمؤمن من المتاع الأدنى إلى المثل الأعلى.

وفى القصة التى روتها أم سلمة زوج الرسول ﷺ واضح على مبلغ أثر الإيمان

رجلان يختصمان فى مواريث، وليس لهما بينه إلا دعواهما، كلاهما يقول: هذا حقى، وينكر على صاحبه أن يكون له حق.. ويحتكم الرجلان إلى رسول الله ﷺ وفى صدر كل منهما فرديته وأنانيته. فيصدع إلى رسول الله ﷺ آذانهما وقلبيهما بهذه الكلمات الحية: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض. فأقضى له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيت له من حق أخيه بشىء فلا يأخذ منه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار»[١].

سمع الرجلان المختصمان هذه الكلمات الهادرة، فلمست أوتار الإيمان من صدريهما، ويقظت فيهما خشية الله والدار الآخرة. فبكى الرجلان وقال كل منهما لصاحبه: حقى لك!.

فقال النبى ﷺ أما إذا فعلتما ما فعلتما فاقتسما، وتوخيا الحق، ثم استهما، ثم تحالا[٢] «أى ليحل كل منكما صاحبه وليسامحه فيما عسى أن يكون حقه».

هنا كانت كلمة الإيمان، وكلمة الضمير الذى أيقظه الإيمان، هى القول الفصل، والقضاء العدل فى قضية يعجز القانون المجرد، والقضاء الظاهر، عن معرفة الحق فيها مادام الطرفان متنازعين، ولا بينة لأحدهما.

وقد قص النبى ﷺ على أصحابه قصة رجلين مؤمنين، ضربهما مثلا لما يجب أن يكون عليه المؤمنون من العفاف والزهد والإيثار. قال: «اشترى رجل من رجل عقارا له، فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرة فيها ذهب، فقال للذى اشترى العقار منه:

خذ ذلك عنى، إنما اشتريت منك الأرض ولم ابتع منك الذهب.

فقال الآخر: إنما بعتك الأرض وما فيها!

قال ﷺ: فتحاكما إلى رجل.. فقال الذى تحاكما إليه - ألكما ولد. فقال أحدهما: لى غلام.

---

(١) رواه الإمام البخارى.

(٢) القصة رواها مسلم فى صحيحه.

وقال الآخر: لى جارية.

فقال الحكيم: انكحوا الغلام الجارية، وانفقوا على أنفسكم منه وتصدقوا»[1].

وهكذا يرى الناس لونا ممتازا من النفوس، رجلان وأمامهما جرة فيها ذهب لا يتقاتلان عليها، ولكن يتدافعانها، يقول كل منهما لصاحبه: لك.. حين ترى الإنسان دائماً يقول: هذا لى.

تربية الإيمان:

هذا موقف، والموقف الآخر من تاريخنا العربى الإسلامى القديم:

فقد بعث محمد رسول الله ﷺ وللخمر فى المجتمع العربى سريان وانتشار، تجرى من نفوس أبنائه مجرى الدم، يتمدحون بشربها، ويفشون فى وصفها ووصف جالسها وندمائها وأقداحها، ويصور شاعرهم مدى تعلقه بها فيقول:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولم يستطع امرؤ القيس الشاعر المعروف -وقد بلغه قتل أبيه- أن يدع الكأس من يده، ويفارق مجلس ندمائه بل قال كلمته المشهورة: «اليوم خمر وغدا أمر».

ولم يعرف المجتمع الجاهلى إلا أفرادا معدودين على الأصابع عرفوا شرب الخمر مروءة وسجل له ذلك التاريخ كمأثرة نادرة، كزيد بن عمرو بن نفيل.

ومما يدل على اهتمامهم بالخمر أنهم وضعوا للتعبير عنها أسماء كثيرة، وكنايات مختلفة، وألقابا متعددة- المدامة، السلافة، الراح، الصهباء، ابنة العنقود، ابنة الكرم، بنت الحان، بنت الدنان.. إلى آخر الأسماء التى بلغت أكثر من مائة.

ومن أدلة شغفهم بها، وتمكنها من نفسهم، أن كثيرا من الصحابة بعد أن

---

(١) رواه أصحاب السنن.

نزلت الآيتان الأوليان فى شأن الخمر: ﴿ **قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ [البقرة: ٢١٩]. و ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**﴾ [النساء: ٤٣]. ولم يكن التحريم فيها صريحا حاسماً، ولم يزالوا يشربون الخمر مادام فى النص متسع لهم.

وذلك أن الإسلام تدرج معهم فى تحريم الخمر -رفقا بهم وتيسيرا عليهم- حتى نزلت آية المائدة الصريحة القاطعة: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ [المائدة: ٩١].

وهنا رأينا العجب.. رأينا الرجل يحكم كأسه، ويسفك ما عنده من خمر فى الطريق حتى تفيض طرقات المدينة بما كان عند الناس منها.

عن أبى سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس إن الله يبغض الخمر، ولعل الله سينزل فيها أمراً، فمن كان عنده شىء؛ فليبعه ولينتفع به (وذلك قبل التحريم النهائى)»، قال أبو سعيد: فما لبثنا إلا يسيراً، حتى قال: إن الله حرم الخمر، فمن أدركته هذه الآية- يعنى آية المائدة السابقة- وعنده منها شىء فلا يشرب ولا يبيع، قال أبو سعيد: فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها- أى صبوها وأسالوها[1].

وعن أنس قال كنت أسقى أبا عبيدة وأبى بن كعب فجاءهم آت فقال: إن الخمر حرمت.. فقال أبو طلحة: قم يا أنس فاهرقها.. فأهرقتها[2].

وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: وبينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة -أى حلالا- إذا قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ**﴾ إلى

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.

قوله تعالى ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فجئت إلى أصحابى، فقرأتها عليهم.. قال: وبعض القوم شربته فى يده شرب بعضا وبقى بعض فى الإناء.. فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما فى باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا.. انتهينا ربنا»[1].

فهل رأت البشرية مثل هذا انتصارا على النفس، وسرعة فى الاستجابة، وقوة فى الانقياد للأمر مهما يكن مخالفا للعادات، مصادما للشهوات؟.

الضمير ومكانة الأخلاق:

فى أعماق النفس الإنسانية قوة خفية لا تشاهد بالعين، ولا ترى بالمجهر، ولا يعرفها التشريح والفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء)، إنها قوة معينة يحسها الإنسان فى حناياه تهديه إلى الواجب كأنها كشاف ينير له الطريق، وتنجذب به إلى الخير كأنها الإبرة المغنطة، تجذب دائماً نحو الشمال، وتدفعه عن الشر كأنها صوت الأب يحذر ولده، أو الأستاذ ينصح تلميذه، فإذا خالف ما تأمر به أو ما تحذر كانت هذه القوة محكمة تقضى له أو عليه. تقضى له بالراحة والسرور والطمأنينة، أو تحكم عليه بالألم والقلق والعذاب.

هذه القوة الكاشفة الهادئة، الآمرة الناهية، المحذرة المحرضة، الحاكمة المنفذة، هى التى سماها علماء الأخلاق «الضمير» وسماها بعضهم «الوجدان» وسماها الإسلام «القلب» وقال الرسول ﷺ لمن جاء يسأله عن البر والإثم: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب. والإثم مالم تركن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون» وفى حديث آخر: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك».

هذا الضمير «أو الوجدان» «أو القلب» هو عماد الأخلاق، وركيزتها الأولى فهو -كما رأينا- يهدى إلى ما تشابه منها، ويرغب فى خيرها، ويزع عن شرها، ويقف ديدبانا يقظا على حراستها.

---

(١) رواه الطبرى فى تفسير آية المائدة.

والمجتمع. أى مجتمع، لا يرقى وينتظم ويسعد بسن القوانين، وإصدار القرارات وتنظيم اللوائح، ويقظة رجال السلطة، وإن كان لا يستغنى عن ذلك كله- وإنما يرقى وينتظم ويسعد، بوجود القلوب الحية، وتوافر الضمائر اليقظة بين أبنائه، ومن الحكم المشهورة: «العدل ليس فى نص القانون، وإنما هو فى ضمير القاضى.

أثر الإيمان فى تكوين الضمير:

والإيمان -بلا ريب- هو أعظم مدد للضمير، وأقوى «مولد» يغذيه ويمده «بالتيار» الذى يمنحه الضوء والحرارة والقوة المحركة.

فعقيدة المؤمن فى الله أولا، وعقيدته فى الحساب والجزاء ثانيا، تجعل ضميره فى حياة دائماً وفى صحو أبداً.

إنه يعتقد أن الله معه حيث كان، فى السفر أو فى الحضر، فى الجلوة أو فى الخلوة، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]. ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]. وقد كان المشركون يأتمرون برسول الله ﷺ فينزل الوحى من الله يفضح سترهم، ويكشف أمرهم، فقال بعضهم لبعض: غضوا أصواتكم حتى لايسمعنا إله محمد! فنزل قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

ويعتقد المؤمن لذلك أنه محاسب يوم القيامة على عمله، مجزى به إن خيراً أو شراً فما تقدم من عمل لم يذهب أيامه، بل كتبه «قلم التسجيل» الإلهى،

الذى يحصى له وعليه الصغيرة والكبيرة. ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٧،١٨]. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار:٩،١٠]. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وهذه السجلات الوافية لن يضيعها الإهمال، أو يمحوها مرور الزمان، إنما ستحفظ عند الله حتى يتلقاها صاحبها ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٣،١٤]

وحينذاك يجد ما كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم، ويذكر من الأعمال ما كان ناسيا ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

هناك توزن الأعمال من خير أو شر، من حسنات وسيئات، بميزان إلهى دقيق لا يعرف كنهه ولا كيفيته، فما الحساب الإلهى العادل ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وبعد ذلك فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧٣].

بهذه العقيدة فى الله، وفى الجزاء فى الآخرة يصبح المؤمن ويمسى مراقبا لربه محاسبا لنفسه متيقظا لأمره، متدبرا فى عاقبته، لا يظلم ولا يخون، ولا يتطاول ولايستكبر، ولا يجحد ما عليه، ولا يدعى ما ليس له، لا يفعل اليوم ما يخاف من حسابه غدا، ولا يعمل فى السر ما يستحى منه فى العلن، ويقول ما قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت، ولكن قل: على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه، عنه يغيب

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]. فقال: معناه: لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده.

وقال محمد بن على الترمذى: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عنك ملكه وسلطانه.

وسئل ذو النون: بم ينال العبد الجنة؟ قال بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة لله فى السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب.

إن الضمير الذى يربيه الإيمان برقابة الله وبحساب الآخرة ضمير حى يقظ مرهف الحاسية، يحاسب المؤمن قبل أن يقوم على العمل: ماذا تعمل؟ ولماذا تعمل؟ ولم تعمل؟ ويحاسبه بعد العمل: ماذا عملت؟ ولماذا عملت؟ وكيف عملت؟ هو قاض مستعجل يصدر حكمه سريعا بالمثوبة أو العقوبة مقصورة على الوخز النفسى والوازع المعنوى، إنه أحيانا يقرر عقوبات مادية أيضاً.

قال الحسن البصرى فى قول تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ما أردت بكلمتى؟ وما أردت بأكلتى؟ ماذا أردت بشربتى؟ والفاجر يمضى قدما لا يعاقب نفسه».

وقال أيضا: المؤمن قوام نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا، وإنما الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر

من غير محاسبة -ثم فسر المحاسبة فقال- المؤمن يفجؤه الشىء يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجتى ولكن هيهات. حيل بينى وبينك -وهذا حساب قبل العمل- ثم قال ويفرط منه الشىء، فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا حدث بهذا؟ والله لا أعذر بهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله - وهذا حساب بعد العمل.

قال مالك بن دينار: رحم الله امرأ قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زمها ثم خطها ثم ألزمها كتاب الله فكان له قائدا.

وقال إبراهيم التيمى. مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها.. ثم مثلت فى النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها.. ثم قلت لنفسى: يا نفس، أى شىء تريدين قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا، قال: فأنت فى الأمنية فاعملى!!.

وهذه طريقة اتخذها الرجل فى إيقاظ نفسه، وإن شئت فقل: فى إحياء ضميره. لقد تخيل المتوقع واقعا والغائب حاضرا، ثم قال لنفسه بعد أن عرض عليها الصورتين، تخيرى واعملى!!.

وهناك طريقة أخرى كان الأحنف بن قيس يصطنعها ليذكر نفسه بنار الآخرة وعذابها. كان يجيىء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه. يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

ومن أساليب محاسبة النفس ما روى عن توبة الصمة وكان محاسبا لنفسه أنه حاسبها يوما، فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها، فإذا هى واحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال: يا ويلتى؟ ألقى الله بواحدة وعشرين ألف ذنب! فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب!.

ومن الأمثلة لأحكام العقوبة التى يصدرها ضمير المؤمن، فيتقبلها، ويسرع إلى تنفيذها، ما روى عن أبى طلحة الأنصارى رضي الله عنه أنه اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه (بستانه) فتصدق بالحائط كفارة لذلك.

المبحث الثانى
الآثار الاجتماعية للعقيدة الصحيحة

١- لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى: ٢١، ٢٢].

فلا يقبل المجتمع المسلم تشريعا أو قانونا أو أمرا يتعارض مع شريعته مهما كان مصدره فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ومن يلجأ إلى مصادر أجنبية غريبة عن دينه يأخذ منها تشريعاته وقوانينه فهو من الظالمين، الذين يتوعدهم الله بالعذاب الأليم.

وتصور لنا الآية أن هذا العذاب الأليم سيقع لهم فى الدنيا ولن يستطيع الظالمون تحمله ورفع المعاناة عن أنفسهم نتيجة هذا الضلال والتخبط وسنرى بأعيننا ما هم فيه من شقاء وتعاسة، أما المؤمنون الذين التزموا بالأخذ بتشريعهم السماوى وحرصوا أن تكون أعمالهم الصالحة متفقة مع أوامر ربهم فلهم ما يشاءون عنده من فلاح ونجاح وتوفيق ورخاء ونصر وعزة ومنعة فى الدنيا وجنات ونعيم مقيم فى الآخرة، وذلك هو الفضل الكبير.

وليس لأحد غير الله سلطان فى هذه الأرض ولا ينخدع المسلمون بمظاهر الطغيان والاستبداد والقهر وهم يؤمنون بأن قدرة الله عز وجل فوق كل قدرة وأن كل ظالم مصيره إلى السقوط والهوان فما من طير طار وعلا إلا ترنح وهوى.. وإن الله عز وجل يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

٢- الشورى أمر تعبدى:

فالشورى مبدأ يرتبط بركن الصلاة ويتمشى معه ويأتى مقترنا بإقامته ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

فالشورى مهما اختلفت دوافعها وأساليبها ملزمة للحاكم فى الشئون العامة ولا ينفرد برأيه فى أمر من أمور الناس وهى ضرورية لرب الأسرة وصاحب العمل وقائد الجيش ومن تآمر على اثنين- فهى مفهوم أساسى للخلية الصغيرة والكبيرة فى المجتمع المسلم.

والاستبداد والتفرد بالرأى من السمات التى يحاربها الفكر والخلق المسلم ولايسمح لها بالتواجد فى مجتمعه أبدا حيث إنه بذرة الشرك بالله سبحانه وتعالى المنفرد بالرأى والمشيئة والقدرة، كما أنها أيضا انعكاس لكثرة من الأخلاق التى يحاربها الدين مثل الغرور والكبرياء والعظمة وبطر الحق وغمط الناس، واتباع الهوى، والتسلط على عباد الله وظلمهم.

٣- وولى الأمر لا يتقاضى أجراً بل يعطى ما يكفيه كواحد من أوسط الناس:

﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الشورى: ٢٣]. فليس للرسول أو الأمير أن يتقاضى أجراً على عمله ولكن يعطى ما يكفيه ومثله كمثل كفيل اليتيم ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

وهذه القاعدة فى الوظائف العامة تعنى عدم المغالاة فى الأجور والمكافآت والرواتب فالوظيفة العامة مغرم لا مغنم والأجر فيها يرجى من الله عز وجل أما ما يصرف من أجر فى الدنيا فيقدر حسب ما يكفى لرجل من أوسط الناس فإن زاد عن حاجته أودع الزيادة الخزينة العامة وردها إليها وإن نقص ولم يكفه فتقرر له الزيادة التى تكفيه فى غير إسراف ولا تقتير.. وهكذا كان الأمر فى خلافة أبى بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما.

ولعل هذا المبدأ كان الملهم لرافعي شعار «من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته» فالذين نادوا بهذا الشعار منذ قرن من الزمان أو يزيد لازالوا رافعين له كشعار بلا تطبيق ولا حتى أدنى أمل في قرب أو بعد على تطبيقه. أما المسلمون الأول فقد طبقوه وحرصوا عليه سواء في عطايا الرعية من بيت المال أم أجر الخليفة الحاكم والولاة المساعدين له.

وتطبيق هذا المبدأ هو أيضا أمر تعبدى سواء لحكومة المجتمع المسلم أو تجاه كل موظف عام لا شك أن تطبيقه سينتج عنه تغيير كامل فى دخول المجتمع ومحو الطبقية الاستغلالية المقيتة الرهيبة فى جو العدل، وتحقيق المساواة، والبعد عن الدخول المحرمة من غصب ورشاوى وعمولات.

إنه انقلاب فى مفهوم الأجر وتعريفه وتقديره وتحديده، فهناك أعمال يمكن أن تؤدى للدولة دون أن يتقاضى الموظف أجراً عليها ودون أن يؤثر ذلك فى إخلاص الموظف ودقة عمله، وهناك أجور لابد أن تخفض سيرا مع مفهوم هذا المبدأ كما أن هناك أجوراً يجب أن تزيد لتتفق مع نفقات الحياة ومستوى المعيشة وحاجة الأسر.

٤- الانتصار للمظلوم واجب:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: ٣٩]. ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

رفع المظالم والوقوف فى وجه الظالم وبجانب المظلوم سمة أساسية من سمات هذا المجتمع ولابد أن نهيىء جميع الأسباب لإبراز هذه الحقيقة فلا يعطى مسئول من السلطات ما يمكنه من رقاب الناس أو البغى فى شئون الحكم، كما يجب أن توسع دائرة الشورى ويمكن كل فرد من إبداء رأيه بحرية تامة فينتقد أى عمل أو قول للمسئول وأن يفسح له المجال فى كافة وسائل الإعلام التى يجب ألا تكون حكرا لفئات خاصة أو قطاع حكومى. بل أبوابها مفتوحة أمام جميع أبناء المجتمع ترحب بهم وبآرائهم.

ويجب أن تنتشر وسائل الإعلام بجميع صورها مرئية أو مسموعة أو مقروءة فتصبح حرة تماما ولا يمنع أحد من عمل شبكة إذاعية أو تليفزيون أو إصدار جريدة أو الخطابة فى اجتماعات عامة.

ويجب أن يكون التحقيق فى المظالم كبيرها وصغيرها خاضعا لأسلوب مبسط يمكن الجميع من رفع مظالمهم للتحقيق فيها وينهيها بأسرع ما يمكن فى ظل جو من العدالة وإحقاق الحق.

كما يجب أن يتضمن الدستور الضمانات التى تحافظ على هذا المبدأ وتربية المواطنين على احترامه حتى لا يعتدى أحد على حرية الآخرين وينزل الحاكم على إرادة المحكومين ويسود العدل الجميع، فالآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]. خطاب لمجتمع بجميع فئاته. فليس الانتصار للمظلوم وقفا على السلطة التنفيذية أو القضائية بل هو حق معترف به ومؤكد لجميع المواطنين أفراداً وجماعات. هو واجب عليهم سيسألهم الله عز وجل عنه، ويحاسبهم عن تقصيرهم فى أدائه.

ومجتمع يصبح العدل والحق فيه بهذه المكانة لابد أن يضع الضوابط التى تحافظ على هذا المبدأ وتعمل على سهولة تطبيقه وسيادته.

٥- الأخذ على يد الظالم:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢].

وتوقيع الجزاء العادل على الباغى والمسىء يجب أن يكون فوريا وليس هناك تجاوزاً وتسامحا فى جرائم الظلم التى تقع من أحد المسئولين على أبناء المجتمع المسلم لأن العفو فى هذه الحالة ضعف وخنوع واستسلام للظلم يدفع الظالم إلى الغلو والتمادى فى ظلمه ولا يوقفه عند حده.

ولهذا أيضا يجب أن ينص الدستور الإسلامى على طريقة لمحاكمة المسئولين

فى كافة درجات المسئولية بالأسلوب العادل الميسر وأن يكون التحقيق فى جرائم البغى السياسية والمالية والإدارية سريعا للبت فى براءة المتهم أو توقيع العقوبة عليه، وهذه العقوبة يجب أن تكون على قدر الجرم فلا يعفى عنها ولا يبالغ فيها إرضاءً لنزوات خاصة أو عامة ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

ورد الظالم ومقاومته من الحقوق الخاصة والعامة فهو حق لكل فرد يقع عليه الظلم ويجب على المجتمع أن يحميه ويدافع عنه ويمكنه من الوصول إلى حقه ولا حرج على المظلوم فى كل رد فعل يفعله للوصول إلى حقه والانتصار لنفسه من الظالم وعلى المجتمع بجميع فئاته أن يقف صفا واحدا مع المظلوم يحميه ضد الظالم الباغى الذى يعتدى على حقوق الآخرين.. ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢].

وإن وقوع الظلم واستمراره وعدم قدرة المواطنين على رفعه مع إنكاره بالقلب واللسان هو حالة من الحالات المحتملة الحدوث فى المجتمع المسلم ولكن الله عز وجل يؤكد لعباده الصالحين أن الذين ظلموهم ولم يقدروا عليهم فى الدنيا سينالهم أشد العذاب فى الآخرة وإن هذا الذل والعذاب الذى يذيقونه لهم اليوم سيرتد إليهم أضعافا مضاعفة غدا.. ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

كما أن الله عز وجل قد تخلى عنهم ولن يكون وليا ولا نصيرا لهم وسينالهم جزاؤهم فى الدنيا وحينما يسقطون عن عروشهم سيطأهم الجميع بالأقدام ولن يجدوا لهم شفيعا ولا نصيرا حتى أقرب الناس إليهم من أهليهم ومعاونيهم وأتباعهم.

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ

الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الشورى: ٤٤-٤٦].

إن المؤمن عندما ينظر إلى هذه الصورة إذا كان حاكما فلن يجرؤ على ظلم أن بغى أو عدوان، أما إذا كان محكوما فلن يأبه بوقوع الظلم وسيعمل دائماً على مقاومته فهو لن يخسر شيئا أبدا مهما حدث له بل الخاسر الوحيد دائما هو الظالم الذى خسر نفسه وأهله الموالين له وكل من اتبعه ونهج نهجه، وأعانه على ظلمه وهو الضال الذى أضله الله، وما له من سبيل إلى النجاة.

وإذا كانت الآيات تؤكد توقيع العقوبة على الظالم المسىء الذى يعتدى على حق من حقوق الأفراد أو المجتمع ولا تمنحه فرصة للعفو، فإننا نجد أن الفرد المعتدى عليه أو الذى وقع عليه ظلم من أخ له مطالب بأن يعالج هذا الموقف بشىء كبير من الحكمة التى تتسم بالصبر والعفو إبقاءً على الأخوة والمودة والعلاقات الطيبة بين أبناء المجتمع ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. وهناك فى كتاب الله الكثير من الآيات التى تؤكد هذا المعنى. كذلك فى السيرة المطهرة مواقف رائعة من السماحة والصفح الجميل لسيدنا رسول الله ﷺ وعفوه عمن ظلمه ولعل أبرزها جميعا قوله يوم فتح مكة لمن اعترضوا رسالته وذاق على أيديهم هو وصحابته الأطهار أشد أنواع العنت والظلم والعذاب كما شنوا عليه الحروب وألبوا عليه القبائل: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

٦- الحركة والنشاط طبيعة المجتمع المسلم:

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧].

الحركة من طبيعة المجتمع المسلم فهو يسارع الخطى مستجيبا لأوامر الله عز وجل خوفا من أن يحل الأجل فيسأل عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما

أبلاه ويغتنم الفرصة فيعمل فى فتوته قبل هرمه وفى صحته قبل مرضه وفى حياته قبل موته.

وليس الكسل والتراخى من طبيعة هذا المجتمع الذى يؤمن بالموت والبعث والحساب والجنة والنار.

ولعل هذا السمت متعارض تعارضا تاما مع الاتهام الجائر الذى يرمى به الإسلام من أعدائه فيقولون إن التواكل والسلبية والوقوف أمام الأحداث موقف الأبله المستسلم هو سبب تأخر المسلمين وجهلهم وتخلفهم.

ولكننا نرى أن إيمان المؤمن بالقدر وبقضاء الله عز وجل لا يعنى استسلامه لليأس والقنوط الذى يصيب الكافر عندما يصدم فى حياته بحدث داهم أو مصيبة فى ماله وولده ﴿**وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف: ٨٧].

كما أن توكل المؤمن على الله عز وجل يعنى القوة والعزم واتخاذ القرار بحزم -والمضى فى تنفيذه بدون خوف أو تردد- أما الكافر الذى يفقد معنى التوكل على الله؛ فيتصف بالتردد والنكوص، وعدم الثبات؛ علاوة على التخبط، وعدم وضوح الرؤيا.

ومن الآيات التى تحث المسلمين على الحركة الدائبة قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾**﴾ [الشرح: ٧، ٨]. ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾ [الانشقاق: ٦].

٧- وحدة الأمة والسماح بخلافات الرأى داخلها:

﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ**﴾ [الشورى: ٤٨].

إن استحالة تجمع الناس فى خط واحد أمر مسلم به فقد خلقهم الله مختلفين،

ولو شاء لجعلهم أمة واحدة، ولكن حكمة الخالق جعلت اختلاف البشر فى العقيدة والفكر والرأى والمصالح والصورة واللسان. . .إلخ أمراً حتمياً لازما.

وهذا الموقف يملى على الجماعة المؤمنة -حزب الله- والأمة المسلمة أن تتجمع فى صف واحد وتترك الذين أشركوا بالله وكفروا بآياته، ولم يتبعوا رسوله متفرقين فى الأرض بعيداً عن رحمة الله وولايته ونصرته.

وصفوة الخلق هؤلاء لابد أن يختلفوا فيما بينهم، ولكنها خلافات لا تفسد للود قضية فلا يجب أن تشغل بالهم فيتفرقوا ويتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]. به آمنا وله أسلمنا وعليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير وهو على كل شىء قدير.

أما الخلافات التى بين هؤلاء الذين يتخذون من دون الله أولياء فقد تذهب بهم إلى إشعال الحروب وخلق وجوه النزاع وتشكيل الأحزاب وقيام التكتلات -والمجتمع المسلم يراقب عن كثب هذه التجمعات تاركا لها الحركة كيفما شاءت بشرط ألا يكون فى تجمعهم إلحاق الضرر بالمجتمع المسلم وإلا فالمنع والحظر والضرب على الأيدى والجهاد فى سبيل الله.

والخلافات فى الصف المؤمن يجب أن تبقى دائماً خلافات فى داخل الجماعة؛ تعمل على زيادة حيويتها وتقدمها.

خلافات تتفق وطبيعة مجتمع الشورى الذى يمنح حرية التعبير لأبنائه ويعطى فرصة البحث والاستقصاء والتفكير والعمل والتنقل للمجتمع فيصبح المواطنون خلايا حية ويصبح الجسد بجميع أعضائه فى حالة نشاط دائم وحركة متصلة.

وإذا فشلت جميع الجهود فى حصار الخلاف وإنهائه وتصفيته فيترك الأمر لله ولا تثريب على المخالفين ولا نطلق عليهم أسماءً يكرهونها -مثل العصاة أو البغاة- أو أعداء الله بل هم إخوة لنا هداهم إيمانهم لهذا الموقف وندعو الله لهم بأن يعودوا إلى الصف والجماعة، وهذا موقف المجتمع البناء فلم يحملوا

سلاحا أو عصا، ولم يدخلوا فى زمن البغاء يطبق عليهم قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ [الحجرات: ٩]. أو انضموا إلى الكافرين كما فعلت جماعة مسجد ضرار ﴿فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩]. فيحرق مسجدهم كما حرقه رسول الله ﷺ أو يشهر عليهم السيف فيقاتلوا وينفوا من الأرض كما فعل بهم سيدنا على كرم الله وجهه.

فشعار النقد والمكاشفة بالأخطاء من المبادىء الأساسية للفرد والجماعة فالمسلم لا يعلق أخطاءه على حمالة الآخرين بل يواجهها بشجاعة وجرأة، فالمسلم مرآة أخيه عليه أن يكاشف أخاه بعيوبه وعليه أن يتقبل هذه المكاشفة برضا وتعقل «طوبى لمن أهدى إلىّ عيوبى» ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

فمبدأ حرية القول بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى المجتمع الإسلامى من المبادىء الأساسية المقررة ولا عصمة لأمير أو وزير أو رئيس أمام هذا الحق والرجل والمرأة والكبير والصغير كلهم متساوون فى التمتع باستعمال هذا الحق ولا يعترض عليه إلا منافق أو ضعيف الإيمان.. وأفراد المجتمع المسلم لا يحملون ضغينة ولا كراهية لبعضهم البعض نتيجة لمواقف النقد والهجوم الذى قد يحدث فيما بينهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمكاشفة بالأخطاء ومحاولة الوصول لمعرفة أسباب كارثة قد حلت أو مصيبة قد وقعت.

فالجميع بعد أن يدركوا أسباب ما حدث ويتفقوا فيما بينهم على الحل تعود المياه إلى مجاريها فيما بينهم ويتلاقون بالحب والسلام ويعيشون فى إخوة ووئام.

٧- وحدة الفكر:

إن وحدة الفكر من أهم وسائل توحيد المسلمين؛ لأن الأمة التى تفكر بطريقة واحدة، وتوجه تفكيرها نحو عقيدة واحدة، لابد أن تكون غايتها واحدة، والفكر هو أهم جوانب الإنسان، فالإنسان ليس إنساناً بجسمه، ولا هو إنسان بهيئته وشكله ولكنه فى الحقيقة إنسان بعقله وفكره.

إن وحدة الفكر فى الأمة تعطى انطباعاً واضحاً عن وحدة الهدف الذى تسعى لتحقيقه، وهذه الأمة هى التى دعا إليها الإسلام فى قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. وليس المراد بوحدة الفكر هنا المساواة بين أفراد الأمة فى درجة الإدراك والوعى، وليس المراد بها أن يكون المستوى الفكرى لأفراد الأمة واحدا لأن ذلك يستحيل تحقيقه فى مجموعة صغيرة من الناس، فكيف يتحقق فى أمة كاملة.

وإنما المراد بوحدة الفكر فى الأمة هو وحدة المبادىء الأساسية للأمة فى صورة واضحة لكل فرد أمن أفراد الأمة.

٨- المحبة:

مما هو معلوم أن العقيدة تؤلف بين القلوب، وتشد المؤمنين بعضهم إلى بعض فتجعلهم يدا واحدة، وتعلمهم كيف يضحى الفرد فى سبيل الجماعة، وكيف يقدم حاجة أخيه على حاجته:

إن هذا النوع من المحبة هو جزء لا يتجزأ من حقيقة الإيمان، وهو الذى لايتم إيمان المؤمن إلا به، بل هو الذى قال فيه الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم»[٢].

إن المحبة القائمة على أساس من العقيدة هى التى تبقى، ولها أثرها فى وحدة المسلمين، ومن أجل هذا كان ثوابها عظيما وأجرها كبيرا، كما ورد ذلك

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم ٥٤.

فى كثير من الأحاديث الصحيحة منها ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى»[١]. وعن معاذ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون فى جلالى لهم منابر[٢] من نور يغبطهم النبيون والشهداء»[٣]. وعن أبى إدريس الخولانى قال: جئت إلى معاذ بن جبل من قبل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت: والله إنى لأحبك لله، فقال: آلله؟ فقلت: لله، فقال: آلله؟ فقلت: لله، فأخذنى بحبوة ردائى، فجذبنى إليه، فقال: أبشر فإنى سمعت رسول لله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وجبت محبتى للمتحابين فى، والمتجالسين فى، والمتزاورين فى، والمتباذلين فى»[٤]. وقال: «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٥].

٩- التعـاون:

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

إن العقيدة الإسلامية هى المحرك الرئيسى للتعاون بين المسلمين لأنهم يشعرون بقيمة التعاون وما يحققه لهم من الفوائد الكبيرة الملموسة لكل من يتعاون مع إخوانه.

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم ٢٥٦٦.

(٢) أى: يجلسون عليها، والغبطة: تمنى مثل ما للغير من الخير.

(٣) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح برقم ٢٣٩١.

(٤) رواه مالك فى الموطأ بإسناده الصحيح ج٢، ص ٩٥٣ وصححه ابن حبان برقم ٢٥١٠، والحاكم فى مستدركه ووافقه الذهبى، وقال ابن عبدالبر: إسناده صحيح.

(٥) متفق عليه، البخارى (١/ ٥٣) ومسلم برقم ٤٥.

والتعاون بين المسلمين ليس مقصورا عليهم فحسب؛ وإنما هو يشمل غير المسلمين ممن يعايشونهم ويتعاملون معهم، لهذا لم ينه الله المسلمين عن بر غير المسلمين والعدل معهم، قال -جل شأنه- : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

١٠- أثر الأخوة فى الله:

لما أذن الله تعالى بالهجرة: خرج المسلمون إلى المدينة جماعات ووحدانا، ولم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلى حيث أقاما بأمر منه ﷺ وإلا من احتبسه المشركون كرها.

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى المدينة، وعرفوا أنها دار منعة، وأن أهلها أهل حلقة وشوكة وبأس، خافوا خروج رسول الله ﷺ ولحوقه بهم حيث سيشتد أمره وتقوى شوكته، فلذلك اجتمعوا فى دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأى والحجة منهم ليتشاوروا فى أمره[١].

وخرجوا من الاجتماع برأى واحد، وهو أن يقوم من كل قبيلة شاب ثم يضربوه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه فى القبائل، ولكن حماية الله ونصرته لنبيه ﷺ أكبر من مكر أولئك المجرمين، فقد نزل جبريل عليه السلام على المصطفى ﷺ يأمره أن لا ينام فى مضجعه تلك الليلة، وخرج رسول الله ﷺ ومعه صاحبه أبوبكر الصديق رضي الله عنه وبقى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، حيث نام تلك الليلة فى فراش المصطفى ﷺ وينتهى الأمر بخسارة وذلة الملأ من قريش.

ووصل المصطفى ﷺ إلى دار الهجرة، دار النصرة والمنعة حيث يوجد أنصار الله، فكانت الهجرة هذه نصراً للمؤمنين المهاجرين الذين وجدوا من يأويهم

(١) ابن القيم: زاد المعاد فى سيرة خير العباد، الجزء الثالث، القاهرة، دار السنة، د.ت. ص٥١.

وينصرهم ويشاركهم الأموال والمساكن وحتى محاولة التنازل عن الأزواج!! وكانت نصراً أيضاً للأنصار حيث قضى على الإحن والأحقاد الجاهلية بين أوسهم وخزرجهم وعلى كيد اليهود لهم حيث كانوا يشيعون بينهم الفرقة والفتنة.

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ فى المدينة هو بناء المسجد لينطلق منه النداء الربانى (الله أكبر، الله أكبر) وليكون هذا المسجد الطاهر هو الملتقى التربوى للأمة المسلمة يتلقون فيه وحى الله عن رسول الله، ويتعلمون أمور دينهم ولتنطلق منه رايات الجهاد.

وبعد ذلك: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس ابن مالك، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، وآخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين موقعة بدر فلما أنزل الله عز وجل ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾ [الأنفال: ٧٥]. رد التوارث إلى الرحم دون عق الأخوة.

إن هذه الأخوة الإيمانية هى الوشيجة العظمى. والرابطة الفريدة فى علاقات البشر بعضهم مع بعض، فلقد أحس كل مؤمن -كما قال الأستاذ محمد قطب، سواء كان مهاجراً أو أنصاريا برباط جديد يربطه بأخوته فى الله، فكل واحد منهم يحب أخاه كحبه لنفسه، مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آصرة دم بل إن آصرة الدم - حيث كانت فى الجاهلية، لم تكن تنشىء فى نفس أحدهم ذلك الحب الصافى العجيب الذى يحسه الآن لأخيه فى العقيدة.

ترى ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الإسلام؟

ولماذا لا توجد هذه المشاعر إلا على العقيدة؟

والجواب: أن الإسلام يلتقى فيه الناس على العقيدة فى الله، لأن كلا منهم يحب الله ورسوله، فلا تكون ذواتهم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخر كما هى الحال فى العلاقات الجاهلية، وإنما الجانب البارز هو الحب فى الله.

إن الأخوة فى الله جديرة بالنظر والاعتبار، ذلك أنه نتج عنها أمور عظيمة فى حياة المسلمين سواء في مستوى الأمة والدولة، أم فى مستوى الأفراد.

أما ما يتعلق بهم كأمة، فقد كانت هذه المؤاخاة هى الركيزة الأساسية فى تكوين مفهوم الأمة المسلمة، أمة التقت على العقيدة فى الله، وعاشت لأجل تلك العقيدة وليس لرابطة الدم أو الحب والنسب، أو الأرض أو اللون أو اللغة أو الجنس فيها أى حساب يذكر إذا تعارض ذلك مع العقيدة. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. الآية فقد أصبح المؤمنون أولياء بعضهم لبعض، كل منهم يحب أخاه كحبه لنفسه ويناصره ويجاهد من أجله، ويؤثره على كل قريب من مال أو أهل أو عشيرة أو ولد ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

واشتد كيانهم فكانوا كالجسد الواحد: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم شبك ﷺ أصابعه»[(١)]. وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[(٢)].

ولقد أثنى الله تعالى على المهاجرين والأنصار، فقال سبحانه عن المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ثم يثنى سبحانه على الأنصار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) صحيح البخارى، جـ ١٠، ص٤٣٨.

(٢) صحيح البخارى، جـ ١٠، ص ٤٣٨.

بل إن الأمر أصبح أكبر من ذلك، فهؤلاء الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ ومن معه وآزروهم ونصروهم وبذلوا لهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله، فقد أصبح حبهم من العقيدة التى يدين بها المسلم إلى ربه، وبغيهم وكراهيتهم نفاقا. ففى الحديث الصحيح: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[١].

وقال ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[٢].

وبهذه الأخوة تكوّن المجتمع الإسلامى، ذلك المجتمع الذى تظله راية لا إله إلا الله وتحكمه الشريعة الربانية، ويسود الحب التفانى، ويؤتمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، الجهاد رهبانيته، والدعوة إلى الله سبيله ومنهاج حياته، القوى فيه ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف فيهم قوى حتى يؤخذ له حقه، ولاؤه لله ورسوله والمؤمنين، وبغضه وكراهيته لأعداء الله ولو كان أقرب قريب، وجدوا حلاوة الإيمان وطعمه، وعرفوا الكفر وأهله حتى أن أحدهم يحب أن يلقى فى النار ولا يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه[٣]، كما قال ﷺ: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[٤]، وهذا ما تحقق فيهم رضوان الله عليهم.

وبهذه المؤاخاة الإيمانية وجد التكافل الاجتماعى، وبرزت فيه صور خالدة لم توجد لها مثيل قط، ومن ذلك ما رواه البخارى -رحمه الله- أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالا، فأقسم مالى نصفين! ولى أمرأتان

---

(١) صحيح البخارى، جـ١، ص ٦٢.

(٢) متفق عليه. صحيح البخارى، جـ٧، ص ١١٣.

(٣) محمد بن سعيد القحطانى، الولاء والبراء فى الإسلام، الطبعة الأولى، دار طيبة بالرياض، د.ت، ص ١٩٤.

(٤) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى، جـ١٠، ص ٤٦٣.

انظر إلى أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها!! قال عبدالرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب إلا ومعها فضل من إقط وسمن، ثم تابع الغدو حتى جاء يوما وبه أثر صفرة، فقال النبى ﷺ: مهيم؟ قال: تزوجت. قال: كم سقت لها؟ قال: نواة من ذهب[١]. «وإن إعجاب المرء بسماحة سعد لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبدالرحمن بن عوف الذى زاحم اليهود فى سوقهم وبزهم فى ميدانهم، واستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه، ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان»[٢].

وخلاصة القول: إن هذه المؤاخاة كان تدريبا عمليا على الأخوة الإسلامية التى تبعثها تلك العقيدة فى نفوس المؤمنين بها: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وكان تدريبا ناجحا فى نجاحه، فريدا من نوعه فى التاريخ.

وكان كذلك تدريبا عمليا على التكافل، وهو معنى من المعانى العميقة فى بناء الجماعة الإسلامية. القادرون يكفلون غير القادرين على أساس الأخوة فى الله من جانب، وعلى أساس التصرف فى مال الله بما يرضى فى جانب آخر.

١١- أثر الإيمان فى أداء فريضة الجهاد:

الجهاد يعتبر من أهم مقتضيات الإيمان، لأنه من أهم وسائل المؤمنين للفصل بين الحق والباطل، وبين حزب الرحمن وحزب الشيطان، فالمعلوم بداهة وتجربة أن العداوة بين الفريقين متأصلة، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لأن المنهجين مختلفان، ويستحيل الالتقاء بينهما لأن حزب الله يريد أن تكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وحزب الشيطان لايرضى بذلك، فيسعى جاهدا فى سحقه وأبادته ما استطاع إلى ذلك سبيلا[٣].

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه جـ، ص ١١٢.

(٢) محمد الغزالى: فقه السيرة، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٦، ص١٩٣.

(٣) انظر الولاء والبراء فى الإسلام، ص ٢٨٩-٢٩٠.

ومن المعلوم أن هذا الدين الحنيف يأمر بدعوة الناس إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة والألوهية، فإذا لبوا هذا النداء فهذا هو المراد من بعثة الرسل، وإنزال الكتب وإن انتكصوا على أعقابهم فلابد من جهادهم: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾** [الأنفال: ٢٩].

ثم إن نصرة المؤمنين بالله واجبة على كل مسلم، فقد روى البخارى عن ابن عباس رضي الله عنه أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سوادهم على عهد الرسول ﷺ يأتى السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل فأنزل الله تعالى: **﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾** [النحل: ٢٨][١]. فالذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا فى بواديهم ليس لهم فى المغانم نصيب ولا فى خمسها إلا ما حضروا فيه القتال[٢]، يدل على ذلك الحديث الذى يرويه أبو بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال: اغزوا باسم الله. فى سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تعدروا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم أدعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم أدعهم إلى التحول إلى الإسلام من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فاخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة والفىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. .[٣] الحديث.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، جـ٢، ص ٥٤٢.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، جـ٤، ص ٤٠.

(٣) صحيح مسلم، جـ٥، ص ١٤٠.

فالدين الإسلامى يبدأ بدعوة الناس إلى الخير وجدالهم بالتى هى أحسن فإذا قامت عليهم الحجة ثم اعرضوا وجب قتالهم، وإن كان هناك سلطان وطواغيت ترفض أن يستمع الناس للإسلام فإنه يجب بتر هذه الطواغيت من أساسها لتبلغ كلمة الإسلام للناس. ثم يأتى هنا مبدأ، لا إكراه فى الدين، أى إذا سيطر سلطان المسلمين على منطقة ما فإن أهلها لا يجبرون على اعتناق عقيدة الإسلام، ولكن يجب أن يخضعوا لسلطانه، فإن أسلموا فلهم ما للمسلمين، وإن طلبوا البقاء فى ديانتهم فعليهم دفع الجزية للمسلمين وإلا فالسيف بينهم وبين المسلمين(١).

ومن هنا، فإن أهداف الجهاد فى الإسلام يمكن تلخيصها فيما يلى:

١- يقاتل الكفار لتقرير حرية العقيدة.

٢- ويجاهد لتقرير حرية الدعوة إلى الله.

٣- ويجاهد لتمكين شريعة الله فى الأرض ليحتكم الناس إليها، وذلك لأن شريعة الله تقرر أولا أن العبودية لله الكبير المتعالى، وتلغى ما سوى ذلك من عبودية البشر للبشر فى جميع أشكالها وصورها، فليس هناك فرد ولاطبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريقه، وإنما هناك رب واحد للناس جميعا هو الذى يشرع وهو الذى يتوجهون إليه وحده بالطاعة والخضوع كما يتوجهون إليه بالإيمان والعبادة على السواء(٢).

وعبودية الجهاد من أشرف وأحب أنواع العبودية لله سبحانه وتعالى؛ لأنه لو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة فيه سبحانه والمعاداة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، وبذل النفس له فى محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محبة الله على محبة النفس(٣).

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، جـ١، ص ٤٥٩.

(٢) أحمد فايز، طريق الدعوة فى ظلال القرآن، جـ١، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ، ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٣) ابن قيم الجوزية مدارج السالكين، جـ٢، ص١٩٦.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية إنه لم يرد فى الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه.. لأن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره فى الدين والدنيا، وهو مشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة ففيه محبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له والصبر، والزهد وذكر الله وسائر أنــواع الأعمال ما لا يشتمل عليه عمل آخر والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين دائما: إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة»[1].

ولقد أدرك أصحاب رسول الله ﷺ فضل الجهاد فى سبيل الله، فانطلقت كتائبهم فى الأرض تنشر الخير، وتلقن الإيمان وتكسر شوكة الطاغوت من أجل أن يعبد الله وحده فى الأرض.

وقد وجد فى ذلك التاريخ الإسلامى المشرق نماذج رفيعة أجادت -بحق- صناعة الموت من أجل أن تعيش حياة كريمة سواء فى هذه الحياة على هذه الأرض بالنصر وإعلاء كلمة الله، أم بالحياة عند الله فى نعيم لا ينفد وفيهم يقول رب العزة: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩].

لقد كانت هذه النماذج الإيمانية تستبطىء أن تحيل بينها وبين الجنة تمرات كما فى قصة الصحابى الجليل عمير بن الحمام الأنصارى «حين سمع رسول الله ﷺ يقول فى غزوة بدر: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، قال: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض. قال: نعم. قال: بخ بخ. قال رسول الله ﷺ: وما يحملك على قول بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: فإنك من أهلها. ثم أخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بها ثم قاتلهم، وهو يقول:

---

(١) ابن تيمية: السياسية الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة سنة١٣٨٩هـ، ص ١١٨.

ركضـا إلى الله بغيـر زاد | إلا التـقى وعمـل المـعـاد
والصبر فى الله على الجهاد | وكـل زاد عرضـة للنفـاد

غير التقى والبر والرشاد

فمازال يقاتل حتى قتل[١].

وهذا غسيل الملائكة الصحابى الجليل حنظلة بن عامر يخرج من بيته، حين سمع نداء الحرب فى معركة أحد وكان حديث عهد بعرس لم يكن ليتأخر حتى يغتسل من جنابته، بل هرع إلى ساحة الوغى حتى لا يفوته الجهاد فلما قتل قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم تغسله الملائكة فاسألوا صاحبته (زوجته)، فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهيعة، فقال النبى ﷺ لذلك تغسله الملائكة»[٢].

هذا غيض من فيض ونقطة من بحر، من تلك البطولات التى بعث الإيمان فيها شجاعة خارقة للعادة وحنينا إلى الجنة واستهانة نادرة بالحياة، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأى العين. وهذا هو مفهوم الجهاد الذى ينبغى أن يتمثله كل من آمن بالله ويريد أن يسلك سبيل الذين آمنوا من السلف الصالح.

١٢- الذلة على المؤمنين:

قلنا إن الذلة على المؤمنين أثر من آثار الرحمة بهم، وأعلى ما تمثلت به هذه الرحمة سلوك رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وهذا الرسول هو الأرحم، لأن رسول الله ﷺ ما أمر أمراً إلا حقق غايته، والله عز وجل قد أمر رسوله بقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه، جـ٦، ص ٤٤.

(٢) فقه السيرة للغزالى، ص ٢٧٢.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥، ٢١٦].

والأمر بخفض الجناح أمر بالرحمة كما رأينا، وقد شهد الله لرسوله ﷺ فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]. والآن سنبدأ باستعراض مظاهر هذه الرحمة بالمؤمنين فى أوامر القرآن وفى توجيهات الرسول ﷺ القولية والعملية.

أ - من مظاهر الرحمة بالمؤمنين ما أشار إليه الله جل جلاله فى صفة رسوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالعفو عن المؤمنين والاستغفار لهم، واستشارتهم، كلها أخلاق أمر بها رسول الله ﷺ فى علاقته مع المؤمنين، وهى تفسر الأمر بخفض الجناح لهم والله أعلم، وقد مر معنا فى مبحث الرسول ﷺ فى الفصل الأول منه أمثلة عملية من حياة الرسول ﷺ تبين لنا كيف كان فى الذروة العليا من تطبيقه لهذا الأمر.

ب- ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين التواضع لهم.

قال ﷺ: «تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد»[(١)].

فمن افتخر على أحد من المؤمنين بنسب أو جاه أو مال أو ولد فقد صفة التواضع، ومن بغى على أحد من المؤمنين فى عرض أو مال أو نفس فقد صفة التواضع، وبالتالى لا يكون متحققا بمظهر من مظاهر الرحمة.

جـ- ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين إزالة ما يؤذيهم:

قال أبو برزة: قلت: يا نبى الله علمنى شيئا ينفعنى قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الجنة.

(٢) رواه مسلم وابن ماجة.

وقال ﷺ: «بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله تعالى له فغر له»[١].

د- ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين أن نلقاهم بوجه طلق، وأن نكلمهم بالكلام الطيب.

يقول ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٢].

ويقول ﷺ: «تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة»[٣]. «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجد فبكلمة طيبة»[٤]. أما اللعن والسب والشتم ورفع الصوت على المؤمنين والمجادلة، فكل ذلك ليس من أخلاقهم «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذىء»[٥].

«لا تمار أخاك ولا تمازحه، ولا تعده موعدا فتخلفه»[٦].

هـ- ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين، إنظار معسرهم، وتفريج كربتهم، وإجابة ملهوفهم.

يقول ﷺ: «على كل مسلم صدقة قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يعين ذا الحاجة والملهوف»[٧]. «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»[٨].

---

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه مسلم واللفظ له عن أبى ذر رضي الله عنه.
(٣) قطعة من حديث رواه الترمذى عن أبى ذر رضي الله عنه.
(٤) رواه البخارى واللفظ له.
(٥) رواه الترمذى.
(٦) رواه الترمذى عن ابن عباس رضي الله عنهما فى كتاب البر والصلة.
(٧) رواه أحمد والشيخان والنسائى عن أبى موسى الأشعرى بلفظ متقارب.
(٨) قطعة من حديث رواه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذى عن أبى هريرة.

«من كان معه فضل ظهر فليعد به عن من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له»، فذكر أصنافا من المال حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل.

و – ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين الرفق بهم:

يقول ﷺ: «إن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه، ولا نزع من شىء إلا شانه»[١]. «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»[٢].

«كان رسول الله ﷺ يتخلف فى السير فيزجى الضعيف ويردف ويدعو لهم»[٣]. وقال ﷺ: «إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم والمريض وذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطل ما شاء»[٤].

وقال: «إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى لما أعلم من وجد أمه من بكائه»[٥].

ز – ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين أن يحب لهم ما يحبه لنفسه من الخير

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٦].

«لا يؤم الرجل قوما فيخص نفسه بالدعاء دونهم فإن فعل فقد خانهم»[٧].

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٨].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) رواه الستة.

(٥) رواه أحمد والشيخان وابن ماجة عن أنس.

(٦) رواه أحمد والشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجة.

(٧) قطعة من حديث رواه الترمذى عن ثوبان رضي الله عنه.

(٨) قطعة من حديث رواه أحمد والشيخان.

«من أدخل السرور على أهل بيت من المسلمين لم ير الله له جزاء دون الجنة»[١].

«لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله، التقوى ها هنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[٢].

«المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله»[٣].

ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين القيام بحقوقهم:

يقول ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيه فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»[٤].

«المستشار مؤتمن»[٥]. و «من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه»[٦]. «الدين النصيحة، قلنا: يا رسول الله لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٧].

«والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم. أفشوا السلام بينكم»[٨].

---

(١) رواه الطبرانى عن السيدة عائشة رضى الله عنها.
(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجة عن أبى هريرة.
(٣) رواه أبو داوود فى كتاب الأدب من طريق سالم بن عمر عن أبيه بلفظ قريب.
(٤) رواه البخارى فى الأدب ومسلم فى الصحيح عن أبى هريرة.
(٥) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط عن سمرة بن جندب ورمز السيوطى لصحته.
(٦) رواه الإمام أحمد فى مسنده.
(٧) رواه مسلم وأبو داوود والنسائى عن تميم الدارى.
(٨) رواه الترمذى واللفظ عن أبى هريرة فى كتاب الاستئذان.

ى- قال ﷺ : «لا يأخذن أحدكم عصا أخيه لاعبا ولا جادا فمن أخذ عصا أخيه فليردها إليه»[١].

«حدثنا أصحاب الرسول ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبى ﷺ فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل كان معه فأخذه ففزع.

فقال ﷺ :«لا يحل لمسلم أن يروع مسلما»[٢].

«من أشار إلى أخيه بحديدة لعنته الملائكة حتى ينتهى»[٣].

ومن أدب المسلم إذا قدم سلاحا لأخيه أن يقدمه إليه معكوسا، النصل بيد المعطى.

«إذا مر أحدكم فى مسجدنا أو سوقنا ومعه نبل فليمسك على نصالها بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشىء - أو قال-: «ليقبضن على نصالها»[٤].

«ملعون من ضار مؤمنا أو مكر به»[٥].

«من ضار مؤمنا ضار الله تعالى به، ومن شاق مؤمنا شاق الله تعالى عليه»[٦].

ك- ومن الرحمة بالمؤمن عدم الشماتة به وعدم هجرانه:

«لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك»[٧].

«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام»[٨].

---

(١) رواه أبو داوود واللفظ له.

(٢) رواه أحمد فى مسنده.

(٣) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة.

(٤) رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى.

(٥) رواه الترمذى عن أبى هريرة عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه.

(٦) رواه الترمذى.

(٧) رواه الترمذى عن واثلة وقال: حسن غريب.

(٨) قطعة من حديث سبق تخريجه فى ص ٢١٥.

ل- ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين الاهتمام بشأنهم، والإحساس بما يصيبهم:

«من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[١].

«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[٢].

م- ومن مظاهر الرحمة بالمؤمنين إذا كانوا فى دار الحرب أن نحارب من يضطدهم، وأن ننصرهم إذا استنصرونا إلا على قوم بيننا وبينهم ميثاق:

﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٥، ٧٦].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

هذه فقرات عامة ومختصرة، اقتصرنا فيها فى الغالب على ذكر النصوص، يتبين لنا كيف نتحقق بصفة الذلة على المؤمنين، والواقع أن كل آية أو حديث أو حكم فقهى له علاقة بعلاقة المؤمنين بعضهم ببعض يدخل تحت هذا الأصل، غير أن هذا يقتضى دراسة شاملة موسعة للكتاب والسنة، وأقوال العلماء لسنا الآن بسبيلها، وإنما نحن الآن بسبيل عرض أمهات المسائل لنتحقق بأمهات الأخلاق، وإذا كان ما قدمناه هنا هدفنا فيه أن نتحقق بالذلة على المؤمنين، فإننا نحب أن نختمه بكلمة هى:

إن أعلى ما تتمثل به الذلة على المؤمنين خدمتهم، فمن صار إلى حالة

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير، وهو عند البخارى بلفظ قريب.

طاوعته بها نفسه على خدمة المسلمين كبارا وصغارا، ونساءاً ورجالا، عجزة وشيوخا، أرامل وفقراء، أى نوع من الخدمة، فقد وصل إلى الذروة فى هذه الصفة، حتى قال أهل السلوك إلى الله: إن خدمة المؤمنين أقرب طريق إلى الله.

وقد خدم رسول الله ﷺ وما كان كبار الصحابة يستنكفون خدمة العجزة والشيوخ والأرامل بل كانوا يتسابقون إلى ذلك، ويخدمون بعضهم بعضا، ولايحسون بأدنى حرج.

وليمرن الإنسان نفسه على خدمة المسلمين مهما كانوا، فإن ذلك يظهر نفسه من كل قسوة ولا ننسى أن إطعام الطعام للمسكين، والمسح على رأس اليتيم يجعلان فى القلب رحمة بإذن الله.

وشىء أخير يشير إليه فى هذه الفقرة هو أن بعض المؤمنين لا يعطون رحمتهم وذلتهم لكل المؤمنين. فمثلا تجد أحيانا مؤيدى شيخ يتراحمون فيما بينهم وهم غلاظ على غيرهم من المؤمنين، واتباع جمعية ما يتراحمون فيما بينهم، وهم شداد على غيرهم، وهذا من فساد التربية ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]. أن المؤمن رحيم بكل المؤمنين، ذليل على كل المؤمنين، ولو لم يشاركوه فى بعض ما هو عليه.

١٣- العزة على الكافرين:

إن العالم فى النظام الإسلامى ينقسم إلى قسمين، دار حرب، ودار سلام ولنا من الكافرين فى دار الحرب موقف، ومن الكافرين فى دار الإسلام موقف وكلا الموقفين يعبر عن شدتنا وعزتنا على الكافرين، وها نحن نستعرض مظاهر شدتنا وعزتنا على الكافرين فى دار الحرب، ثم فى دار الإسلام.

(أ) مظاهر شدتنا على الكافرين فى دار الحرب:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فالعلاقة ما بيننا وبين الكافرين، الأصل فيها الحرب حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون، وأخطأ من تصور أن الأصل فى علاقتنا مع دار الحرب السلام، والله يقول: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥]. أما قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]. فالسلم هنا إما الإسلام أو الخضوع بالجزية، أو السلم المؤقت بمعاهدة.

إن الله عز وجل قال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

هذا هو الأصل وما عدا ذلك فأحوال اضطرارية من معاهدات جانبية أو تعايش سلمى مؤقت.. ونفعله إما لمصلحة أو حتى لا ندخل حروبا متعددة، أو لأننا ضعفاء.

(ب) مظاهر عزتنا على الكافرين فى دار الإسلام:

إذا ما رضخ الكافرون للجزية جاز لنا أن نعقد لهم عقد ذمة، والفقهاء مختلفون حول من يجوز أن نعقد له عقد الذمة، ومن لا يجوز، والإمام يرى ما فيه المصلحة، فإذا ما عقدنا لكافر عقد الذمة شرطنا عليه شروطا تضمن عزتنا، وأعطيناه فى مقابل ذلك العدل الكامل. يقول فقهاء الحنابلة: «وعلى الإمام حفظ أهل الذمة ومنع من يقصدهم بأذى من المسلمين والكفار، واستنقاذ من أسر منهم بعد استنقاذ أسارى المسلمين واسترجاع ما أخذ منهم لأنهم بذلوا الجزية لحفظهم وحفظ أموالهم، وإن أخذ منهم أهل الحرب مالاً ثم تدر عليه المسلمون رد إليهم

إذا علم به قبل القسمة كمال المسلم، وحكم أموالهم فى الضمان حكم أموال المسلمين».

ويقول فقهاء الحنفية: «مسلم أراق خمر ذمى، أو قتل خنزيره، ويجب عليه الضمان أما إذا كان الخمر والخنزير ملك مسلم فلا ضمان عليه».

أما شروطنا عليهم فتزداد أو تنقص تبعا لرأى الإمام، وكل هذه الشروط تكون لتأمين خضوعهم للمسلمين، واعترافهم بسلطتهم عليهم، وذلتهم للمسلمين. غير أن هناك مظاهر من العزة على الكافرين أساسية لا يجوز الإخلال فيها فى وضع إسلامى سليم:

أ - فمن مظاهر هذه العزة الأساسية دفعهم الجزية، وهى أول وأعظم مظهر من مظاهر اعترافهم بالخضوع لسلطان الله على بساطتها، والجزية عبارة عـن ضريبة سنوية يؤديهـا كل كافر فى أرضنا مالم يكن صغيراً أو إمرأة أو راهباً معتزلاً الناس أو . . . ممن استثناهم الفقهاء، ومقدارها بسيط جداً يعرف فى محله، وتختلف باختلاف الغنى والفقير، ولا تقبل من الكافر إلا أن يدفعها بيده دون جلوس من قبله أو قيام من المسلم.

ب- ومن مظاهر هذه العزة الأساسية التزام أحكامنا وفى ذلك تفصيل يقول فقهاء الحنابلة:

«وعلى الإمام أخذهم بحكم الإسلام فى نفس ومال وعرض، وإقامة حد فيما يحرمونه كزنا وسرقة، لا فى ما يحلونه كخمر وأكل خنزير ونكاح ذات محرم، وعقد فاسق، وإن شاءوا فى القضايا التى تخصهم الاحتكام إلى بعضهم فلا حرج، وإن احتكموا إلينا فلنا الحكم بشرعنا أو ترك الحكم».

وهذا الكلام فى كافرين يعيشون فى أرض الإسلام قد عقدنا معهم عقد الذمة فذلك مظهر عزتنا وشدتنا عليهم، ولكن يمكن أن يكون فى دار الإسلام

كافرون غير ذميين، كمرتدين عن الإسلام، أو زنادقة، أو مبتدعة كفروا ببدعتهم فما مظهر عزتنا على هؤلاء، وشدتنا عليهم؟

الكافر فى أرض الإسلام مالم يكن ذميا فهو حربى أو مرتد، والحربى إما مستأمنا، أو لا، فإن كان مستأمنا جرت عليه أحكام الاستئمان، وإن كان حربيا فهو مباح الدم والمال، وتجوز فيه أشياء أخرى تعرف فى محلها محل كتب الفقه.

أما المرتد فهو الراجع عن دين الإسلام بإجراء كلمة الكفر على لسانه بعد الإيمان، وإنما ذكرنا الكلام ولم نذكر غيره -مع أن الإنسان قد يرتد بأشياء أخرى ذكرنا بعضها فى نواقض الشهادتين من كتاب الإسلام- لأن كلام الإنسان هو السبيل الوحيد لمعرفته.

والحكم بالردة حكم خطير، لذلك نجد الفقهاء يحتاطون فيه، والمسألة فى أبسط صورها هكذا: هناك مسائل حكم العلماء بالإجماع على صاحبها بالردة، وهناك مسائل اختلفوا فى الحكم على صاحبها بالكفر. فما أجمع عليه أنه ردة يقتل صاحبه بلا تردد إذا أصر عليه، وما لم يكن كذلك فالأمر متروك إلى الإمام، إن شاء قتل، وإن شاء عزر بغير القتل، وها نحن ننقل بعض الأحكام فى هذه الشئون، واخترنا أن ننقلها من مذهب الحَنفية.

١٤- فى الاعتراف بالجريمة وتحمل العقوبة:

يفرض القانون عقوبات مادية رادعة على من يرتكبون الجرائم، ولكن المخالفين للقانون يحاولون الفرار من قبضته، والتفلت من دائرة سلطانه، وفى غفلة من القانون والرقباء عليه، يقدمون على أعمالـه، مستخفين عـن الأعـين، أو ظاهرين وقد ألبسوا عملهم الآثم ثوب القانون أو مستندين إلى ذى سلطان يشفع لهم، أو يحمى ظهرهم إلى آخر ما نعرف عن صور التفلت من يد القانون.

فإذا نظرنا إلى ما يفرضه قانون الإيمان على صاحبه وجدنا صورة أخرى ومنطقاً آخر، وجدنا المؤمن إذا زلت قدمه فاقترف جرماً -وهو بطبيعته بشر

يخطىء ويصيب- سرعان ما يستيقظ ضميره، ويدفعه دفعاً حتى يذهب إلى يد العدالة، فيعترف بالجريمة ويطلب العقوبة لنفسه تطهيراً من الآثام، وأوزار العصيان، رجاء فى أن تكون كفارة له عن ذنبه، وشفيعاً له إلى ربه، لا يمنعه من الاعتراف أن فيه جلد ظهره أو قطع يده أو إزهاق روحه.

فهذا رجل عربى -هو ماعز بن مالك- يأتى رسول الله ﷺ فيقول: يا رسول الله، ظلمت نفسى وزنيت، وأنى اريد أن تطهرنى، فيقول له: لعلك لامست؟ لعلك قبلت! لعلك فاخذت! ويرد الرجل مرة ومرة ومرة، والرجل مصر على الاعتراف بخطيئته، مصر على التطهر منها بإقامة حد الله عليه ولو كان الرجم بالحجر، ويأمر الرسول أخيراً بإقامة الحد عليه، فيتقبل صابراً محتسباً راغباً فى عفو الله ومغفرته.

وهذه امرأة أعرابية تعرف بالغامدية، تزنى ويضطرب فى أحشائها جنين من الزنا، فيأبى عليها ضميرها المؤمن - وقد ارتكبت الفاحشة سراً - إلا أن تتطهر منها جهاراً.

وجاءت رسول الله ﷺ تقول له: أنى زنيت فطهرنى؟! فيردها الرسول فتأبى فى الغد فتقول: يا رسول الله.. لم تردنى؟ لعلك إن تردنى كما رددت ماعزاً.. فو الله إنى لحبلى!!

فيقول لها: إما لا.. فاذهبى حتى تلدى، وتذهب المرأة تنتظر الوضع، وتمضى عليها الأيام والأشهر دون أن تخبو جذوه ضميرها. فما ان ولدت حتى أتت بالصبى فى خرقة، وقالت للرسول ﷺ: ها قد ولدته.

قال ﷺ لها: فاذهبى فارضعيه حتى تفطميه.

وتعود المرأة إلى دارها وتمضى مدة الرضاعة -وهى فى العادة حولان كاملان- أربعة وعشرون شهراً لم يستطع اختلاف الليل والنهار فيها أن ينسى المرأة ما ارتكبت من خطيئة.

وبغير إعلان من محكمة ولا تنبيه من حاكم، ولا حراسة من شرطى ترجع المرأة إلى رسول الله طائعة مختارة، لتلقى مصيرها الذى رضيته لنفسها، فتقدم إليه الصبى وفى يده كسرة من الخبز، وتقول: هذا يا نبى الله قد فطمته، وقد أكل الطعام.

ولم يجد النبى بدا بعد أن أمر بها، فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد، فسبها. . فسمع نبى الله إياها فقال:

«مهلا يا خالد، فو الذى نفسى بيده. لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى!» «القصة رواها مسلم».

١٥- فى المواساة والإيثار:

ويتجلى أثر ما صنعه الإيمان بالله واليوم الآخر فى مجال المواساة والإيثار بالمال والنفس. فكان الرجل يحب لأخيه ما يحب لنفسه. ويبذل له من ذات يده، ومن جهده ووقته ما يبذله لأعز بنيه عليه، وأحب أهليه إليه. وقد يرتقى الإيمان بأحدهم، فيؤثر أخاه على نفسه. فيجود له بالشىء، وهو أحوج ما يكون إليه، كل ذلك ولا قانون يلزمه، ولا حكومة تطالبه، ولا أجهزة تراقبه، ولا عقوبة تسلط عليه، وإنما هو دافع الإيمان بين جنبيه، يحفزه على عمل الخير والتطوع بالبر، ابتغاء ما عند الله وما عنده خير وأبقى.

روى مالك فى موطئه أنه بلغه عن عائشة رضى الله عنها أن مسكيناً سألها وهى صائمة: وليس فى بيتها إلا رغيف، فأمرت جارية لها أن تعطيه الرغيف، فقالت الجارية: ليس لك ما تفطرين عليه! فقالت: «أعطيه إياه» ففعلت، وربما يظن بعض الناس أنها إنما آثرت بالرغيف لهوانه عليها، فليسمعوا هذه القصة التى رواها المؤرخون والمحدثون:

بعث معاوية بن أبى سفيان بثمانين ألف درهم إلى عائشة، وكانت صائمة، وعليها ثوب خلق، فوزعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين ولم تبق منه شيئاً. فقالت لها خادمتها: يا أم المؤمنين ما استطعت أن تشترى لنا لحماً بدرهم تفطرين عليه؟ فقالت. يا بنيه لو ذكرتينه لفعلت[١]!.

ومثل عائشة زينب بنت جحش أم المؤمنين، التى كانوا يلقبونها بـ «أم المساكين» حدثت برزة بنت باتع أنه لما خرج العطاء أرسل إليها عمر نصيبها منه، فلما دخل عليها حامل المال، قالت: غفر الله لعمر! غيرى من أخواتى أكان أقوى على قسم هذا منى، فقالوا: هذا كله لك. قالت: سبحان الله. واستترت منه بثوب ثم قالت: صبوه واطرحوا عليه ثوباً.

قالت راوية القصة: ثم قالت لى. ادخلى يدك فاقبضى منه قبضة فاذهبى بها إلى بنى فلان وبنى فلان، من أهل رحمها وأيتامها، فقسمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب. فقالت لها برزة بنت باتع: غفر الله لك يا أم المؤمنين. والله لقد كان فى هذا حق، فقالت: فلكم ما تحت الثوب.. قالت: فكشفنا الثوب فوجدنا خمسة وثمانين درهما[٢].

وأخذ عمر بن الخطاب أربعمائة ديناراً، فجعلها فى صرة، ثم قال لغلامه: أذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح، ثم «تشاغل» فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع. فذهب بها الغلام إليه.. فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه فى بعض حاجتك فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالى يا جارية، اذهبى بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى معاذ، وتله (تشاغل) فى البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها إليه،

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، الجزء الثالث، القاهرة، دار السعادة، د.ت. ص.ص ١، ٢.

فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه فى بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله. تعالى يا جارية. اذهبى إلى بيت فلان بكذا. اذهبى إلى بيت فلان بكذا، اذهبى إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة هى امرأة معاذ وقالت: نحن والله مساكين، فاعطنا، فلم يبق فى الخرقة إلا ديناران فرمى بهما إليها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره: فسر بذلك فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض[١]!!.

وروى ابن سعد أن عبد الرحمن بن عوف باع لعثمان بن عفان أرضاً له بأربعين ألف دينار، فقسم ذلك فى الفقراء من أقاربه، وفى ذى الحاجة من الناس، وفى أمهات المؤمنين[٢].

وروى أن عيراً (قافلة تجارية) قدمت لعبد الرحمن، فكان لأهل المدينة يومئذ رجة، فقالت عائشة: ماهذا؟ قيل لها. هذه عير عبدالرحمن بن عوف قدمت، فقالت عائشة. أما لإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: بعبد الرحمن ابن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم أخرى، حتى يفلت ولم يكده.. فبلغ ذلك عبدالرحمن فقال: هى وما عليها صدقة. قال راوى القصة : وكان عليها أفضل منها، قل وهى يومئذ خمسمائة راحلة «بهذه السهولة جاد الرجل بكل هذا المال وكل هذه التجارة التى ارتجت لها المدينة وقال كلمته: هى وما عليها صدقة!

وروى البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل. وكان أحب أمواله إليه ببرحاء (اسم حديقة له) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالى إلى

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير.

(٢) طبقات ابن سعد، ج٣، ص ص ١٢، ١٣.

بيرحاء، وإنها صدقة. أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بخ. ذاك مال رابح! ذاك مال رابح».

وذكر الغزالى فى الإحياء عن ابن عمر قال: أهدى من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاه فقال: فلان أحوج إليه منه، فبعث به إليه. فبعث به هو أيضاً إلى آخر يراه أحوج منه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول، بعد أن تداوله سبعة!.

ولا يحسبن القارىء أن هذه كانت حوادث فردية، لا تصور حقيقة المجتمع كله، فإن هذه المواقف كثيرة جداً، وهى تصور بحق روح المجتمع واتجاهه وفلسفته ونظرته إلى المال والحياة.

روى البخارى فى الأدب المفرد عن ابن عمر قال: «لقد أتى علينا زمان -أو قال حين- وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم».

وحسبنا أن القرآن الكريم سجل للأنصار فى المدينة - وهم جمهور المجتمع الإسلامى بها - هذه الصورة الراقية من صور الإخاء والمواساة والإيثار فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

المبحث الثالث
الآثار الاقتصادية للعقيدة الصحيحة

١- الرزاق هو الله:

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]. الله هو الرزاق يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.. وهذا المعنى يجب أن يستقر بأبعاده كلها فى نفس المؤمن فيطمئن بأن الله قدر له رزقه وهو آتيه أينما كان وعليه أن يحسن العمل قربة إلى الله لينال رضاه.

فالمواطن فى المجتمع المسلم يعمل ويكد لينال ثوابه وأجره من الله عز وجل فهو لا يربط بين الأجر والعمل ويؤمن بأن رزقه مقدر مكتوب.

والأمير فى هذا المجتمع ينظر إلى حاجة الناس فيعطيهم من بيت المال على قدر حاجتهم.. ولا يمنع الخير عن أحد فكل مولود له نصيبه وكل شاب تساعده الدولة فى الحصول على مسكن له يقوم بإعداده لاستقبال الزوجة والولد، وكل شيخ قعيد له حظه يعوضه عن شيخوخته وكل امرأة فى بيتها تصلها حصتها، وكل مريض أو مصاب تتولى الجماعة أمر علاجه ومعيشته وكل غارمٍ تعوضه الدولة عن غرمه، وكل مسافر ابن سبيل يجد مسكنا يقيم فيه ويدا ممدودة إليه...إلخ.

الله هو الرازق عز وجل فليس لأحد فضل على أحد ولا يستطيع عبد مهما علت منزلته ومكانته فى الأرض أن يحرم أحد من رزق الله، أو ينقص أو يزيد من رزقه مالم تسبق ذلك المشيئة الإلهية.

«من بات شبعاناً وجاره جائع وهو يعلم فقد برىء من ذمة الله ورسوله». «أيما أهل عرصة بات بينهم جوعان فقد برئوا من ذمة الله».

والمجتمع إذا بات فيه جائع فقد نزلت اللعنة على من فيه جميعا، ولذلك فالمجتمع المسلم ينظم جميع أموره المعيشية بدقة متناهية حتى لا تقع هذه اللعنة عليه.

والزكاة والصدقات والكفارات والوصية والوقف وغيرها من موارد الخير ترصد وتوجه أبوابها بما يحقق الكفاية للجميع والنهضة للمجتمع.

ومن سمات هذا المجتمع أنه لا يحرص على كنز الفضل الفائض عنه. فالقادر يقدم بسخاء وحب وإنكار ذات ما يزيد عن حاجته لإخوانه ومواطنيه دون من أو تفاخر أو رياء أو إيذاء.

إنه مجتمع يطبق أوامر الله عز وجل ويلتزم بحدوده فى الاكساب والإنفاق، حتى يتحقق الرخاء للجميع فلا يوجد أحد يشكو من الجوع وآخر يتوجع من البطنة، وينتفى فيه الميسر والربا والتجارة فى المحرمات وأكل أموال الناس بالباطل بالمصادرة، والتأميم والحراسات والغش والبيوع الفاسدة.. ولا تكنز الأموال أو تمنع من التداول بل نحو الاستثمار الذى يحقق التوازن الاقتصادى فى المجتمع ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]. فلا يزداد الأغنياء غنى، والفقراء فقرا بل توجه التسهيلات الائتمانية والثروة العامة بطريقة تقرب الفجوة بين الأغنياء والفقراء حتى لا يتعطل منتج نشيط عن مواصلة جهده لعدم توافر الضمانات والأموال لديه.. وتتوجه الأموال بنسب عادلة لتعمير القرى والمدن والبادية.. تتجه نحو العمل الإنتاجى الذى يسد احتياجات الناس جميعا ولا يبقى عنصر الربح وحده هو المسيطر على توجيه الاستثمارات فهناك دوافع كثيرة منها تقديم المعونة والمساعدة وتعمير الأرض وخدمة البيئة وخدمة المجتمع وغيرها.. كلها خالصة لله الذى يجازى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفا، والله يضاعف لمن يشاء.

والمجتمع المسلم فى لحظات الجفاف يصلى صلاة الاستسقاء فيستجيب الرزاق الذى بيده مقاليد السماوات والأرض فينزل الغيث والمطر حتى ترتوى الأرض

وينبت الزرع ويأكل ويشرب الإنسان والحيوان وتزول آثار المجاعة.. وهكذا دائماً كلما يلم بهذا المجتمع ضيق اقتصادى يفزع إلى الله عز وجل يسأله، ويستعين به فيجد عنده سبحانه وتعالى الفرج من كل الكروب والحل لجميع المشاكل!! ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

٢- زيادة نصيب الفرد فى الدخل ليست نهاية الإرب:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨].

زيادة نصيب الفرد من الدخل ورفاهيته وسعة الثراء ليست دلالة على الرقى والتقدم فى المجتمع الإسلامى الذى لا يضع هذا الأمر هدفا رئيسيا من أهدافه، بل يسقطه تماما ويستبدله بجنات عرضها السماوات والأرض متاع مقيم فى الآخرة.

فإن الله يهيىء لنا الخير دائماً، ويعلمنا بأن المال كثيرا ما يؤدى بنا إلى الترف والفساد والانحراف والكفر والضلال، ولهذا فهو قد يحبس عن عباده المؤمنين الثراء الذى يهبط عليهم حاملا معه أحط الغرائز البشرية من الغرور والكبر والبخل والسفه واتباع الشيطان والبغى والظلم ولكنه ينزل عليهم الماء الطهور سيلا منهمرا من السماء فيحيى الأرض بعد موتها وينشر رحمته فى وقت تشتد فيه حالات القحط والجفاف وييأس الناس من نزول المطر وعودة الحياة إلى سيرتها الطبيعية. وهكذا تختلف فى المجتمع المسلم نظرته إلى المادة بوجه عام، فالمال ليس غاية يسعى إليها الأفراد ويقتتلون فى سبيل الحصول عليها بل هو وسيلة فى أيديهم ينفقونه فى وجوه الخير والصلاح والتعمير ساعين لإرضاء ربهم عز وجل وخدمة إخوانهم ومجتمعاتهم بعد أخذ ما يكفيهم.

وكثير من شعارات الحضارة الغربية اليوم ليس لها وجود فى المجتمع المسلم فالمجتمعات الغربية يقاس مدى تقدمها وحضارتها بمقدار دخل الفرد فى المجتمع.

فالمجتمعات المتقدمة هى الأكثر دخلاً لأفرادها وكلما انخفض دخل الفرد كلما وجدنا المجتمع ينحط ليحتل مكانته فى آخر الصفوف.

أما الشعار الخاص بمقياس التقدم فى المجتمع المسلم فهو مقدار العطاء الذى يقدمه الفرد للمجتمع سواء كان فى العمل الإنتاجى أو النظام الإدارى أو الخدمات الاجتماعية أو ميادين العلم والتقوى والصلاح.

وهذا العطاء يتضاعف بقدر تمسك الأفراد بالإيمان وازدياد حرص المجتمع على إقامة شرع الله، كما أنه ظاهرة جماعية تتجلى كفيض جارف أو سد عال أو أتون مشتعل وهى دائماً تحقق مصلحة الأمة وتقف فى وجه العدو ولا حدود لها على وجه الإطلاق.

٣- وضع خطط عامة ومتخصصة:

وضع خطة عامة للإنفاق هو نهج المجتمع المسلم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

تتناول هذه الفقرة من الآية جماعة المسلمين فتفترض وجود الرزق ووصوله إليهم من عند الله عز وجل.

وهم مطالبون بإنفاقه بالصورة التى يتفقون عليها وهذا لا يكون إلا بخطة عامة وخطط متخصصة مرحلية يضعها أهل الخبرة والاختصاص طبقاً للاحتياجات العامة ويجرى مناقشتها وإقرارها على مستوى المجتمع ككل أو فى كل مجموعة إقليمية وهذا يمكن أن يتحقق فى صورة شعبية متخصصة فى صحن المسجد، الذى تتأكد لنا مرة أخرى رسالته فتحقق لنا أفضل صورة من صور التخطيط والرقابة المالية والمتابعة لجميع أبواب الميزانية العامة والميزانيات الخاصة. فاحتياجات المجتمع تبدأ من هذا الواقع الشعبى الذى تتمثل فيه جميع الطوائف والطبقات والتخصصات العلمية ويمكن عن طريقه أن نحقق مالا نستطيع تحقيقه فى المجال الشعبية المركزية.

وهذا على مستوى الجماعة، أما على مستوى الفرد فإن القرآن الكريم والسنة المطهرة يضعان للمسلم أبواباً للإنفاق كثيرة ومتعددة. ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠].

كما يلزمانه بالاعتدال والتوسط فى الإنفاق فلا يبخل ولا يسرف ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨]. ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. وأن يكون الإنفاق من خير ما يملك. . ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. وأن يكون الإنفاق لله بعيداً عن الرياء والسمعة ولا يتبعه من ولا ضر. . ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ويأمرنا الله عز وجل أن نطهر أموالنا بالإنفاق عن كل مورد اكتسبناه ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] . . وينهانا عز وجل أن يكون الإنفاق على المحرمات وعلى رأسها الربا وأكل أموال الناس بالباطل. . ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وموضوع هذه الفقرة تناولته الكثير من آيات الكتاب وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام والتطبيق العملى فى عهد الخلافة الرشيدة.

٤- الاهتمام بالزراعة والثروة الحيوانية:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى: ٢٨]. ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩]. من هذه الآيات وغيرها نجد اهتماما كبيراً بالأرض وزراعتها وتعميرها ورعاية الثروة الحيوانية كبيرها وصغيرها.. ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: ١٤٢].

ولقد خلق الله السماوات والأرض بالحكمة والقدر الذى يسمح بوجود الحياة على الأرض وتوفر كل ما يحتاجه آدم وحواء وخلق الغنم والماعز والأبقار والإبل والدواجن بجميع أنواعها وتناسلها وتكاثرها وقد وضع الله عز وجل لها نفس القاعدة التى وضعها للإنسان سن لها سنة التزاوج للتكاثر وحفظ البقاء وأحاطها بالهواء وساق لها الماء، وملأ الأرض بالخيرات.

والله عز وجل يذكر الإنسان بفضله ومنته عليه فقد خلق له الرزق وقدر له ومنحه هذه النعم وما عليه إلا أن يشمر عن ساعد الجد فيقوم بواجبه فى رعاية هذه الأنعام وتربيتها وزراعة الأرض لتوفير المراعى لها وتدبير الأعلاف التى تحتاج إليها فيتغذى بألبانها ولحومها، وبيضها ويستخدم جلودها وأصوافها...إلخ.

ويتخذ منها ظهرا ينتقل عليها ويحمل عليها أثقاله.. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧].

كما عليه أن يضع خطط الرى واستصلاح الأراضى وزراعة المحاصيل والبساتين وما يحتاج إليه الإنسان والحيوان من خيرات زراعية.. ولقد شبه الله عز وجل الجزاء فى الدنيا والآخرة بالحرث تكريما لمعناه.. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]. ولعل فى ذلك دعوة إلى تكريم الزراعة والاهتمام بها ووضعها فى المرتبة الأولى عند الاهتمام بالإنتاج وجوانبه المختلفة وكذلك تكريم القائمين عليها وتشجيعهم وتسهيل مهمتهم بكافة الوسائل التى يراها المجتمع المسلم.

٥- الإيمان والعمل الصالح رائد للفرد والجماعة:

﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥]. ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى: ٢٣].

فكل فرد من أبناء هذا المجتمع يؤمن بالله واليوم الآخر والقضاء والقدر.. ويتعلم من الكتاب والسنة ويتمسك بشعب الإيمان فيحرص على أن يتصف بها ويتحلى بخالصها كما أنه يلتزم بأن يكون عمله دائماً نابعاً من إخلاصه لله وتوجهه إليه وأن يوفى العمل حقه من الإتقان والدقة ورقابة الله، فهذا هو العمل الصالح ولا فارق بين العمل الكبير والصغير والهام والبسيط.

فالجزاء عند الله ليس على حجم العمل ونوعيته بل على درجة الإخلاص والإحسان فى العمل.

والأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام والمجتمع بأكمله يحرص على تربية النشء على الإيمان والعمل الصالح، ويتعاون الجميع فيما بينهم على الإحسان فى كل شىء.

والعمل فى المجتمع الإسلامى يتجه أساسا للآخرة؛ فالمواطن الذى تنحصر آماله وطموحاته فى كسب مادى قل أو كثر محروم من ثواب الآخرة ونعيمها الأبدى.. كما أن هذا المكسب المادى المحدود لا يرقى إلى أسباب السعادة والنعيم الدنيوى والأخروى فهو مع ثرائه وغناه دائم الشكوى والتأفف لا تكتمل له الطمأنينة والأمن القلبى.

أما الذى يبتغى من عمله رضا ربه وجزاءه عليه فى الآخرة فإن الله عز وجل يجزل له العطاء فى الدنيا والآخرة وهو دائماً راض سعيد موفق حتى لو افتقد المال والجاه والعيال... إلخ، تملأ السكينة قلبه، ويحيطه الله بالحب، وينعم عليه بالرحمة والرضوان.

وهذه الحقيقة تتحطم على عتبتها أطماع كثيرة لأصحاب المهن والحرف وتضع الضوابط الذاتية لتحديد المكاسب والأتعاب فليس الربح والجرى خلف تكديس المال هو الهدف والدافع للمواطن فى هذا المجتمع بل توجد أبواب كثيرة للخير والتعامل الكريم بين عامة الناس وأصحاب الخبرة والاختصاص فالطبيب الذائع الصيت يقوم بإجراء عمليات جراحية وكشوف مجانية على المرضى الفقراء بل

ويقدم لهم الدواء والمساعدات المالية ومختلف الخدمات بدون مقابل، ونسمع فى المجتمع المسلم عن التاجر الكبير الذى يرصد كل أو بعض ما استورده أو دخل مخازنه من سلع ليوزع بالمجان أو بأقل من سعر التكلفة أو بدون أرباح على الفقراء والمساكين والمحتاجين.. هذا المجتمع الذى تتعلق قلوب أبنائه بالله وخشية الله وحب الخير والمسارعة ويعشش فيه الإيثار وتصبح الإرادة المتحكمة فى تصرفات أبنائه ومعاملاتهم والإنفاق لوجه الله سراً وعلانية، هل يحتاج إلى دعم حكومى، وهل تصبح مشكلة الدعم هى العقبة الكنود لمستقبله الاقتصادى؟ لا شك أنه سيستغنى تماما عن هذه الحلول الغريبة التى لا يستفيد منها سوى القادرون ويحرم منها الفقراء المحرومون.

ونظرة المؤمن إلى العمل للآخرة لا تتعارض مع نظرته فى العمل للدنيا؛ ففى كليهما يجب أن تكون نيته خالصة لله عز وجل، وهو ملتزم فى كل تصرفاته بمفهوم الحلال والحرام والتقى والصلاح والخير.

فالعمل الدنيوى رصيد له فى ميزان حسناته يوم القيامة، والعمل للآخرة زاد يقويه على العمل الدنيوى ويهيىء له فرصا أفضل للتفكير والنظام والتشجيع على العمل وإجادته وإحسانه وذلك بوضع أنظمة للحوافز والجوائز والترقية فكل محسن فى عمله يقابل إحسانه بالتقدير والتزكية والمكافأة من رؤسائه وإخوانه ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠].

وينتفى من المجتمع المسلم الحقد والحسد وتمنى ما بيد الغير ﴿لا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

والجميع يتنافسون على الإجادة والتفوق فيقدم كل مواطن أفضل ما عنده وينال بذلك التكريم والتقدير والمكافأت السخية علاوة على ما عند الله عز وجل من الأجر والثواب.

وهكذا نرى مباراة رائعة بين جميع أفراد هذا المجتمع. . فالكل يتسابق ويتعاون مع الآخرين ويشجعهم ويأخذ بيدهم ولا نرى أحداً يسقط دون أن يهرول الجميع إليه لنجدته ولا نرى تكاسلا أو اتكالاً أو تراخياً أو إهمالاً أو جحوداً أو إضراراً بالغير فهذه الصور لا وجود لها فى هذا المجتمع ولا نسمع عن الرشوة أو العمولات والهدايا لموظف عام أو الرواتب المحرمة والخدمات المغرضة وغير ذلك من صور الأموال الحرام التى انتشرت وتنوعت فى مجتمعات اليوم.

ليس هذا خيالا أو شطحات فلاسفة ولكنه يعبر عن وجود فعلى ترك بصماته واضحة جلية على صفحات التاريخ الإنسانى ولا يستطيع أحد أن ينكر واقع المسلمين الأوائل فى مختلف العصور وكيف كان تعاملهم مع أعدائهم فى الحروب وحكمهم للأقليات الغير مسلمة واحترام العهود والمواثيق مع الدول الأخرى سواء كان فى دار الحرب أو دار المعاهدة.

٦- التطهر بالتوبة والرجوع عن الخطأ:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٥]. لما كان أبناء هذا المجتمع يتصفون بالنشاط والعمل والحركة والإقدام فإن هذا يحمل بين طياته احتمالات الوقوع فى الخطأ والإثم والاعتداء على حقوق الغير، على عكس البلادة والسلبية التى يقل معها الوقوع فى الخطأ لقلة الحركة والعمل ولكنهم سرعان ما يعترفون بخطئهم ويتراجعون عن اعتدائهم بل يتوقفون فوراً عند مجرد الشعور بالخطأ ويستغفر الفرد ربه ويتوب إليه ويقلع ولا يعود. . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وهذه الصفة تطهر مجتمعنا وتنقيه من شوائب المجتمعات ونقائصها وتسمو به إلى أرقى وأفضل الأمم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ومن هذه السمات نرى كيف ترتبط الماديات بالقيم والأخلاق والعقيدة ولايمكن أن تنفصم الشخصية الإسلامية فى هذا المجتمع فيقال - ما لقيصر لقيصر وما لله لله - بل كل شىء لله وما لقيصر وإن لم يكن لله فهو ظلم وانحراف ومعصية.

وتختلف هذه الظاهرة كسمة عامة للمجتمع المسلم عن جميع المجتمعات الغربية والشرقية، الحاضرة والقديمة حيث إن القانون وما أعده للأفراد الخاطئين من عقوبات هو الأسلوب الوحيد الذى تلجأ إليه هذه المجتمعات فى الرجوع عن طريق الإثم والجريمة أما باب التوبة المفتوح على مصراعيه لجميع الخاطئين والآثمين والمجرمين فى المجتمع فهو أفضل وسائل الإصلاح إذا وقف جنبا إلى جنب مع القوانين الرادعة والمؤسسات التى تعمل على تطبيق هذه القوانين على أساس من العدالة ومخافة الله.



الانفصام بين العقيدة والسلوك

المبحث الأول : آثار ترك العقيدة في حياة الأفراد والجماعات.

المبحث الثاني : آثار ترك العقيدة في البناء الاجتماعي.

المبحث الثالث : آثار ترك العقيدة في الجانب الاقتصادي «الأمن والإطعام».

المبحث الأول
آثار ترك العقيدة فى حياة الأفراد والمجتمعات

عرفنا أثر العقيدة الإيمانى والسلوك الاقتصادى فى استقامة حياتنا، والآن نتناول أثر عدم الالتزام بالعقيدة الإسلامية، فبعد أن أفلت كثيراً من الناس فى البلاد المتقدمة من ربقة الدين، ولم يتقيدوا بعقيدة ثابتة، ونادوا بالتطور فى الأخلاق والأديان والأفكار والتقاليد، لقد ظهرت آثاره - فى أشد الدول رخاء من حيث المادة - ظهرت آثاره فكانت هذه المظاهر:

١- سوء فى التوزيع، ثراء فاحش من ناحية وفقر مدقع من ناحية، ترف من ناحية يقابله حقد وغيظ فى قلب الفقير مما يجعل المجتمع على شفا بركان مهدد بانقضاض طبقة على طبقة.

٢- الكبت والقمع والخوف فى الأمم التى ادعى بعض حكامها أنهم يريدون عدالة التوزيع، وقامت المجازر على الطريق، وسالت الدماء، حتى تناقص عدد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى (٢٦) مليونا فى مدة ربع قرن، بمعدل المليون ونيف سنويا، ونقص فى يوغسلافيا مليون مسلم.

٣- الانحلال النفسى والخلقى الذى يؤدى إلى تدمير الحياة المادية ذاتها، لأن الحضارة لابد لها من ضمان يحميها، ومؤيدات تحفظها فإذا غرقت الأمة فى وحل الجنس وعفن النزوات الحيوانية فإنها تزول، والتاريخ خير شاهد؛ لقد اندثرت أثينا عندما عبدت الشهوة، وكذلك ذهبت الإمبراطورية الرومانية التى استغرق بناؤها ألف عام، وسقطت روما على يد ضربات من قبائل متوحشة همجية من الوندال والهون وذلك بعد أن ألهت روما فينوس الزانية كإله للجمال، وباخوس السكير كإله للخمر، وكيوبيد الذى تقول أساطيرهم الموروثة عن اليونان أنه ابن أفروديت- إله الحب التى زنت من ثلاثة آلهة- فأصبح كيوبيد إلها للحب.

٤- القلق العصبى، والتمزق النفسى، والأمراض النفسية والعصبية والجسدية والقرح المعدية، والشذوذ الجنسى، وانفصام الشخصية، والانتحار الذى أصبح ظاهرة خطيرة فى المجتمعات المترفة، خاصة فى قطاعات التمثيل والسينما والمسارح. والأمراض الجنسية حتى خصصت مئات المستشفيات للأمراض الجنسية كالزهرى والسيلان. ففى أمريكا مثلا - كما تقول - دائرة المعارف البريطانية يخصص للأمراض الجنسية أكثر من الأمراض بمجموعها عدا السل، وذلك لأن ٩٠٪ من الشباب الأمريكى مصاب بالزهرى و ٦٠٪ مصابون بالسيلان و ٤٠٪ مصابون بالبرود الجنسى، ويموت سنويا ثلاثون إلى أربعين ألفا من الأطفال بمرض الزهرى الموروث[١].

وهذا يؤدى إلى عدم صلاحية كثير من الشباب للجندية فقد ردت فرنسا فى الحرب الأولى سبعين ألفا لهذا السبب، وكذلك فى الولايات المتحدة كثير من الشباب لا يصلحون للجندية؛ وذلك لإغراقهم فى الجنس والانحلال. وهذا يؤدى إلى هبوط مستوى الذكاء، وقلة الاحتمال، وبالتالى قلة فى الإنتاج.

٥- الخوف العالمى من الدمار الشامل فى هذا العالم المضطرب، وشبح الحرب الرهيب يضغط على أعصاب الكثيرين ويقض مضاجعهم.

٦- ميل بعض الشعوب إلى الانقراض. فمثلا فى فرنسا عدد الجاليات ثلاثة وثلاثون مليونا من بين اثنين وأربعين مليونا من سكان فرنسا الأصليين.

٧- بعض مظاهر التمرد تعبر عما تعانيه البشرية من حيرة وقلق وتعب. مظاهر الخنافس والهيبز الذين أصبحوا يشكلون خطراً كبيراً على أمن أمريكا وأوروبا ويعقدون الاجتماعات التى قد تعد بالملايين فهم من جميع

---

(١) أبو الأعلى المورودى: الحجاب، فصل أوروبا الجديدة، القاهرة، د.ت، ص ١٠.

الطبقات الاجتماعية، فى الشارع العام «أكلهم وشربهم وبرازهم ونكاحهم فى مكان واحد ووسط الشارع».

والآن دعنى أنقل إليك فقرة من كتاب الأستاذ سيد قطب «خصائص التصور الإسلام»[(١)] إذ يقول:

«والعاقل الواعى الذى لم يأخذه الدوار الذى يأخذ البشرية اليوم. حيث ينظر إلى هذه البشرية المنكوبة، يراها تتخبط فى تصوراتها وأنظمتها وأوضاعها وتقاليدها وعاداتها وحركاتها كلها تخبطا شنيعا. يراها تخلع ثيابها وتلقيها كالمهووس، وتتشنج فى حركاتها، وتتخبط كالممسوس، يراها تغير أزياءها فى الفكر والاعتقاد. كما تغير أزياءها فى الملابس وفق بيوت الأزياء.

وتنظر إلى وجوه الناس، ونظراتهم، وأزيائهم وحركاتهم وأفكارهم وآرائهم ودعواتهم؛ فيخيل إليك أنهم هاربون مطاردون لا يلوون على شىء ولا يتثبتون من شىء، وهم هاربون فعلا، هاربون من نفوسهم الجائعة القلقة الحائرة، التى لاتستقر على شىء ثابت، ولا تدور حول محور ثابت.. زمرة من المرابين، ومنتجى السينما، وصانعى الأزياء والصحفيين والكتاب.. يهتفون لها بالمزيد من التخبط والصراع والدوار، كلما تعبت وكلت خطاها وحنت إلى المدار المنضبط والمحور الثابت وحاولت أن تعود. زمرة تهتف لها: التطور.. الانطلاق.. التجديد بلا ضوابط ولا حدود.. أنها الجريمة.. الجريمة المنكرة فى حق البشرية كلها.. وفى حق هذا الجيل المنكود»[(٢)].

---

(١) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى، القاهرة، دار الشروق، د.ت، ص ٨٩.

(٢) خصائص التصور الإسلامى، ص ٩٠ وما بعدها.

والآن تعال معى كى نرى فى الصورة المقابلة «الشخصية المسلمة والمجتمع المسلم»:

أما الشخصية المسلمة التى بنتها العقيدة فتجد صاحبها: مطمئن النفس، هادىء البال، قرير العين، ليس بالقلق ولا بالحيران حتى كان أحدهم يقول:

«نحن فى سعادة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها» وقيل للعالم عبد الله ابن المبارك «من الملوك»؟ قال الزهاد، قالوا: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون بدينهم، قالوا: فمن سفلة السفلة؟ قال: الذين يصلحون دنيا غيرهم بتضييع دينهم».

ولعلك تتذوق معنا حلاوة الأبيات التى كانت تتغنى بها رابعة العدوية:

فليتك تحلو والحياة مريرة	**وليتك ترضى والأنام غضاب**
وليت الذى بينى وبينك عامر	**وبينى وبين العالمين خراب**
إذا صح منك الود فالكل هين	**وكل الذى فوق التراب تراب**

وفى هذا المعنى يروى صهيب عن رسول الله ﷺ «عجبا لأمر المؤمن، أن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»[1].

والمسلم الذى استقرت العقيدة فى أعماقه لا يقلق لأسباب منها:

١- ليس هناك أسئلة فى الكون تحيره: فهو يعلم أن الله واحد وأن هذا الكون كله من خلق الله ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، وهو يعلم أن الإنسان قبضة من طين ونفخة من روح، خلقه رب العالمين بيديه، وبدأ رحلته من الجنة ونزل إلى الأرض وأن له طريقا مستقيما توصله إلى منازله الأولى.

---

(١) صحيح مسلم ٢٢٩٥.

فحي على جنـات عـدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبى العـدو فهل ترى نعـود إلـى أوطاننا ونسلم(١)

هذا الطريق المستقيم هو اتباع القرآن والسنة، وأن له عدوا عنيدا سبب إخراجه من الجنة، وهكذا كل الأسئلة التى تحير الفلاسفة والمفكرين أخبره عنها ربه فأراحه وطمأنه من مصدر موثوق صادق يجيب له عن جميع استفساراته.

٢- أنه يعلم أن هذه الدنيا ليست النهاية والجزاء ليس فى هذه الأرض وأن إلى ربك المنتهى ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١) ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

فما فاته فى الدينا سيعوض عليه فى الآخرة، والحياة الدنيا بالنسبة للآخرة كساعة من نهار.. ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

وهذا كله يسكب الطمأنينة فى قلبه والسعادة فى أعماقه، وهذا يجعله يترفع على الصغائروسفاسف القول والعمل ويهتم بما عظم من الأمور.

وهذا يربى عنده التضحية والبذل حتى أنه ليبذل روحه فى سبيل الله طمعاً فيما هو أكبر من النفس والأرض وهو الجنة، ولعلك تذكر معى ما قاله خالد ابن الوليد رضي الله عنه لملك الروم «جئتك بقوم يحبون الموت كما يحبون الحياة».

وهذه التربية الإسلامية العالية هى التى جعلت المرأة من بنى عبد الدار عندما أخبرت باستشهاد زوجها وأخيها وأبيها تقول ماذا صنع رسول الله ﷺ؟ فقالوا: هو بخير قالت: «كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل» أى هينة.

٣- وهو مطمئن لأنه يعلم أن الرزق محدود والأجل مقدر ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢].

(١) ابن القيم: طريق الهجرتين وباب السعادتين صفحة ٥١، وحادى الأرواح إلى بلاد الأفراح صفحة ١٣.

والاطمئنان إلى كل شيء فى هذا الكون يقدر، وأن الله عز وجل وراء كل حدث وفوق كل نفس وهو «فعال لما يريد» وغالب على أمره، ولا معقب لحكمه، وإليه يرجع الأمر كله، ولله خزائن السماوات والأرض، يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وهذا الاعتقاد يجعل الإنسان أعز من على الأرض ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وهذا الاعتقاد هو الذى أخرج أمثال ابن تيمية الذى تحدى حكام زمنه الذين زجوا به فى سجن القلعة – قائلا: «ماذا تصنعون بى؟ إن قتلى شهادة وإن سجنى خلوة، وإن نفيى سياحة».

ولهذه العقيدة أبناؤها البررة فى كل زمان، فلنصغ إلى العز بن عبدالسلام من وراء القرون، وهو يرد على رسول الملك الصالح إسماعيل الذى رجاه أن يعتذر للسلطان ويقبل يده حتى يعيد إليه مناصب القضاء فقال: «والله لو قبل يدى ما قبلت، يا قوم أنتم فى واد ونحن فى واد، الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به».

وفى هذا العصر كان من أبنائها البررة الأستاذ سيد قطب الذى كانت تعرض عليه مناصب الدنيا من وراء القضبان ولكنه أثر الزنزانة على البريق الخادع والألاء الكاذب.

وكان يقول: «لماذا استرحم» إن كنت محكوما بحق فأنا أرتضى حكم الحق وإن كنت محكوما بباطل، فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل».

والعقيدة ذاتها هى التى جعلت محمد صالح عمر «الوزير السودانى المعروف» يطأ الدنيا بقدميه ويؤثر حياة المغاور والخيام فوق ربُى فلسطين مجاهدا حتى آخر شهيد فوق جزيرة أبا.

وهاكم الشيخ سعيد الذى قال لحاجب الملك «قل لسيدك: إن الذى يمد رجله، لا يمد يده»[1].

---

(١) أبو الحسن الندوى: ربانية لا رهبانية، القاهرة، د.ت، مقدمة الكتاب.

«أما المجتمع الذى صنعته هذه العقيدة»:

فإنه مجتمع يعز على الخيال أن يتملاه، فانظر إلى سماته:

١- **فهو مجتمع آمن،** كل فرد من أفراده آمن على عرضه: فالزنا من أكبر جرائمه يستحق عليها المحصن عقوبة الموت رجما بالحجارة.

وهو آمن من أن يمس جنابه بكلمة سواء كانت كلمة قذف فى عرض إذ أن هذه الكلمة توجب جلد ثمانين أمام الناظرين. ولا يمس طرفه بكلمة معيبة.

وهو آمن على ماله: فالسرقة كبيرة ومن سرق من ماله مقدار ربع دينار فإن هذا المبلغ يعرض يد السارق للقطع. وهو آمن من أن يعرض ماله للضياع عن الطرق المحرمة فالربا محرم، والاحتكار ممنوع، والغش منفى بتاتا والقمار رجس من عمل الشيطان.

وهو آمن على نفسه: فكل يد تمتد لتسفك دمه ظلما فلن يكتب لهذه اليد البقاء إذا أصر أولياؤه على الثأر من القاتل. فهذا المجتمع فيه:

﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

وهو آمن على نفسه وماله وعرضه من الحاكم فالحاكم والمحكوم مقيدون بأحكام الشرع لا يستطيعون أن يخرجوا عليها.

٢- **وهو مجتمع متحاب:** أفراده كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

مجتمع إذا صاحت امرأة مستغيثة فى عمورية هب الخليفة لنجدتها من بغداد وتحرك الجيش بأسره لمجرد صرخة ألم انطلقت من فم مسلمة.

مجتمع يقول فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه «لئن أتقدم إلى سيف فيقطع عنقى فى غير معصية أحب إلى من أن أتأمر على أناس فيهم أبو بكر».

مجتمع يقول فيه الشافعى عن الإمام أحمد بن حنبل:

قالــوا يزورك أحمـــد وتزوره قلـت المكـارم لا تفـارق منزلـه

إن زارنـى فبفضلــه أو زرتـــه فلفضله فالفضل فى الحالين له

ويقول الإمام أحمد عن الشافعى: «لقد كان الشافعى كالشمس للدنيا، والعافية للجسد وهل لهذين من خلف، أو عنهما من عوض»[١].

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: «ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعى وأستغفر له»[٢].

ويقول الشافعى: «الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة»[٣].

وهو مجتمع نظيف ليس فيه من الزبد ما يطفو على وجهه، ولا من الأقذار والمشاكل ما يعكر صفوه. مجتمع لا ترفع فيه قضية واحدة خلال عام كامل فى زمن أبى بكر.

وهو مجتمع غنى يجمع يحيى بن سعيد صدقات أفريقيا فى زمن عمر ابن عبدالعزيز الزكاة، وينادى شهراً كاملاً ليأتى مستحقوها لأخذها ولم يتقدم فأمره عمر أن يشترى رقيقا ويعتقهم.

وهو مجتمع متراص متضامن لا خلل فيه ولا جيوب فلا يستطيع أى جسم غريب أن يتحلل فيه أو أن يعيث فساداً، ولقد حاول ملك غسان أن يراود كعب ابن مالك فى أزمته التى وصفها القرآن : **﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾** [التوبة: ١١٨]. فى هذا الوقت الذى قاطعته المدينة بأسرها كما يقول كعب فى رواية البخارى عنه «ونهى النبى ﷺ عن كلامى وكلام صاحبى. .»[٤].

(١) أخلاق العلماء لمحمد سليمان، ص ٣٢.
(٢) محمد سليمان: أخلاق العلماء، القاهرة، نهضة مصر، د.ت، ص ٣٢.
(٣) أخلاق العلماء، صفحة ٣٢.
(٤) فتح البارى لابن حجر ٩/ ٤١٢.

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه:

بينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا أنا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه فى المدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا. فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وأن الله لم يجعلم فى دار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء. .»[1]. وما استجاب له!!

إنه مجتمع عجيب حقا، يعجز ملك غسان أن يستميل إلى جانبه رجلا منبوذا منه تنكرت له الأرض التى عليها يعيش، وتنكر له الناس الذين عاش وشب بين ظهرانيهم.

وهو مجتمع أفراده على قلب رجل واحد منهم، ملتفون حول قائدهم، يتحركون بإشارته، ويضحون لمجرد نظرة من الأمير.

هذا المجتمع الذى قاطع كعب بن مالك - حتى عن رد السلام والكلام - قاطعه حتى لم يعد يحظى بكلمة واحدة من أى فرد من أفراده، وذلك بمجرد كلمة سمعها المجتمع من الرسول القائد ﷺ.

ودعنا نستمع إلى الإمام الأعظم -أبى حنيفة- وهو يعبر بكلماته القليلة عن معنى الطاعة فى أعماقه للأمير، فلقد منعه المنصور من الإفتاء. وفى إحدى الليالى جرح إصبع ابنته فجاءت تسأله عن تأثير الدم على وضوئها فقال: اسألى حماداً، فلقد منعنى أميرى من الإفتاء، وما كنت لأعصى أميرى بالغيب.

من آثار ترك العقيدة عدم تقوى الله عز وجل:

الطاعة نية قبل أن تكون قولا أو عملا. وقد يكون الباعث النفسى عند المطيع خشية الناس، وتكون الغاية من طاعته ابتغاء الذكر الحسن، فيجهد نفسه فى

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٩.

الطاعة حتى يسلم من التقول عليه بما يسيء إلى مكانته التى يحرص عليها، والله سبحانه يحب أن يكون عبده ملكا له، لا يشركه أحد فى نيته، وقوله، وعمله، واعتقاده، فإذا كان قد أذن للعبد فى طاعة رسله، فإنه لم يأذن له أن يتقى أحدا غيره سبحانه، بل أوجب أن تكون تقوى الله وحده هى الباعث على الطاعة والغاية منها. والتقوى هى جعل النفس فى وقاية مما تخاف. وأشد ما تخافه النفس البصيرة غضب الله، وسوء المصير يوم القيامة. والله وحده هو القادر على أن يقى عبده من كل ما يخاف، فإن الغضب غضبه، والرضى رضاه، والملك كله ملكه -جل شأنه- ولئن كان بعض الملك فى الدنيا عارية لبعض خلقه فى الحياة، فالملك كله للرحمن يوم القيامة ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يخشى عبد الله إنساناً، أو يرهب سلطاناً، أو يتقى فى طاعته غير خالقه ومالكه ومولاه؟.

ولهذا وجه الله الأمر بتقواه إلى الإنسانية ممثلة فى إنسانها الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]. أمر لأول المتقين وأفضلهم أن يتقى الله وحده؛ فيما بالك بسواه؟! ولو أن التقوى كانت تجوز لأحد غير الله لجازت لرسوله؛ إذ جعل طاعته طاعة لله جل شأنه، ولكن الله تعالى يهديه إلى الحق إذ يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]. يأذن الله فى طاعة رسوله ويوجبها، أما التقوى فيجب أن تكون لله وحده. ويقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١].

وهكذا فى كل آية قرآنية تذكر فيها الطاعة والتقوى تجد الأمر بتقوى الله وحده مع الأمر بطاعة الله ورسوله، ولذا كان رسوله يأمر قومه بتقوى الله وحده وإن كانت طاعته واجبة عليهم بأمر الله مع طاعة الله. أمر بها نوح أول الرسل عليه السلام قومه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨]. وأمر بها هود عليه السلام: ﴿إِنِّي

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾ [الشعراء: ١٢٥-١٢٦]. وصالح عليه السلام ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٤٣، ١٤٤]. ولوط عليه السلام : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الشعراء: ١٦٢، ١٦٣]. وشعيب عليه السلام: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧٨، ١٧٩].

واجب الآمر بالتقوى: يوجب الله سبحانه وتعالى على من يأمر الناس بالتقوى أن يكون لله متقيا قبل من يدعوهم إلى تقوى الله، وأن ينأى بدينه عمن لا يتقون ربهم، فلا يشركهم فى مجلس طعام، أو شراب، أو غير ذلك: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

والبر فى العبادة: تقوى الله وحده، ويقول ﷺ: إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول له: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد -وهو على حاله- فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَاسِقُونَ﴾ [المائدة ٧٨-٨١]. ثم قال ﷺ: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا - (أى تردونه إلى الحق)- أو: لتقصرنه على الحق قصرا[1].

وكما دخل النقص على بنى إسرائيل دخل علينا نحن المسلمين، ومازال يدخل، ولن يبرأ المسلمون من هذا النقص الذى أباحهم عبيدا لعدو الله إلا إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وأخذوا على يد الظالم بقوة وشدة.

---

(١) أبو داود والترمذى.

جزاء التقوى: يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. ترك الجزاء هنا مجملا موصوفا بالعظم ليثير فى النفس أشواق المتشوق إليه، ولكن الله سبحانه فصل لنا ثواب التقوى بعد ذلك فى كثير من آيات كتابه المبين، والمتأمل فيها يدرك أنه سبحانه جعل للتقوى ثوابا فى الدنيا وثوابا فى الآخرة، وأن منه الحسى المادى: تشهده الحواس وتنعم به، والمعنوى الروحى: تشهده الروح، وتسعد به النفس، ويغنم به الفكر.

فثواب التقوى فى الدنيا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وثوابها فى الآخرة: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: ١٥]. وهذا هو الثواب الحسى المادى، أى المتقون فى ذوات تدرك بإحدى الحواس، أما الثواب المعنوى الروحى فمالى إلا أن أذكرك بآياته، فهو فوق كل بيان بشرى موهوب: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]. فمن ثواب التقوى حب الله لعبده، وما بعد حب الله ثواب فى الدنيا والآخرة! ولا أمل تتشوق إليه روح المؤمن الشهيد! وهو ليس بالحب الذى يولى الجميل والنعمة مرة أو مرات ثم يقطع جوده وفيضه؛ بل هو حب يعد المتقين بأن الله دائما معهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. أما الثواب الذى تسعد به النفس: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]. إنها فى حالة صفاء مشرق، وسعادة غامرة، لا يمسها خوف من الغد، ولا حزن على أمس. فأية نفس تسمو إلى أفق هذه السعادة؟! إنها نفس من يتقى الله.

إن النفس الإنسانية فى الحياة يربطها الماضى بذكراه، ويربطها المستقبل بالرجاء فيه أو الخوف منه، وكمال السعادة النفسية أن يكون رباطها بماضيها الرضى عنه، وبالمستقبل الرجاء المحقق، وانتفاء الخوف من صروفه، فهل توجد هذه السعادة النفسية الكاملة التى يكون المستحيل أحيانا تخيلها؟ وهل يوجد فى الحياة البشرية من ينعمون بهذه السعادة؟ إنها توجد فى التقوى، والذين ينعمون بها هم المتقون،

أما ما يغنمه الفكر والعقل من التقوى، أو ما تغنمه المعرفة الإنسانية وهى تجد فى البحث عن الحقيقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. وما يغنم الفكر البشرى فى الوجود شيئا أجل من أن يكون له فرقان يفرق به بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الهدى والضلال، أى يفصل بالحق بين حقائق الأشياء، ويقوم بالقسط والحكمة كل قيم الدين والمعرفة والأخلاق، فلا تخدعه ظنون، ولا تفتنه شبهات، ولا تزيغه شكوك. هذا هو الثواب العام، يكفله الله سبحانه لمن يتقه، ويفيضه نعما؛ تشمل وجوده المادى والروحى.

ثوابها المخصص ببعض الأحوال: للنفس الإنسانية فى دنياها آمال وأمنيات تسعى إليها وتكدح فى سبيلها، وقد يعترض سبيلها الذى ارتضته مسلكا للرزق عقبات تجعل الرحب الفسيح ضيقا، حتى لتكاد تشعر النفس بانسداد الطريق عليها، وقد تتوجه آمال النفس إلى أمر جليل تحسبه يسيرا، حتى إذا شارفت حماه استعصى عليها، وألفته عسيرا لا تستطيع بلوغه إلا بعون كريم، وقدرة أخرى فوق إمكانيات قدرتها. فهل يدعه الرحمن للضيق يستنفد قوته وصبره، وللعسير يعذب شعوره وحسه وفكره؟ كلا فالله أرحم بعبده من أمه وأبيه؛ إذ جعل للتقوى ثوابا يرعى به عبده فى مثل هذه الأحوال الخاصة كما جعل لها ثوابها العام فى كل أحواله العامة، لقد وعده الله أنه معه، فإذا أحاط به الضيق، أو أجهده العسر، جعل له من الضيق مخرجا، ومن العسر يسرا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فالمتقى الله لا يجد من الضيق مخرجا فحسب، بل ينعم بالرزق فى سبيل كان لا يحتسب فيه رزقاً، لأنه على الله متوكل، والمتوكل على الله يكفيه الله كل شئونه، ويبلغ له كل أمر يريده: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. لقد اتقى هذا العبد ربه، فكان الله معه، فكيف يستشعر بعد ذلك ضيقاً أو عسراً؟! والمؤمن التقى يجاهد قوى الشر التى تحارب إيمانه وتقواه، وهى شهوات نفسه،

وفتون دنياه، ووسوسة الشيطان، إنساناً كان أم جناً، وقد يمس التقى طائف من الشيطان، فيلقى على بصره غشاوة تختلط بها أمامه الأشياء وقيمها، فيقترف الذنب، أو يكتسب السوء. ولكنه يلوذ بذكر الله، فيبصر الحقيقة التى غشى بصره عنها الشيطان، فيستغفر الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ولقد وعد الله من يتقيه بمحبته، والحب الكريم فياض السماحة والرحمة والمغفرة -ومحبة الله لعبده فوق كل حب وأسمى وأعظم كرما وأبر جودا، ولهذا يثيب سبحانه عبده -التقى- إذا أذنب بثوابين، أحدهما: محو أو سلبى، والثانى: إثبات، أو إيجابى: فالأول تكفير ذنبه، والثانى إعظام أجره على حسناته حتى يوارى به كل ذنوبه وسيئاته: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. ذلك كله ثواب التقوى العام الشامل لكل حال، وثوابها الخاص ببعض الأحوال.

تحقق وعد الله بالثواب على التقوى: ولما لثواب التقوى من عظم وجلال وجمال، فإن الله سبحانه وتعالى يؤكد لعبده التقى أنه بالغ -ولا ريب- ثواب تقواه؛ لكيلا يمس الشيطان بالشك يقين العبد فى صدق وعد الله، كما يصنع الشيطان مع من لا يثقون بوعد الله، ولا يؤمنون بكلماته: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦]. فكيف يرتاب عبد تقى بعد ذلك فيما وعده الله به من الثواب على تقواه؟!.

المبحث الثانى
آثار ترك العقيدة فى البناء الاجتماعى

١- إهمال مفهوم الأسرة الصحيح:

فلقد ارتبط خلق الله عز وجل لآدم وحواء وتناسلهم وتكاثرهم على هذه الصورة بخلقه عز وجل للسماوات والأرض، فالزواج سنة كونية من سنن الله عز وجل وقاعدة من القواعد التى تتحرك ذاتياً للمحافظة على هذا الكون الفسيح.. ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: ١١].

ولهذا فالاهتمام بقيام الأسرة ورعايتها والمحافظة عليها وتنظيم أمورها يرتبط بقدرته عز وجل وتدبيره للسماوات والأرض، وهذا ما نراه فعلا فى كتاب الله من تنظيم دقيق لأمور الخطبة والزواج والطلاق والميراث وبر الوالدين والعدل بين الأبناء فى تفصيل واف، وحصر شامل ورد فى الكتاب العظيم وفى السنة المطهرة.

والمجتمع المسلم حريص كل الحرص على إقامة حدود الله وتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه بهذا الشأن، وعليه أيضا تقديم كل ما يمكن تقديمه من خير لهذه النواة حتى يحقق لها النمو والسيادة والرخاء.

وما المجتمع إلا مجموعة من الأسر فكلما كانت هذه الأسر مؤسسة على التقوى وملتزمة بتعاليم الإسلام كان المجتمع قويا وأجياله قوية تقوم بأعبائه على أكمل وجه.

٢- إهمال النسل الصالح وتواصله:

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

وقضية النسل وتكاثره أو تحديده من تصريف المولى عز وجل وتدخل البشر لتحكمهم فى النسل من الأمور التى لا يقرها المجتمع المسلم، ولا يتبناها، أو يدعو لها فهى من إرادة الله ومشيئته وليس أمامنا إلا الدعاء والاتجاه إلى الله فيعطينا أو يمنعنا. وإذا كان الفقهاء قد أباحوا للفرد -وليس الدولة- تحت ظروف خاصة حق العزل فهو حق مقيد بإرادة الله ومشيئته ولا يمكن أن يعارضها فمهما حاول أن يمنع أو يوقف النسل فإن إرادة الله عز وجل فوق إرادته، وأنه مهما وضع من موانع للحمل لأسباب مشروعة فلن يستطيع أن يحرم نفساً من حياة كتبها الله لها، وهو يؤمن أيضا بأن الرزق مكفول ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]. ومن يشكك فى هذه الحقيقة فقد أشرك بالله عز وجل.

فالقوة فى المجمعات تستند إلى أسباب عديدة فى مقدمتها القوة البشرية ولا يمكن أن نتغاضى عن هذه القوة أو نقلل من أهميتها وإذا كانت مشكلة المجتمعات الفقيرة اليوم هى كثرة السكان وقلة الموارد والإنتاج فقد كان هذا واقعهم منذ القدم عندما كانت بلادهم مستعمرات ومحميات، والأعداد فيها أقل بكثير منها اليوم، وكانت الموارد متوفرة، ولكن يستغلها المستعمرون لمصالح شعوبهم وتقدمهم السريع الذى تحقق خلال قرن أو يزيد على حساب هذه الشعوب الفقيرة.

إن الدعوة لتحديد النسل ترتفع فى الدول الإسلامية وعلى العكس منها ترتفع دعوى زيادة النسل وفتح أبواب الهجرة أمام العقول والأيدى العاملة الماهرة فى كثير من الدول المتقدمة.

٣- كثرة الجرائم فى المجتمع:

الجريمة بجميع صورها تكاد تختفى من المجتمع المسلم؛ فالقتل والزنا والسرقة وقطع الطريق... إلخ، من الكبائر التى يتجنبها المواطنون فى هذا المجتمع.. ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم: ٣٢].

كما أن الفاحشة بشتى مظاهرها لا تجد لها موطنا تعشش فيه وتواجه بقوة وحزم من الجميع حكاماً ومحكومين بحيث ينعم الجميع بجو الطهارة والعفة الذى يسود هذا المجتمع.

فالأندية الليلية وما تقدمه من خمور وموائد القمار والأفلام الساقطة والأغانى الخليعة والذى يظهر مفاتن المرأة والقصص المسف والشذوذ الجنسى من الفحش المحرم لا يمكن أن يجد له مبرراً كأن يقدم تشجيعا للسياحة أو لزيادة حصيلة الضرائب والرسوم الجمركية وإيرادات الدولة فهذه موارد حـرام لا يقبلها الله، ولا يرضى عنها ولا يجيزها.

والحدود التى وضعت لجرائم الزنا والسرقة والحرابة - قطع الطريق والاغتصاب - وتعاطى المسكرات والقذف والردة وقصاص القاتل تضع موانع مشددة وردعا رهيبا تصفى تماما الجرائم وتمنع حدوثها.

والمجتمع المسلم لا يستغرب أبدا يدا مقطوعة للص تسبب فى فزع أسرة آمنة فى جوف الليل أو سلب مالاً حلالاً ادخره صاحبه من عرقه وكفاحه ليبنى بيتا يسكن فيه، أو يدفعه مهراً لزوجة، أو ينفقه على والدين شيخين مريضين. .إلخ.

والمجتمع المسلم يقف وراء الحاكم لتطبيق الحدود حرصا منه على تطهير بيته ومدينته من كل دواعى الجريمة والسقوط والفحشاء وهو فى الوقت ذاته يأخذ بيد العاصى حتى يتوب ويستر على المذنب فيستر الله عليه.

٤- عدم تشجيع العلم والعلماء:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ [الشورى: ٢٩-٣١].

إن الله عز وجل يخاطبنا بهذه الآيات موضحا لنا عظمة هذا الخلق العظيم -خلق السماوات والأرض- ويثير فينا دوافع البحث العلمى لمعرفة الأحياء التى

خلقها فى الأرض سواء ما كان منها واضحا معلوما أم ما كان خفيا مجهولا، وأن نعلم عنها كل صغيرة وكبيرة فنستفيد من هذا العلم ونسابق به الأمم.

بل تدفعنا هذه الآيات للنظر فى السماوات والبحث فيها عن هذه المخلوقات الحية التى تعيش على كواكبها، فالآية تشير إلى هذه الحقيقة بل تشير إلى احتمال أن نجتمع بهم فهل سيكون اجتماع على الخير أم الشر؟ فحتى يومنا هذا لم يصل العلم لاكتشاف كواكب غير الأرض تدب عليها أحياء شبيهة بما على أرضنا -إن الخيال قد برح بالكثيرين- فألفوا القصص وأخرجوا الأفلام عن هذه المخلوقات العجيبة ما سبقونا به من حضارة واحتمالات الدمار الذى سيحدث نتيجة لحربهم مع أهل الأرض.

وعلينا تشجيع العلم والعلماء فى كل جوانب العلوم نسابق الأمم فيما وصلوا إليه، ونكشف وجود العوالم الحية الأخرى فى هذا الكون ونكون على استعداد لمواجهة هبوطهم على أرضنا أو هبوطنا على كوكبهم بالترحيب والسلام، أو بالحرب والقتال.

ومع هذا التشجيع فهناك حقيقة أخرى عكسية تقرر بأن العلم لا يقدم فى جميع أحواله الخير للبشرية بل كثيرا ما يكون وراء الخلافات الأساسية التى وقعت وتقع دائما بين أصحاب العقيدة الواحدة والعقائد المتعددة فيدب النزاع والصراع وتقع الحروب ويحل بالظالمين سوء المنقلب ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧].

ونتيجة لهذا العلم - المجرد من الإيمان بالله والإخلاص للدين والأمة والذى يتبع الهوى فى غالب أمره نجد الأجيال المتلاحقة توارثت الكتب التى تركها الآباء فتقع فى حيرة شديدة لما فى هذه الكتب من الخلافات والتحريف والضلال الذى

يؤدى بهم إلى الشك والانحراف وعدم الإيمان بالرسول الكريم ﷺ والقرآن الواضح المبين الذى أوحى إليه من رب العالمين ولو صدق العلماء وقدموا حقا واضحا ونقلا سليما والتزموا فى كل ما نقلوه بالعلم المجرد عن الهوى لما نشبت هذه الخلافات.

ولهذا يميز المجتمع المسلم بين العلوم النافعة التى تخدم الإنسان، وتسمو بروحه وقلبه، وتنمى عقله وفكره، وتكسبه حضارة ورقيا وبين العلوم القائمة على الظن والمهاترات والتى لا تورث الإنسان إلا كفرا وفرقة وحروبا ودمارا، فيشجع العلوم النافعة ويشجب غيرها ويمنعها ولا يسمح لأحد من أبنائه أن يخرج العلوم ومخترعاتها عن خطها السليم فى خدمة الإنسانية بما يتمشى مع شرع الله، وقد عرف المسلمون الأول هذا المعنى؛ فوضعوا أسس العلوم الحديثة.

المبحث الثالث
آثار ترك العقيدة فى الجانب الاقتصادى
«الأمن والإطعام»

ترتبط قضية الإطعام والأمن بالعبادة فى الإسلام ارتباطاً وثيقاً، وتحقيق العبادة بمعناها العام الشامل هو هدف الدعوة الإسلامية وما تسعى إليه فى ساحة الأرض، هو أن تدخل البشرية كلها فى حظيرة العبادة وتعود إلى الله وتلتزم بشرعه. وعندما تعود البشرية إلى الله وتعبده حق عبادته، فى ذلك الوقت سوف تتوفر لها كل مقومات الحياة الكريمة المستقرة، فذلك وعد الله الذى وعد به الناس فى حالة عودتهم إلى شرعه، واتباعهم لهديه.

يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وما دامت البشرية انحرفت عن طريق الله وأعرضت عن هديه، فسوف تذوق شتى ألوان الذل والاستضعاف والفقر والضياع، حتى ولو كانت مجتمعات غنية تكتظ بالثروات التى تجعلها تبلغ شأواً بعيداً فى الترف والغنى، فإن هذه الثروات فى حالة الانحراف عن طريق الله سوف تكون سببا فى هلاكها وضياعها ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

إن مقومات الحياة الكريمة المستقرة تتلخص فى عنصرى الإطعام والأمن، فتوافر الإطعام والأمن فى مجتمع سوف يؤدى به إلى الاستقرار والثبات وسوف يعيش الناس فى ظله حياة تظللها العزة والكرامة.

وليس هناك أمن بدون إطعام، كما ليس هناك إطعام بدون أمن.. ولن تتوافر مقومات الاستقرار والثبات فى مجتمع إلا عن طريق القيم الإسلامية الربانية.

وهنا يطرح السؤال التالى:

ما صلة قضية الإطعام والأمن بمنهج الدعوة إلى الله؟.

والإجابة هى مايلى:

لقد فشلت الأنظمة والاتجاهات الوضعية التى تتحكم فى المجتمع البشرى اليوم فى توفير الإطعام والأمن للناس وإيصال المجتمع بالتالى إلى الاستقرار والثبات، فالمجتمع البشرى اليوم تسوده الفوضى والاضطرابات ويتحكم فيه الفقر والجوع والمرض فى ظل هذه الأنظمة والاتجاهات التى لا ينقصها إلا إعلان إفلاسها وتخليها عن السيادة والسلطان فى مجتمعاتها رحمة بالناس ورأفة بهم، وحتى تعطيهم الفرصة لكى تتيقظ فطرهم النائمة وتزيل عنها أوساخ الجاهلية وتتجه إلى بارئها سبحانه وتعالى.

وليس شىء من هذا سوف يحدث، والبشرية اليوم تئن من شدة أغلال هذه النظم والاتجاهات وقسوتها وطغيانها.

وفى ظل هذه الأوضاع الفاسدة التى تسود العالم، يجب على الدعاة أن يتحركوا لرفع راية الدعوة إلى الله واستغلال الأوضاع لصالح دعوتهم، قبل أن تستغلها القوى المتربصة لصالحهم وتعرقل بها مسيرتها.

ولذا وجب على الدعاة تعريف الناس بالقيم الإسلامية وتطبيقاتها، ولن تعلم القيم الإسلامية وتجذب الناس نحوها وتقتنع بأنها الخلاص من حياة الفقر والذل والاستعباد التى تعيشها، إلا إذا كانت هذه القيم فى حالة ممارسة على ساحة الواقع تعطى نتائجها وتجنى ثمارها فى ظل دولة متمكنة.

وقبل أن يتحرك الدعاة على طريق الجهاد من أجل نصرة الدعوة وإعلاء كلمة الله لابدّ لهم من منهج يتحركون على ضوئه، وهذا المنهج يجب أن يضع حسابا للأوضاع التى سوف يعمل فيها. وهنا يتضح لنا مدى الارتباط الوثيق بين قضية الإطعام والأمن، ومنهج الدعوة إلى الله.

إن ممارسة الدعوة فى ظل أوضاع مضطربة فاسدة كالتى نعيشها، يختلف كثيرا عن ممارستها فى ظل أوضاع آمنة مستقرة.

أو بمعنى أصح أن ممارسة الدعوة فى ظل الواقع المسلم، يختلف كثيرا عن ممارستها فى ظل واقع جاهلى. فذاك له منهج، وذاك له منهج؛ بناء على أن المجتمع المسلم له وضعه الذى يختلف اختلافا جوهريا عن أوضاع المجتمع الجاهلى. فالمجتمع المسلم تتوافر به عناصر الاستقرار والثبات التى تتلخص فى الإطعام والأمن.

أما المجتمع الجاهلى فتعدم فيه هذه العوامل فتعمه الفوضى والاضطرابات وينتشر فيه الفقر والجوع والفساد؛ مما سوف يدمر أخلاق الناس فى ظله ويدفعهم نحو الرذيلة والانحراف، ويباعد بينهم وبين دين الله.

وهذا ما نراه واقعا فى ظل المجتمعات المعاصرة.

وعلى ضوء ما بينا نرى أن اختفاء الإطعام والأمن من ساحة الواقع نتيجة لاختفاء القيم الإسلامية المتمثلة فى دين الله وحلول الاتجاهات والنظم الوضعية مكانها؛ قد أدى إلى انعزال الدعوة الإسلامية عن الواقع والناس.

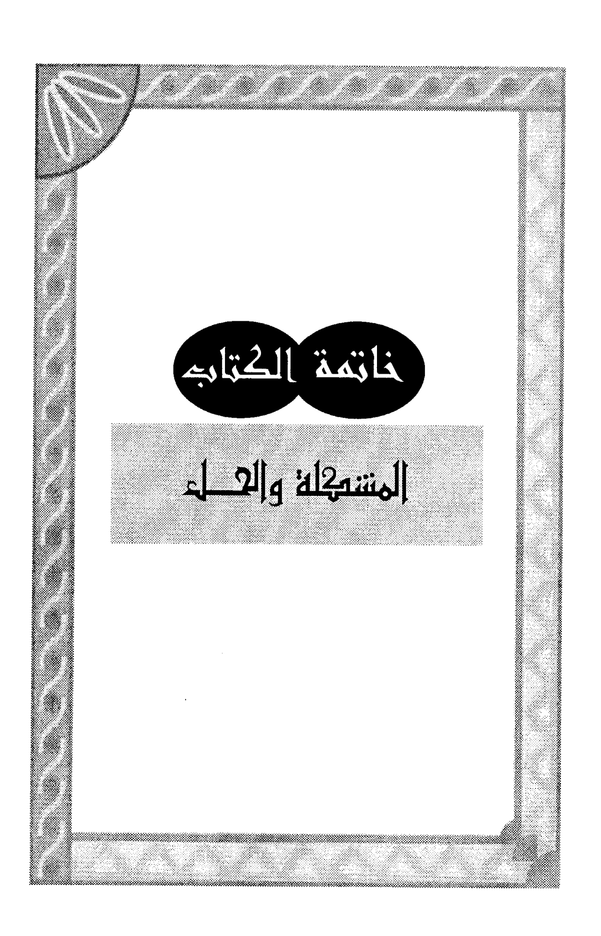
فبدلا من أن يستجيب الناس لداعى الله بسهولة وبمجرد الكلمة الإسلامية والموعظة الحسنة، أصبحوا اليوم يستمعون إلى ملايين الخطب والعظات ويقرأون آلاف المقالات والكتب ومع ذلك لا يستجيبون بل ذهب بهم الحال إلى الإعراض عن هذا كله؛ نتيجة لفتنة العيش وضغوط الجاهلية ومؤشراتها.

ولقد تأثر الدعاة أنفسهم -وليس الناس فقط- بهذه الأوضاع، التى يشتركون فى معايشتها مع الناس وبدا أثرها واضح على سلوكهم وتحركهم.

ومادامت أغلال الجاهلية فى أعناق الناس وأعناق الدعاة، مما اضطر الناس إلى التسيب والانحراف والفساد، واضطر الدعاة إلى إهمال واجباتهم تجاه الدعوة اليوم، فلابد من تغيير أسلوب الدعوة الحالى فى مواجهة هذه الأوضاع ليخرج

من حالة الركود والتميع التى فرضتها عليه بعض الاتجاهات القائمة، إلى دائرة النشاط والعمل الجاد البناء من أجل تمكين القيم الإسلامية على ساحة الواقع، التى هى الطريق الوحيد لتحقيق الإطعام والأمن بعد فشل النظم والاتجاهات الوضعية.

إن وجود النظم والاتجاهات فى أرض الإسلام خطر داهم يتهدد وجود الدعوة ومستقبلها، بالإضافة إلى خطر الأوضاع الفاسدة التى نتجت عنها بما تشكله من ضغوط وعراقيل أمام الدعاة.


خاتمة الكتاب
المشكلة والحل

المشكلة والحل

من خلال عرضنا المتقدم فى الفصول الأربعة طوفنا حول مفهوم العقيدة والإيمان فى الفصل الأول، وغصنا فى أعماقها من خلال أثرهما فى حياة المسلم وسلوكه فى الفصل الثانى، ومن خلال أثرهما فى حياة المجتمع وأنظمته وشئونه فى الفصل الثالث، ورصدنا ظاهرة الانفصام بين العقيدة والسلوك فى الفصل الرابع؛ يمكننا تجسيد عدة مشكلات وعقبات وعوائق تحول دون التطبيق الإيمانى الصحيح وتقف حاجزاً فى تحويل العقيدة إلى عمل وسلوك، ويمكن تلخيص أهمها فيما يلى:

المشكلة الأولى:

قصر فهم الناس للعقيدة، وتهميش دورها فى حياة الناس، وتقليل قيمتها الإنسانية.

العلاج: يكون من خلال إبراز النقاط التالية:

١- الإيمان بالله عز وجل عنصر ضرورى لحياة الإنسان جسماً وروحاً، فالروح تتغذى بالإيمان، والعقيدة الإسلامية تحمى الإنسان من الانحراف البدنى والنفسى والروحى.

٢- العقيدة الإسلامية تشمل خصائص ما نزل به الوحى، وما حواه الإسلام من تشريعات لاستقرار الجماعة المؤمنة ولا يستطيع الإنسان أن يبلغ الرقى إلا بهذه العقيدة.

٣- العقيدة أساسية فى تذكية النفس وتطهير القلب، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح فى الأرض، على أساس متين من ربط العبد بخالقه.

٤- العقيدة الصحيحة تدفع الإنسان إلى مراقبة الله الذى يعلم السر وأخفى فتكون العقيدة جزءاً من الفترة الصحيحة التى لا تستطيع الإنسانية أن تحيا إلا فى نورها فهى تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد وبالتالى فهى أساس صلاحه أو فساده وأساس بقائه واستمراره.

٥- يصاب الإنسان بالحيرة والاضطراب والخواء عندما يجعل العقيدة فى هامش حياته، فتعجز النظم البشرية، والقوانين الوضعية عن تقديم أى عون للإنسان أو الأخذ به إلى الطريق السليم مما يؤكد ضرورة الإسلام وعقيدته الصحيحة فى المجتمعات الإنسانية، ذلكم لما يشتمل عليه من طاقة روحية جعلت منه عند التطبيق قوة فعالة ومؤثرة شملت حياة الأفراد وحياة الجماعات.

المشكلة الثانية:

عدم فهم العقيدة فهما شاملا؛ مما يؤدى إلى أخطاء فى الاعتقاد والسلوك.

العلاج: يتم ذلك من خلال توضيح سمات العقيدة الإسلامية ومزاياها وخصائصها وذلك فى كونها:

١- عقيدة واضحة.
٢- عقيدة الفطرة.
٣- عقيدة ثابتة.
٤- عقيدة مبرهنة.
٥- عقيدة وسط (فى صفات الله عز وجل وفى علاقاتها بالعقائد الأخرى).
٦- وحدة العقيدة فى الإسلام.
٧- شمول العقيدة فى الإسلام (فى الجانب التعبدى وفى الجانب التشريعى).

المشكلة الثالثة:

الفصل بين العقيدة والتشريع، والنظر للعقيدة على أنها عمل قلبى لا أثر له فى الجانب التشريعى.

العلاج: ويتم ذلك من خلال بيان النظرة الصحيحة إلى ارتباط العقيدة بالتشريع وذلك من خلال مايلى:

١- أن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد والمجتمع من خلال أساس راسخ وهو الإيمان بالله والاعتقاد بوحدانيته وبعد هذا يأتى الجانب التشريعى بمنهج متكامل يشمل الحياة فى جميع جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق وتنظيم حياة الإنسان فى الدنيا تنظيما يربطها بالعقيدة.

٢- يشمل التشريع الإسلامى المجتمع فى علاقاته المدنية والتجارية وما يتصل بتبادل المنافع والأموال فضلا عن شموله بجميع شعب الحياة من أعمال الأفراد وعباداتهم وأخلاقهم وعاداتهم وحقوقهم وواجباتهم وملابسهم إلى آخره.

٣- يبدو شمول التشريع الإسلامى فى تناوله أحكام الأسرة مفصلة وفى علاقات الأفراد والقضاء وأصول الحكم ومعاملات الأجانب غير المسلمين وموارد الدولة الإسلامية وعلاقة الأفراد بالدولة.

٤- من البديهى أن يكون التشريع الإسلامى متكاملاً فى ضوء تكامل مفهوم العقيدة الإسلامية وشموله ووضوحه فلا فصل بين الإيمان وثمراته الحياتية، ولا فصل بين العقيدة وسلوك الناس وحياتهم، فالمفهوم الشامل للإسلام يتجاوز حدود العبادات إلى كل ما يتصل بحياة الناس المدنية.

المشكلة الرابعة:

الفصل بين العقيدة والأخلاق والنظر للأخلاق علىٰ أنها أمور تهذيبية مقطوعة الصلة بالعقيدة.

العلاج: يمكن التغلب على هذه المشكلة من خلال إبراز النقاط التالية:

١- الجانب الأخلاقى فى الإسلام لم يترك جانبا من جوانب الحياة الإنسانية

إلا رسم له المنهج الأقوم والأمثل فى جوانب السلوك بما يتصل بجوانب الحياة الإنسانية روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو جماعية، فى كل ذلك رسمت المنهج الأمثل للسلوك الرفيع.

٢- تعنى الأخلاق فى الإسلام بتهذيب النفس البشرية من خلال تقويم أخلاق الفرد المسلم لينعكس ذلك فى سلوكه وحياته، وكذا تقويم أخلاق المجتمع فى جانبها الاجتماعى مما يتصل بالعلاقات الأسرية بين الناس والعلاقة بين الأبوين والأولاد والعلاقة بين الأقارب والأرحام.

٤- لا نجد شمولاً أعظم من شمول الأخلاق فى الإسلام التى لم تغفل الحيوان والطير والرفق بهما حتى يجد الفرد المسلم أنه يحسن إلى كل ما حوله ومن حوله فيجد إمتاعا لنفسه وانشراحا لصدره وارتياحا لقلبه بعيدا عن القسوة وتحجر القلب وجمود العاطفة.

المشكلة الخامسة:

ثمة اعتقاد خاطىء أن الحياة الدنيا متاع، وأنها فترة زمنية تنتهى بعدها حياة الإنسان دون حساب أو عقاب؛ دون اعتقاد فى اليوم الآخر، وأثره فى ترشيد سلوكنا، واستقامة حياتنا.

العلاج: ويمكن تصحيح هذه النظرة الضيقة الخاطئة من خلال مايلى:

١- عدم الإيمان باليوم الآخر يجعل حياة الناس حيوانية لا تهذيب فيها ولا هدف لها فيستمر الظالم فى ظلمه غير عابىء بالحساب أو العقاب، ويأتى الإيمان باليوم الآخر يعطى الإنسان شعوراً بأنه سيحاسب على الصغيرة والكبيرة وأن هذه الحياة لابد لها من مشهد حساب يجازى فيه الناس ويحسن إليهم.

٢- لا يسوغ عقلاً أن ينفض سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب وسرق فيها من سرق وقتل فيها من قتل وتجبر فيها من تجبر ولم يأخذ أحد من

هؤلاء عقابا بل تستر واختفى وأفلت ونجا واستراح بالموت، ولم يعرض لمشهد الحساب فهذا كله ضرب خيال.

٣- بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزيز على من خلقهم أول مرة فهذا أهون عليه فالله تعالى الذى أوجدنا من العدم قادر على أن على يعيدنا مرة أخرى كى نبعث من قبورنا وينصب الميزان ويكون الحساب.

٤- الإيمان باليوم الآخر لدى المسلم يجعله يتحسب فى كل كلمة وخطوة وسلوك فيجعل من نفسه رقيبا على نفسه فهناك ملائكة تسجل عليه ما يفعل وهناك كتابا منشورا تجمع فيه أعماله وهناك حسابا ينتظره إما إلى جنة وإما إلى نار ومن قبل فهو يستعد للقاء الله والموت قريب إلى فكره وهو يتمنى لقاء الله عز وجل كى يجد لديه من النعيم ما يعوضه عن المتاعب التى لاقاها فى حياته.

المشكلة السادسة:

إغفال علاقة الإيمان بالعمل وعدم إدراك ثمرات الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص.

العلاج: يمكن التغلب على هذا بإبراز النتائج الإيمانية التى يتركها ويطبعها الإيمان فى سلوكنا وذلك من خلال توضيح هذه الآثار والثمرات فيما يلى:

١- الإيمان يحرر النفس من سيطرة الغير.

٢- الإيمان يبعث فى النفس احتقار الموت والرغبة فى لقاء الله عز وجل.

٣- الإيمان يقتضى الاعتقاد بأن الله هو الرزاق وأن الرزق فى يده تعالى فيطمئن القلب وتسكن النفس.

٤- الإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنوية ويربطه بمثل أعلى يسمو الإنسان به عن الماديات ويرتفع عن الشهوات ولا يتعلق بلذائذ الدنيا.

٥- الإيمان الحق يجعل حياة المؤمن طيبة فى الدنيا فالله تعالى وليه وحافظه وعونه فى ظلمات هذه الحياة ولا يستطيع أن يسلكها ناجحا إلا بتوفيق منه.

المشكلة السابعة:

الفصل بين قضية العقيدة والحالة الوجدانية للمسلم من حيث حالات الرضاء، والأمن، والأمل.

العلاج: يمكن التغلب على ذلك بتوضيح الأثر الإيجابى للإيمان فى الناحية الفردية لدى المسلم وذلك من خلال:

١- أثر الإيمان فى جعل المسلم راضيا عن خالقه وعن نفسه.

٢- أثر الإيمان فى جعل المسلم آمنا مطمئنا هانئا منشرح صالح البال.

٣- أثر الإيمان فى جعل المسلم غير آيس من الحياة ولديه أمل عظيم فى اليسر بعد العسر وفى الفرج بعد الكرب وفى الانتصار بعد الانكسار.

هذه الأمور الثلاثة عولجت بتفصيل شديد فى الفصل الثانى من هذا الكتاب فى المباحث «الخامس، والحادى عشر، والثانى عشر» فيمكن الرجوع إلى هذا العلاج الذى وضحناه فى أماكنه المشار إليها.

المشكلة الثامنة:

تهميش دور الإيمان والعقيدة فى حياة المجتمع، وإبعاد الدين عن الممارسات الحياتية والاجتماعية والمعاملات.

العلاج: وهذه المشكلة عرضنا لها بالتفصيل من حيث إبراز جوانب المشكلة وعلاجها فى المبحثين الأول والثانى من الفصل الثالث وهما:

١- أثر الإيمان فى حياة المجتمع. ٢- الآثار الاجتماعية للعقيدة الصحيحة.

كما عرضنا لهما فى المبحثين الأول والثانى من الفصل الرابع، وهما:

١- آثار ترك العقيدة فى حياة الأفراد والمجتمعات.

٢- آثار ترك العقيدة فى البناء الاجتماعى.

وهذا الذى رصدناه فى الانفصام بين العقيدة والسلوك فرديا وجماعيا يمكن الرجوع إليه فى الأماكن المذكورة من هذا الكتاب.

المشكلة التاسعة:

إغفال التأثير الاقتصادى للعقيدة الصحيحة، والنظر للعقيدة على أنها أمور قلبية عقدية، ولا صلة لها بالجانب المادى والاقتصادى.

العلاج: وهذه المشكلة عرضنا لها بشىء من التفصيل فى المبحث الثالث من الفصل الرابع وهو:

- آثار ترك العقيدة فى الجانب الاقتصادى.

ويمكن الرجوع إلى الحلول التى ذكرناها فى هذا الموضوع.

المشكلة العاشرة:

ظاهرة الانفصام بين العقيدة والسلوك.

العلاج: رصد الفصل الرابع سمات الظاهرة، وآثارها، وحلولها؛ فيمكن الرجوع إليه من خلال مباحثه الثلاثة؛ التى شملت هذا الموضوع بالتحليل، والرصد، والعلاج.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وختاما

اللهم اجعل عملنا هذا خالصاً لوجهك الكريم، وأثقل به موازيننا، وارفع اللهم به درجاتنا، وبيض اللهم به وجوهنا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من هذا ياأرحم الراحمين، اللهم ثبتنا بالعلم النافع، وثبتنا بالقرآن وثبت اللهم الحق بنا، واجعلنا هداة مهتدين، واجعل هذا العمل حجة لنا لا علينا، واجعله سبيلا إلى مرضاتك ورضوانك وعفوك ورضاك.

اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، واجعلنا لآياته من الحافظين، ولأحكامه من العاملين، وللذيذ خطابه من المستمعين، اللهم اجعله لنا فى الدنيا ضياءً، وفى القبر مؤنساً، ويوم القيامة ستراً وحجاباً وعتقاً من النار، اللهم ألبسنا به الحلل، وأسكنا به الظلل، وأخرجنا به اللهم من الظلمات إلى النور.

اللهم اختم لنا بخير، وارزقنا اللهم عيشة هنية، وميتة سوية، ومرد غير مخزى ولا فاضح.

اللهم يا مصرف القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يتوفنا مسلمين، وأن يلحقنا بالشهداء والصالحين، وأن يجعلنا من عباده المتقين الفائزين، ويجعل ما كتبناه خالصاً لوجهه الكريم، بمنه وكرمه، وأن ينفعنا به ووالدينا، وغفر الله لنا ولوالدينا ولسائر المسلمين أجمعين ولمن قرأ هذا الكتاب أمين يا رب العالمين.

تم الكلام وربنـا المحمــود   وله المكارم والعلا والجــود

وعلى النبى محمد صلواته   مانـاخ قمـرى وأورق عـود

والحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب بنا ويرضى، وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله، ملء أرضه، وملء ما بينهما وملء ما شاء من شىء بعد، حمداً لا ينقطع ولا يبيد ولا يفنى، عدد ما حمده الحامدون، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم أنبيائه ورسله، وخيرته من بريته، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، فاتح أبواب الهدى، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد الذى بعثه للإيمان منادياً، وإلى الصراط المستقيم هادياً، وإلى جنات النعيم داعياً، وبكل المعروف آمراً وعن كل منكر ناهياً فأحيا به القلوب بعد مماتها، وأنارها بعد ظلمتها، وألف بينها بعد شتاتها، فدعا الله عز وجل على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة، وجاهد فى الله تعالى حق جهاده، حتى عبد الله وحده لا شريك له، وسارت دعوته سيرة الشمس فى الأقطار، وبلغ دينه الذى ارتضاه لعباده ما بلغ الليل والنهار ، وصلى الله عز وجل وملائكته وجميع خلقه عليه كما عرف بالله تعالى ودعا إليه، وسلم تسليما.

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والأمهات الأساسية:

١- القرآن الكريم.

٢- كتب الحديث الشريف «كتب الصحاح جميعها- كتب السنن جميعها» وشروح البخارى ومسلم.

٣- كتب التفسير القديمة والحديثة، ومنها: تفسير القرطبى- تفسير البيضاوى- تفسير الطبرى- تفسير ابن كثير- تفسير الألوسى- فى ظلال القرآن- تفسير المنار.

٤- القواميس اللغوية ومنها: لسان العرب- القاموس المحيط- مختار الصحاح- المعجم الوجيز.

ثانياً: المراجع الفرعية من القديم والحديث:

١- ابن تيمية: **رسالة العبودية**، القاهرة، مطبعة النهضة، ١٣٨٠هـ.

٢- ابن تيمية: **السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية**، طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة، ١٣٨٩هـ،

٣- ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، الجزء الثالث، القاهرة، دار السعادة، د.ت.

٤- ابن قيم الجوزية: **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، القاهرة، مكتبة السنة المحمدية، د.ت.

٥- ابن قيم الجوزية: **حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح**، القاهرة، دار السنة، د.ت.

٦- ابن قيم الجوزية: **زاد المعاد فى سيرة خير العباد، الجزء الثالث**، القاهرة، دار السنة، د.ت.

٧- ابن قيم الجوزية: **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، القاهرة، مكتبة السنة، د،ت.

٨- ابن قيم الجوزية: **مدارج السالكين**، الجزء الثانى، دمشق، دار الرسالة، د.ت.
٩- أبو الأعلى المورودى: **الحجاب، فصل أوروبا الجديدة**، القاهرة، د.ت.
١٠- أبو الأعلى المورودى: **مبادىء الإسلام**، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ.
١١- أبو بكر جابر الجزائرى: **عقيدة المؤمن**، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٤٠٥هـ.
١٢- أبو حامد الغزالى: **إحياء علوم الدين**، القاهرة، مطبعة الحلبى، د.ت.
١٣- أبو الحسن الندوى: **ربانية لا رهبانية**، القاهرة، د.ت.
١٤- أبو الحسن الندوى: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟** ط: دار الكتاب العربى، بيروت، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
١٥- أحمد السايح: **أضواء حول الثقافة الإسلامية**، ط١، الدار المصرية اللبنانية ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
١٦- أحمد السايح: **أضواء على الحضارة الإسلامية**، ط: مكتبة دار اللواء بالرياض، ١٩٨١م.
١٧- أحمد السايح: **حاجة الإنسانية إلى ظهور الإسلام**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١١هـ.
١٨- أحمد السايح: **العقيدة فى الإسلام**، مجلة جوهر الإسلام، العدد الثانى من السنة الثانية، ١٣٩٦هـ، تونس.
١٩- أحمد السايح: **الفضيلة والفضائل فى الإسلام**، ط: مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
٢٠- أحمد عبدالله الحضراوى: **الإطعام والأمن ومنهج الدعوة إلى الله**، القاهرة، دار الأنصار، ١٤٠٠هـ.
٢١- أحمد غلوش: **الدعوة الإسلامية**، القاهرة، مطبعة الأزهر، ١٤٠٧هـ.
٢٢- أحمد فايز: **طريق الدعوة فى ظلال القرآن**، جـ١، ط٣، ١٣٣٧هـ.
٢٣- أحمد محمد جمال: الدين فطرة وميثاق، **كتاب ندوة لمحاضرات موسم حج سنة ١٣٨٩هـ ط**: رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة.

٢٤- إسحق أحمد فرحات: **التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة**، عمان، ط١، دار الفرقان، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٢٥- أسماء على محمد فضل: **أثر العبادة التربوى فى تكوين الشخصية وتحديد السلوك، ط١**، مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية، ١٤١٥هـ.

٢٦- آمنة محمد نصير: **مباحث فى علوم العقيدة**، مكتبات الكليات الأزهرية، ١٤٠٤هـ.

٢٧- أنور الجندى: **الإسلام نظام مجتمع ومنهج حياة**، ط١، دار الاعتصام بالقاهرة، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٢٨- أنور الجندى: **منهج الإسلام فى بناء العقيدة والشخصية**، ط: دار الاعتصام بالقاهرة.

٢٩- جمال الدين الأفغانى: **الرد على الدهريين**، القاهرة، الحلبى، د.ت.

٣٠- السيد رزق الطويل: **العقيدة فى الإسلام منهج حياة**، القاهرة، دار الفكر العربى.

٣١- السيد سابق: **العقائد الإسلامية**، القاهرة، الفتح للإعلام العربى، ١٩٩٢م.

٣٢- حسن أيوب: **تبسيط العقائد الإسلامية**، القاهرة، دار التراث العربى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٣٣- حسنين محمد مخلوف: **الرفق بالحيوان**، ط: مطبعة المدنى بالقاهرة، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

٣٤- خديجة النبراوى: **يقظة الأمة**، القاهرة، سوزلر للنشر، ١٤١٦هـ.

٣٥- زكريا بن عابدين عثمان: **الإيمان الحق وأثره فى بناء شخصية المسلم**، الرياض، عالم الكتب، ١٤١٧هـ.

٣٦- سعيد حوى: **جند الله ثقافة وأخلاقا**، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٠م.

٣٧- سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب: **تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد**، ط: إدارة البحوث العلمية بالرياض، د.ت.

٣٨- سيد قطب: **خصائص التصور الإسلامى،** ط: دار الشروق، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

٣٩- سيد قطب: **المستقبل لهذا الدين،** ط٦، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية، مطبعة الفيصل.

٤٠- سيد قطب: **التصور الإسلامى،** ط: دار الشروق، د.ت.

٤١- شوكت محمد عليان: **الثقافة الإسلامية وتحديات العصر،** ط: دار الرشد بالرياض، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

٤٢- عباس محمود العقاد: **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه،** جـ٥، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ١٩٧٥م.

٤٣- عباس محمود العقاد: **العقائد والمذاهب،** مجلد ١١، ط: دار الكتاب اللبنانى.

٤٤- عباس محمود العقاد: **الفلسفة القرآنية،** جـ٧، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ٣٦- ١٩٧٥م.

٤٥- عبدالحليم محمود: **الإسلام وتنظيم المجتمع،** ط: دار الكتاب العربى بمصر، د.ت.

٤٦- عبدالرحمن بن حسن الشيخ: **الرسائل المفيدة،** تصحيح عبدالرحمن الرويشد، دار العلوم بمصر، ١٣٩٨هـ.

٤٧- عبدالرحمن الوكيل: **وسائل التوحيد أو دلائله،** القاهرة، جماعة أنصار السنة المحمدية، د.ت.

٤٨- عبدالعظيم فودة: **الحكم بما أنزل الله،** ط: دار الصحوة بالقاهرة، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٤٩- عبدالكريم زيدان: **أصول الدعوة،** دار السنة بالقاهرة، ١٤٠٥هـ.

٥٠- عبدالكريم عثمان: **معالم الثقافة الإسلامية،** ط٣، مؤسسة الأنوار بالرياض ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

٥١- عبد الله عزام: **العقيدة وأثرها فى بناء الجيل،** عمان، مكتبة الأقصى، ١٩٨٤م.

٥٢- عبدالله ناصح علوان: **هذه الدعوة ما طبيعتها**، ط٢، دار السلام للطباعة بالقاهرة، ١٩٨٦م.

٥٣- عبدالمجيد بن مسعود: **القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر**، الرياض، عالم الكتب، ١٤١٢هـ.

٥٤- عمر يوسف حمزة، أحمد عبدالرحيم السايح: **معالم الوحدة فى طريق الأمة الإسلامية**، ط١، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٥٥- محب المحجوى: **سمات المجتمع المسلم**، بيروت، دار الفكر، د.ت.

٥٦- محمد أمين المصرى: **إملاءات فى العقيدة**، دمشق، د.ت.

٥٧- محمد بن سعيد القحطانى: الولاء فى الإسلام، ط١، دار طية بالرياض، د.ت.

٥٨- محمد حسين الذهبى: **الدين والتدين**، دراسة بمجلة البحوث الإسلامية، ج١٠، ط: دار الإفتاء والبحوث بالرياض، ١٣٩٥هـ.

٥٩- محمد رأفت سعيد: **التوازن فى التصور الإسلامى**، الرياض، كلية الشريعة، ١٤٠٥هـ.

٦٠- محمد سليمان: **أخلاق العلماء**، القاهرة، نهضة مصر، د.ت.

٦١- محمد شتا أبو سعد: **قل هو الله أحد**، الرياض، سلسلة مستقبل التشريع الإسلامى، ١٤١٢هـ.

٦٢- محمد صالح عثمان: **وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية**، ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ.

٦٣- محمد عبدالله دراز: الدين، القاهرة، دار النهضة، د.ت.

٦٤- محمد عبدالرحمن بيصار: **العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع**، ط٤، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٤٠٠هـ.

٦٥- محمد عثمان نجاتى: **القرآن وعلم النفس**، ط: دار الشروق بالقاهرة، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٦٦- محمد الغزالى: **عقيدة المسلم**، القاهرة، دار الدعوة، ١٩٩٠م.

٦٧- محمد الغزالى: **فقه السيرة**، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٦م.

٦٨- محمد قطب: **لا إله إلا الله عقيدة وشريعة**، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٣م.

٦٩- محمد المبارك: **العقيدة فى القرآن الكريم**،ط١٠، بيروت، دار الفكر، د.ت.

٧٠- محمد نبيل غنايم، عمر سليمان الأشقر وآخرون: **دراسات فى الثقافة الإسلامية، ط٢**، مكتبة الفلاح بالكويت، ١٤٠١هـ- ١٩٨٨م.

٧١- محمد يوسف موسى: **الإسلام والحياة**، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة، ١٣٨٠هـ- ١٩٦١م.

٧٢-محمود شلتوت: **الإسلام عقيدة وشريعة**، القاهرة، دار نهضة مصر، د.ت.

٧٣- محمود شلتوت: **من توجيهات الإسلام**، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١٣٨٩هـ- ١٩٥٩م.

٧٤- مصطفى عبدالواحد: **شخصية المسلم كما يصورها القرآن**، القاهرة، وزارة التعليم ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٧٥- المعهد العالمى للفكر الإسلامى: **إسلامية المعرفة: المبادىء العامة- خطة العمل- الإنجازات**، ١٤٠٥هـ.

٧٦- يوسف عبدالهادى الشال: **الإسلام وبناء المجتمع الفاضل**، ط: الأزهر، ١٣٩٢هـ- ١٩٧١م.

٧٧- يوسف القرضاوى: **الإيمان والحياة**، القاهرة، مكتبة وهبة، د.ت.

٧٨- يوسف القرضاوى: **الخصائص العامة للإسلام**، القاهرة، دار وهبة، ١٤٠٥هـ.

٧٩- يوسف القرضاوى: **العبادة فى الإسلام**، ط: المكتب الثقافى بالقاهرة.

كتب للمؤلف

١- فنون اللغة «رؤية فنية، ملامح قرآنية»، مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

٢- التقوى فى القرآن الكريم «دراسة لغوية وتفسيرية إحصائية»، دار الصحابة بطنطا.

٣- العدل فى القرآن الكريم «بين العلم والكون والإيمان»، المكتبة القيمة بالقاهرة.

٤- الإشارات العلمية فى القرآن الكريم «بين العلم والكون والإيمان»، المكتبة القيمة بالقاهرة.

٥- الإسلام والبعث الحضارى، مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

٦- أدب الطفل العربى «رؤى جديدة، وصيغ بديلة»، دار المروة العربية للنشر، مطبوعات الشامى.

٧- فضل التحدث باللغة العربية، الالتزام بها، مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

٨- الموت حقيقة منسية – مشترك-، مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

٩- مداخل تعليم اللغة العربية – معهد البحوث العلمية- بجامعة أم القرى.

١٠- معالم شهر الصيام -مشترك- مركز الكتاب للنشر.

١١- قضايا البيئة من منظور إسلامى -مشترك- مركز الكتاب للنشر.

١٢- تحقيق مخطوطة «الفرائد والقلائد» للإمام الثعالبى، مشترك.

١٣- تحقيق مخطوطة «غور الأمور» للحكيم الترمذى، مشترك.

١٤- تحقيق مخطوطة «الصراط المستقيم» للفيروز أبادى، مشترك.

١٥- الزواج بين الدين والطب- مشترك.

١٦- المخدرات بين الدين والطب- مشترك.

١٧- تفسير سورة يوسف عليه السلام.

١٨- تعليم اللغة العربية بين الفروع والفنون - مشترك.

١٩- دراسات فى تعليم القراءة «مفهومية، ومدخلية، ومهارية»- مشترك.

٢٠- تعليم الكتابة العربية بين الماهيه والتراثية- مشترك.

٢١- تعليم الكتابة- الأسس والمضامين والإبداع الكتابى- مشترك.

٢٢- القراءة التحليلية «آليات التحليل القرآنى، ومستوياته، ومهاراته»- مشترك.

٢٣- صفات أهل القرآن- قيد النشر.

٢٤- دراسات فى علوم القرآن الكريم.

٢٥- الإعداد لمعجم عن الإمام النورسى- مشترك.

٢٦- تحقيق مخطوطة «لطائف الإعلام فى إشارات أهل الإيمان».

٢٧- تحقيق مخطوطة «نحو الكلام فى علم التوحيد».

٢٨- تحقيق مخطوطة «تاريخ المساجد الثلاثة».

٢٩- تحقيق مخطوطة «الدرة الفاخرة».

٣٠- الأخطاء الشرعية فى الأمثال العامية.

٣١- الخط فى التراث العربى الإسلامى.

٣٢- خير الزاد فى صلاح العباد.

٣٣- العقيدة والسلوك و الانفصام بينهما.

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الأول: مدخل إلى العقيدة والإيمان ١٧

المبحث الأول: مفهوم العقيدة ١٩

المبحث الثانى: حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة ٢٨

المبحث الثالث: مزايا العقيدة الإسلامية، وخصائصها ٤٢

المبحث الرابع: مقتضيات العقيدة الصحيحة ٦٥

المبحث الخامس: المفهوم الشامل للإيمان ٧٣

المبحث السادس: حقيقة الإيمان ٨١

المبحث السابع: علاقة الإيمان بالعمل ٩٨

المبحث الثامن: ثمرات الإيمان الصحيح ١٠٤

الفصل الثانى: أثر الإيمان فى حياة المسلم وسلوكه ١١٣

المبحث الأول: الإيمان وشخصية المسلم ١١٥

المبحث الثانى: أثر الإيمان فى جانب العبادة وذكر الله وتلاوة القرآن ١٢٨

المبحث الثالث: أثر الإيمان فى تحقيق سعادة المسلم ١٣٩

المبحث الرابع: الإيمان وحب المسلم لربه والناس ١٤٣

المبحث الخامس: أثر الإيمان فى تحقيق الرضا لدى المسلم ١٤٨

المبحث السادس: أثر الإيمان فى الصوم عن المعاصى ١٥٨

المبحث السابع: الإيمان والشوق للكعبة المشرفة ١٦٣

المبحث الثامن : الإيمان وحق الله فى المال ١٦٨

المبحث التاسع: الإيمان والجانب الأخلاقى ١٧٣

المبحث العاشر: الإيمان وتفكر المسلم فى ملكوت الله ١٨٦

تابع الفهرس

المبحث الحادى عشر: الإيمان والأمن النفسى	١٩٠
المبحث الثانى عشر: الإيمان والأمل لدى المسلم	١٩٥
الفصل الثالث: أثر الإيمان فى حياة المجتمع، وأنظمته، وشئونه	٢٠٣
المبحث الأول: أثر الإيمان فى حياة المجتمع	٢٠٥
المبحث الثانى: الآثار الاجتماعية للعقيدة الصحيحة	٢٢٦
المبحث الثالث: الآثار الاقتصادية للعقيدة الصحيحة	٢٦٢
الفصل الرابع: الانفصام بين العقيدة والسلوك	٢٧٣
المبحث الأول: آثار ترك العقيدة فى حياة الأفراد والجماعات	٢٧٥
المبحث الثانى: آثار ترك العقيدة فى البناء الاجتماعى	٢٨٩
المبحث الثالث: آثار ترك العقيدة فى الجانب الاقتصادى «الأمن والإطعام»	٢٩٤
الخاتمة «المشكلة والحل»	٢٩٩
قائمة المصادر والمراجع	٣١١
كتب للمؤلف	٣١٧
الفهرست	٣١٩

مطـابـع آمـــون

٤ الفيروز من ش إسماعيل اباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦

رقـم الايـداع :
٢٠٠٢ / ٨٠٧٩
الترقيم الدولى :
977 - 294 -251- 8